



قلوب منحرة

وهي صورة منقوشة على جدار في « قصر عالي قابو » في مدينة اصفهان



الصيد

صورة منقوشة على جدار احد المنازل الارمنية في جلفه
وهي حي من أحياء اصفهان بناء الشاه عباس الكبير وأسكن فيه الأرمن

المخطوطة

وهي صورة منقوشة على جدار
في «قصر عالي قابو» في اصفهان



أنت وأنا

وهي إحدى طائفة من الصور منقوشة على ركاز جسر
يعرف باسم جسر «الله وردي خان» وبين اقواسه.
وقد كان باني هذا الجسر أحد قواد الشاه عباس

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد التسعين

١ مارس سنة ١٩٣٧

١٨ ذي الحجة سنة ١٣٥٥

على ذكر فتوى

تحديد النسل

وأثاره الصحية والاجتماعية والروحية

أصدر حضرة صاحب الفضيلة مفتي الديار المصرية في يوم ٢٩ يناير سنة ١٩٣٧ فتوى في هذا الموضوع خصتها جريدة « المصري » في عددها الصادر في ٢ فبراير في ما يلي : —
« من أرباب العائلات الكبيرة بين المسلمين وغير المسلمين أفراد كثيرون يشعرون بوطأة الازمة الاقتصادية ويخشون المستقبل ونفقات الأبناء من طعام وشراب وتعليم وقد دفعهم هذا الشعور الى التفكير الطويل في الحذر والحيطه ومن الأمور الجوهرية التي فكّر فيها هؤلاء مسألة تحديد النسل فن كان عنده ثلاثة من الأولاد مثلاً يلاقي الويل لكي يجعل منهم شاباً صالحين في بناء الوطن ولكن أغلبية هؤلاء جميعاً يعرفون ان لهم ديناً قيماً يريدون التوفيق بين نصوصه وتعاليمه وبين هذه المبادئ القاسية

«والى الآن لم يخط أحد من رجال الاسلام في السنين الأخيرة خطوة تشفي غليل هؤلاء جميعاً وتحدد الموضوع تحديداً واضحاً للأهالي والأطباء . وقد اتصل بنا ان حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية أصدر في يوم ٢٩ يناير الماضي فتوى خطيرة في هذا الموضوع يفهم منها :

« أولاً — يجوز لكل من الزوجين أن يتخذ من الوسائل ما يحول دون حمل زوجته

« ثانياً — يجوز لكل من الزوجين قبل نفخ الروح في الجنين ، وهذا يحتاج الى عدة أسباب كما قرر الأطباء أن يتخذ من وسائل الادوية (من غير اضرار بصحة الزوجة طبعاً) ما يمنع الحمل عند وجود عذر مقبول كما مثل له وهذا على رأي بعض الفقهاء
« ثالثاً — باجماع الفقهاء لا يجوز عمل او تصرف من شأنه اسقاط الجنين بعد نفخ الروح فيه »

ونحن لا نعرض للموضوع من حيث علاقته بدين من الاديان السموية لان المقتطف مجلة غير دينية ، ولا من حيث تطبيقه في هذه البلاد او غيرها من البلدان ، لان مشكلة السكان والحل على زيادتهم كما في المانيا وايطاليا وترك حبلهم على الغارب كما في فرنسا وانكلترا وغيرها ، من الخطط التي تقرها بعض الحكومات متى رأت الحاجة تلجئها الى ذلك . ولكن للموضوع نواحيه الصحية والاجتماعية والدولية ، وهي النواحي التي ينبغي ان نعالجها بايجاز في هذا المقال ، وليس لنا فيه الا جمع شتات الموضوع من مختلف الكتب والمجلات ، جمعاً حاولنا ان نحفظ فيه التوازن بين اصحاب الآراء المختلفة والمذاهب المتناقضة

ان الحركات الاجتماعية الخطيرة في تاريخ ارتقاء العمران تنبعث في الغالب عن دافع نفسي يملك مشاعر الانسان فيأخذ على العقل سبيل التفكير المجرّد . فهي آناً حركات يولدها ويبعثها في سبيل التنفيذ ديمية كالصهيونية او شعور بحق مهضوم كالثورة الفرنسية او تصور رفيع للعمل الا على نبش في جوانب النفس يدفعها في سبيل تحقيقه غير مأنفة الى ما ينالها من اذى واضطهاد كالاشتراكية وما اليها . على ان حركة تحديد النسل تختلف عن هذه الحركات الاجتماعية في انها تنبع من معرفة علمية بوجود مخاطر صحية وسياسية واقتصادية تعجم عن كثرة النسل وتواليه يجب اجتنابها ، مع انها في دورها الاخير تحولت تحولاً كبيراً لما ناله اصحابها من مقاومة واضطهاد وسجن وغرامة ولكن اساسها العلمي يجب ان لا يغفل حين بسط مبادئها والامام بسير اقطابها وفكرة تحديد النسل ، ترتد كفكرة اجتماعية الى مفكري اليونان الاقدمين بل والى ما قبل اليونان ! اذ من المعروف ان القبائل التي لا تزال الى عصرنا الحاضر تعيش على البداوة تميل احياناً الى تحديد النسل بوسائل واساليب فظة همجية اشهرها قتل الجنين او الطفل الوليد . وقد ذكر برسي سميث في مقال له عن سكان جزيرة هورن في غرب المحيط الهادئ نشر في جورنال الجمعية البولينية انه ليس من بواغث خنجل المرأة هناك ان تقتل وليدها وان هناك غير امرأة واحدة قتلت من ولدها ستة . ومن وسائلهم سحق الجنين بضغط جسم المرأة حيث الرحم بحجارة ثقيلة . وقد اشار الاستاذ كار صوندرز في مؤلفه « مشكلة السكان » الى ان قبائل بدائية مختلفة تعلم كيف تمنع الحمل وان ولدها قليل ، ولكنه لم يبسط الكلام في هذه

الوسائل . والكتب التي تعالج هذا الموضوع وتفصل التقاليد المتبعة في القبائل الهمجية كثيرة . اما في عهد اليونان فقد ذكر فلوطرخس مؤرخ العطاء الأقدمين ان ليكرغوس مشرع سبارطة قضى بقتل جميع الأطفال الضعاف البنية رغبة منه في تنشئة شعب قوي . وأدرك افلاطون وأرسطو طاليس الخطر الناجم عن كثرة الولد ، وخصوصاً من كان منهم في الأسرة الضعيفة فاقترحا اساليب متطرفة مختلفة لاجتنابه . ولكن طائفت النسيان طاف بهذه الفكرة في القرون الوسطى كما طاف بها كثرة الآراء التي ابتدعتها عقول اليونان وخيالهم . حتى بعد نهضة العلم والفن في العصور الحديثة ظلت « كثرة النسل » شعاراً لأمم أوروبا لان المفكرين حينئذ كانوا يرون عظمة كل أمة وتفوقها مرتبطتين او ثقت ارتباطاً بعدد سكانها ، ولم يشذ منهم إلا اللورد باكون الفيلسوف الانكليزي الذي اشار اشارات متفرقة في مؤلفاته الى خطر النسل الكثير في اضعاف الشعب وافقارهم . وظل القول بأن قوة الأمة الحربية وتفوقها القومي مرتبطتين بكثرة سكانها حتى القرن التاسع عشر ، لما قام مونتسكيو في فرنسا وبنيامين فرنكلن في اميركا وغيرها في بلدان اخرى محاولين ان يبعثوا آراء افلاطون وأرسطو طاليس من مدقها ميينين ان في سرعة ازدياد النسل في أية أمة خطراً على رفاهيتها

ذلك انه اذا زاد عدد السكان في بلد من البلدان زاد عمرانه ولكن الى حد ما . لان كثرة الناس في البلاد تؤدي الى اتساع نطاق العمل والعناية باستنباط ثروة الارض ورفع مستوى المعيشة . لذلك تعنى الحكومات التي تحكم بلداناً مترامية الاطراف قليلة السكان بدعوة الناس الى الهجرة اليها وترغيبهم في ذلك . واسكن لا يلبث ازدهام السكان ان يبلغ حداً تصبح الزيادة بعده خطراً على البلاد لانها تخفض مستوى المعيشة بدلاً من ان ترفعه . ويكثر طلاب العمل حتى يزيدوا على ما تتسع له المعامل والمناجر . فترتع بينهم مبادئ الشيوعيين والفوضويين ويكون المرتع خصباً او يتجهون الى التوسع والتبسط بالقوة فتكون الحروب واهوالها . وقد يتعذر تعيين هذا الحد الفاصل بين الحالىين . لانه يختلف باختلاف البلدان وما بلغته من الرقي الصناعي والتجاري والزراعي . فبلاد في عرف الكنديين تحسب غاصة بالسكان بحسبها الصينيون قليلتهم لان هؤلاء تعودوا ان يروا ٤٠٠ نفس او اكثر مزدحمين في بقعة من الارض مساحتها ميل مربع او اقل وعلى الرغم من ذلك اجمع علماء الاجتماع والاقتصاد على وجود هذا الحد في احوال معينة فيبلغ عدد السكان عنده مبلغاً يمكنهم من التمتع بأرقى وسائل العمران وأعلى مستوى اقتصادي في معاشهم . وهذا العدد يتغير في كل بلاد بتقدم الحضارة فيها . فلو ان سكان الولايات المتحدة الاميركية كانوا منذ مائة سنة ١٣٠ مليوناً — كما هم الآن — لما كان ملاك الثروة والرخاء مرفرفاً فوقهم كما هو مرفرف الآن وما نسمع عنه من كثرة العمال المتعطلين عن العمل بينهم يرتد الى سوء توزيع الثروة لا الى

شدة ازدحام البلاد بأبنائها . وبلجيكا التي تكاد تنص بسكانها أكثر رخاءاً من بلاد فارس . مع أن ٦٥٩ نفساً من سكان الأولى يقطنون في ما مساحته ميل مربع واحد من الأرض يقابلهم ١٦ في الثانية فإذا كانت البلدان المزدهرة بالسكان غير منتظمة انتظاماً اقتصادياً دقيقاً وعرضة في كل آن لانقلابات سياسية خطيرة لم يشعر الشعب شعوراً عاماً بازدهاره ووجوب توسعه . لأنه لا يجد متسعاً كافياً من الوقت للانصراف الى العمل وادراك ان نطاق العمل في بلاده لا يتسع لجميع افراد الامة لكثرتهم . فإذا انتظمت هذه البلدان وامتد فوق ربوعها رواق السلام والطمأنينة أدرك أفراد الشعب ان الأرض لا تتسع لهم ليجنوا من عملهم فيها ما يؤهلهم لمكانة بين الشعوب كمكانة حيرانهم فينظروا نظرة الطمع الى البلدان التي يمكن ان تكون منفذاً لهم

فايطاليا مثلاً لما وجدت نفسها تكاد تنفجر من كثرة السكان بالقياس الى موارد العيش فيها طلبت أرضاً تجعلها منفذاً للملايين من أبنائها وقد قال السنيور موسوليني في ذلك «يجب على ايطاليا ان تتوسع والا انفجرت» ولعل هذه الفكرة هي أقوى العوامل التي كيفت سياسة ايطاليا الخارجية في السنوات الاخيرة . وما يصدق على ايطاليا من هذا القيل يصدق على المانيا واليابان وقد كتب أحد الفلاسفة الاجتماعيين الحديثين كتاباً قال فيه ان الاتجاه من البلدان المزدهرة بالسكان الى البلدان قليلة السكان وما ينشأ عن ذلك من التصادم اكبر باعث على الحرب

ولكن القول بتحديد النسل في العصور السابقة ظل يتراوح بين الموت والحياة حتى جاء الأب « ملثوس » في آخر القرن الثامن عشر (١٧٩٨) مبدعاً ان السكان يزدادون زيادة هندسية . وأما المواد الغذائية فلا تزداد الاً زيادة حسابية . ولذلك لا بد ان يحىء يوم يبلغ فيه سكان الأرض عدداً لا تكفي مواردها لتغذيته . وأودع رأيه هذا كتابه الذي موضوعه « رسالة في مبادئ السكان » . ولما كان نشر هذا الكتاب موافقاً لذبوع المبادئ التي قامت عليها الثورة الفرنسية عني به المفكرون والكتاب فرأج في فرنسا وأخذ بمبادئه اشرافها وعامتها ، وذلك لأن وسائل مختلفة كانت قد استنبطت فيها لمنع الحمل وزادت بين طبقة الاشراف ، ولان عامة الامة الفرنسية اقتنعت بوجوب الاكتفاء بالاسرة الصغيرة منعاً لتقسيم الارض التي يملكها الأب على أبنائه ، وهذا يعمل تناقص متوسط المواليد في فرنسا من ذلك الحين . على ان وسائل منع الحمل لم تكن معروفة خارج فرنسا ولذلك أشار الاب ملثوس « بالامتناع عن الزواج » أو « تأخير الزواج » لمنع ازدياد النسل ازدياداً سريعاً . وجاء بعده فريق النفعيين الذين جعلوا شعارهم « الخير الاكبر للعدد الاكبر » فدعوا الى تحديد النسل . ومع ان مذهب ملثوس في ازدياد النسل وازدياد الغذاء قد قلب رأساً على عقب بعد الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، ظلت النتائج التي وصل اليها عن الخطر الاجتماعي الناجم عن كثرة النسل سليمة على قدمها وتقلب الاحوال عليها

ولا يخفى ان آراءنا في الفضائل الاجتماعية تتغير بتغير العصور . فالمرأة التي كانت في فجر التاريخ، تعترض على قتل ولدها ، في قبيلة جرت على ذلك ، كانت امرأة غير فاضلة في عرف أقاربها وحيرانها . كذلك كانت كل امرأة اسبرطية تحاول ان تعفي ابنها الضعيف من الشدائد التي كان يعرض لها لاثبات قوته وحقه في الحياة كاسبرطي . فالفضيلة كانت ، عمل ما يصدر عنه الخير للمجتمع ، ولم يكن من خير سكان جزيرة ، او ابناء قبيلة رحالة ان يكثر نسلهم ، كما انه لم يكن من خير اسبارطة ان يكون بين أبنائها ضعاف او هذا كان رأي أقطابها حينئذ .

ولما ارتقى العمران حل محل قتل الاطفال وسائل مختلفة للاجهاض كان لها مكانها في الفضيلة الاجتماعية في تلك العصور . فلما ذاعت تعاليم المسيحية التي تقول بأن كل نفس قابلة للخلاص صار من الاجرام قتل النفس ، ولذلك أصبح الاجهاض كقتل الأطفال جريمة لا تغتفر . أما دعاة تحديد النسل فيعترفون بوجوب الامتناع عن قتل الاطفال واجهاض الأمهات ، لان الاول في عرفهم اجرام صريح والثاني علاوة على ما فيه من اجرام يعرض الأم للام للالم المبرح وخطر الموت . ولذلك ينادون بوجوب منع الحمل بطرائق ثبت خلوها من اي اعتراض طبي او صحي او اجتماعي عليها . أما البراهين التي يوردونها لتأييد دعوتهم فكثيرة نلخص منها ما يلي :

يرى بعض المثقات في موضوع الولادة وأمراض النساء وجوب انقضاء سنتين الى ثلاث سنوات بين ولادة وأخرى حتى لا تعرض صحة الأم للخطر . واليك ما تقوله سيدة حالتها تمثل ألوف الحالات : « لا أزال في الثانية والعشرين من عمري ولكنني أم خمسة أولاد فقد ولدت ولداً كل سنة من حين زواجي الى الآن . لن أستريح قط وأشعر ان صحي آخذة في الانحطاط يوماً بعد يوم » . وكتبت أخرى : « أنا اليوم أم ستة أولاد وقد أجهضت مرتين . عمر ابني الكبير اثنتا عشرة سنة ولكنه مصاب بعاهة منذ ولادته أما أولادي الخمسة الباقون فضعاف صفر الوجوه وعلي أن آخذهم للطبيب كثيراً واحدى ابنتي عوراء . لقد حاولت ان أبتعد عن زوجي قدر المستطاع منذ ولادة ابني الأصغر ولكن ذلك يؤدي الى ما لا تحمد عقباه في سلام البيت وهناءته » . وهذان المثالان نقلناهما عن مجلة هاربرز الاميركية . وقد أثبت الدكتور ادلفوس نيف من أطباء مدينة نيويورك ان آخر المواليد في الأسر الكبيرة يكونون أضعف المواليد بنية وأكثرهم تعرضاً للإصابة بالسل . وعنده ان الام تكون قد أجهضت صحتها في المواليدات الاولى فتورث ولدها الأخير — أو أولادها — ارثاً فسيولوجياً ضعيفاً لا يمكنهم من مقاومة الآفات الصحية . أضف الى ذلك ان ازدياد الاولاد يقلل نصيب كل منهم من دخل رب الاسرة . فتضطرب الاسرة ان تسكن في احياء قدرة مزدحمة لا تدخل الشمس بيوتها وان تكتفي بالطعام الرخيص وبالكساء الذي لا يقي البرد . ومن رأي الرئيس هوفر ان كل طفل أميركي له الحق في ان يتلقى من والديه

جسماً سليماً وعقلاً سليماً وان يولد في وسط صحي تتوافر فيه أسباب العناية ». ويضيف الى ذلك احد رجال الكنيسة في اميركا « ان الاسرة الكبيرة في الطبقات الفقيرة ليست من ارادة الله ولكنها من خرق الاجتماع ». ويقول الخاخام ستيفن ويزا كبر رجال الدين اليهودي في اميركا: « ان الموقف الديني ازاء الحياة لا يقضي باكثار النسل اذا لم يكن في وسع الوالدين ان يعطوا كل ولد من العناية الصحية والتهديبية ما يجعل للحياة قيمة في عينيه »

اذاً تحديد النسل يفيد الامم ، لانه يمكنها من ان تحتفظ بصحتها ونضارتها ، وهذا يمكنها من العناية بشؤون دارها وزوجها وأولادها والقيام على تربيتهم وتهديبهم بما يقتضيه ذلك من العناية الدقيقة المستمرة والنصب الدائم. وهو كذلك يفيد الاولاد ، صحياً واجتماعياً ، اما صحياً فلأن الطفل الذي يولد من ام قوية ليس كالطفل الذي تلهده ام أنهاكتها آلام الحمل والطلق والولادة . واما اجتماعياً فتتوافر وسائل الغذاء والكساء والتعليم والتهديب وهو كذلك يفيد الاجتماع اذ يستطيع المصاب بمرض وراثي ان يكفي ميوله في نطاق الزواج الشرعي من غير ان يكون سبباً في ولادة اولاد مشوهين او مصابين باعراض يقولون قول المعري هذا جناؤه ابي علي وما جنيت على احد

وهو يفيد الاجتماع من ناحية اخرى هي الناحية السياسية فيساعد على منع الحروب بين الامم الكثيرة الولد التي تطلب التوسع لتجد لسكانها ميداناً يعملون فيه ويرزقون منه وهذا التوسع يؤدي في الغالب الى اصطدام المصالح الدولية ويفضي الى الحرب او يهدد بوقوعها. وقد قال الواعظ الاميركي الشهير الدكتور فزدك « لا يستطيع ان تضع ثقتك بالرب وتنام خالي البال اذ سمحت لسكان الارض ان يتضاعفوا كل ستين سنة »

اما نقاد هذه الحركة فيرون رأي اصحابها في الشرور الصحية الكثيرة التي تنجم عن كثرة الولادة ، ولكنهم يرون « ضبط النفس » لا « تحديد النسل » خير سبيل لمعالجة الحال . على ان هذا ، في رأي الفريق الاول متعذر ، حتي ولو اتفق الزوجان على تحقيقه لان العلم لم يكشف حتي الآن عن وقت معين لا يحدث فيه الحمل الا في اثناء الحمل . فاذا شاء الزوجان ان لا يلد لهما ولد الا مرة كل ثلاث سنوات أفيعقل ان يكون « ضبط النفس » حينئذ وسيلة لمنع هذه الشرور ! ويرى طبيب من مقام الدكتور وليم الن بيوزي رئيس الجمعية الطبية الاميركية ان محاولة تقليل عدد الاولاد « بضبط النفس » يعرض السعادة الزوجية للاصطدام على صخرة ناشزة الاثاب. وما يقال في نقد هذه الحركة ان وسائل تحديد النسل تؤذي الانسان وتسبب العقم . ولكن الاطباء الذين بحثوا هذا الموضوع بحثاً استقرائياً يؤكدون ان استعمال الوسائل التي اقرها الاطباء لا تحدث شيئاً من الاضرار المشار اليها . الا ان هذا الرأي الاخير يختلف فيه بوجه عام

ويعترض فريق آخر من النقاد بقولهم ان شيوع وسائلها يكون مقدمة لفساد الآداب الجنسية وانحلالها . ولكن الدكتور بيوزي يرى ان الحالة الحاضرة أبعث على فساد الآداب الجنسية لانه يعتقد ان الجهل بوسائل تحديد النسل يقضي الى كثير من الاضطرابات العائلية فيبحث الرجال عن طريقة غير مشروعة لا كفاء ميوهم

على ان اقوى حجج المقاومين هي اثر شيوع هذه التعاليم في الشبان والشابات . وهذه الحجة تمنع طائفة كبيرة من المتعلمين عن تأييد هذه الحركة ان لم نقل انها تحملهم على مقاومتها . فيرد انصارها عليهم بقولهم ان علماء السيكولوجيا قد أثبتوا ان النواهي لا تحمي حتى الفضيلة والآداب . ويجب ان نبحث عن طريقة اخرى كالترية الصالحة نعلم بها الاحداث الاعتصام بالفضيلة الجنسية غير النهي والمنع . أضف الى ذلك ان دعاة هذه الحركة يريدون ان يشجعوا الشبان والشابات على الزواج الباكر بازالة اكبر موانعه وهو الخوف من كثرة الاولاد التي تضعف المرأة وترهق جيب الرجل . ويرون ان الزواج الباكر أفضل الطرق لمحاربة هذه الشرور الاجتماعية

اما دعاة هذه الحركة فقد نالوا من المقاومة والاضطهاد ما ينتظر لكل حركة تناقض اغراضها ما نواضع عليه الناس قروناً متوالية واحلوه في نفوسهم وعقائدهم في المحل الاقدس . واشهر هؤلاء رتشرد كارليل (١٨٣٠) وفرنسيس بليس (١٨٣١) وروبرت وايل اون (١٨٣٢) والدكتور نولتن وجميعهم من المؤلفين الذين عنوا بوضع كتب في الموضوع من وجوهه الفسيولوجية والاجتماعية والفلسفية . وفي سنة ١٨٥٤ نشر الدكتور جورج درسدل كتاباً عنوانه اصول العلم الاحتماعي بسط فيه المثلثية (نسبة الى الاب ملثوس) الجديدة ثم انشأ بالاشتراك مع اخيه وحنة بزانت رائدة الفلسفة الثيوصوفية عصبه لبث هذه التعاليم . وفي سنة ١٨٧٦ قبض البوليس على بائع كتب لبيع نسخاً من كتاب الدكتور نولتن المدعو ثمار الفلسفة . فأعاد الدكتور برادلو وحنة بزانت نشر الكتاب وتقدماً للمحاكمة سنة ١٨٧٧ فحكم المحلفون عليهم على الرغم من ميل القاضي للاخذ بأدلتهم فكانت هذه الحادثة وسيلة لاداعة التعاليم المثلثية الجديدة ومن ثم أخذت « العصبه المثلثية الجديدة » تقوى وتمدد آثار دعوتها الى انحاء الكرة الارضية وأنشئت لذلك جريدتان في انجلترا . واسست فروع للعصبه في مختلف البلدان . وقد عقد اتحاد هذه الفروع ومؤتمرات دولية اولها في باريس سنة ١٩٠٠ ثم في لياج سنة ١٩٠٥ ثم في الهاي سنة ١٩١٠ ثم في درسدن سنة ١٩١١ ثم في لندن سنة ١٩٢٢ ثم في نيويورك سنة ١٩٢٥ . اما تاريخ هذه الحركة في اميركا فيختلف قليلاً عن تاريخها في انجلترا لان اميركيين كانوا اشد وطأة في مقاومتها وقد سنوا لذلك قانوناً يقضي على كل من يرسل رسالة بالبريد تحتوي على وصف وسائل تحديد النسل بغرامة الف جنيه وسجن خمس سنين . وأشهر القائمت بهذا العمل في اميركا السيدة مرغريت ساينجر التي استنبطت لفظتي « تحديد النسل » لوصف اغراض الحركة سنة ١٩١٤

في جبال بافارِيَّة

مَنْ لِقَلْبِي الْمُسْتَقْ
مَا دَرَى مَا يَشْتَقُ
نَازَعَتْهُ الْأَهْوَاءُ
وَهُوَ مَسْلُوبُ الرَّجَاءِ

مَنْ لِهَزَّاتِ الْجَفَا
جَازَبَتْهُ الْأَرْوَاحُ
ذَكَرَ الْعَصْفَ فَنَاءُ
بِهَاوِيلِ الْعَنَاءِ

يَا لَشَوْقٍ خَفَاقٍ
أَعْوَزْتَهُ الْآفَاقُ
شَفَّ جَنْبِي الْمِسْحَاقُ
مُسْتَبَدًّا وَاسْتِرَاحُ

يَا حَنِينِ الْعِذَاءِ
صَدَّهْ زُورُ الْحِيَاءِ
فَرَوَى غُلَّ الْعِنَاقِ
مَنْ ضُلُوعِ تَهْرَاقِ

مَنْ لِقَلْبِي الْمُسْتَقْ



كلية الطب ماضيها وحاضرها ومستقبلها



للككتور على ابراهيم ياشا

عميد كلية الطب ووكيل الجامعة المصرية ومدير مستشفياتها

١ — الماضي

لعله لا يوجد في كثير من البلدان والجامعات معهد ككلية الطب في مصر مرت عليه صروف الزمان ما بين رفع وخفض وترددت فيه لغات مختلفات ما بين ضاد وغير ضاد . ولا كمثلته معهد صمد للحوادث فأدى للوطن والانسانية رسالة صيغت من جوهر العلم في اطار من الاخلاص بل ولا كمثلته في مصر معهد توطدت بفضل الله الآن أركانه وثبت بنيانه وقد عمت به على كثر العشي ومر السنين خير التعاليم والتقاليد

≡ كلوت بك ومحمد علي الكبير ≡

من مائة عام وأثنى عشر عاماً هبط مصر طبيب شاب من أبناء بلدة مونييليه بفرنسا شاعت المقادير أن يجيب دعوة محمد علي جد فاروق الأكبر في أوائل سني حكمه وأن يقامر بمستقبله في مصر بلد الآثار والمعجائب التي كانت ذكرها لا تزال حية في قلوب الفرنسيين وأفكارهم بما حمله نابليون وعلماءه من أوصافها وجمالها

هذا الطبيب الشاب — أنطوان برتلمي كلوت — الذي اشتهر باسم كلوت بك يقف في التاريخ بجانب سيده — على الرغم من قصر هامتهما — كعلاقين بين الرجال أمكنهما تغيير صفحة الطب في هذه البلاد تقيراً عظيماً بعد أن بلغ الحضيض في عهد المماليك حتى كأنما لم تكن معابدها مصر ومعاهدها المهدي الذي فيه نشأ وما وترعرع أيام طيبة ومنفيس وهليوبوليس واسكندرية والقاهرة في عهد الفراعنة والبطالسة والعرب

جاء كلوت بك مصر والكويلرا تفكك بالأنوف في كل عام والطاعون قد سكن الدور من أكواخ وقصور بل وأقام في الشكنات العسكرية التي كانت تعج بجنود الوالي الجيئة لتأسيس ملكه وتوطيد دعائم عرشه . وليس في البلاد غير رهط جاهل من الحلائن الذين نرى الى اليوم

بقاياهم . وغير نقر قليل من رجال الطب الاجانب . فكانت مهمة قاسية تلك التي جابهت كلوت بك ان ينظم الخدمة الطبية والصحية في بلاد هذه حالتها وان يحمي الاهلين كما يحمي الفيالق من عدو غير منظور ليس لحراهم او مدافعهم به قبل او سبيل ولكن سرعان ما بدا لكلوت بك انه وان استطاع جلب جهابذة الاطباء من فرنسا وايطاليا لخدمة الوالي وامته وحيشه فان قلة عددهم وجهلهم لغة البلاد واختلاف معتقدتهم الديني عن اهلها عوامل تقف حائلاً دون الغرض الذي يبتغيه من تعيين وسائل التطبيب والتصحیح . وان اولئك الاطباء من ابناء الغرب محتاجون الى مساعدين من الاطباء والصيدالة ابناء مصر بل الى ممرضات ومولدات من بناتها

وهكذا وعلى الرغم من دسائس الحاقدين وانتقاد البائسين وقلة ثقة البعض في استعداد المصريين وبفضل تشجيع سيده العبقري العظيم وبعد سنتين اثنتين من حلوله الديار أنشأ في سنة ١٨٢٧ مدرسة لتعليم الطب وألحقها أول الامر بالمستشفى العسكري في أبي زعبل . ومن ثم نقلها بعد ذلك بعشر سنين الى مقرها الباقي الى الآن بجوار قصر العيني . وهو الآن خزان في الزمان السابق خارج المدينة قصرأ للولاية الاترك ثم اختاره اطباء حملة نابليون زماناً داراً لعلاج جرحاهم وممرضهم وبفضل مثابة كلوت بك واخلاصه لوطنه الثاني تمكن من احداث ما كان يعد اعجوبة في ذلك الزمان فجدد الطلبة من بين الازهرين يطعمون ويكسون وينامون ويؤجرون من جيب الدولة الجديدة . وترجم لهم المحاضرات من الفرنسية الى الايطالية فالعربية على لسان عنقوري المترجم السوري الوحيد في ذلك الزمان الذي كان يعرف الايطالية . والشيخ محمد الهراوي الازهري الذي أختير تهذيب لغة المحاضرات والمؤلفات بل للتدريس أيضاً الى ان أدخل تعليم اللغة الفرنسية لتسهيل مهمة الاساتذة

وما ان مرت خمس سنوات على انشاء مدرسة الطب حتى صار يخرج منها عدد من الاطباء يكفي المستشفيات والحيش . وفي عشر سنوات باع عدد المتخرجين ٤٢ طالباً جازوا بمجادة الامتحانات التي كانت تعتمد علمية في ذلك الزمان . حتى لقد شاء كلوت ان يدل على مبلغ نجاحهم فسافر في عام ١٨٣٢ بفرقة من المتخرجين الى باريس حيث نجحوا بتفوق أدهش ممتحنهم الذين كانوا صفوة اساتذة ذلك العصر كدجنيت ولاري طبيي نابليون الشهيرين ودوبوترين وبروشيه وسواهم . وظلوا بعد ذلك زماناً في باريس يزيدون من خبرتهم ومعلوماتهم وصاروا طليعة لسواهم من اطباء مصر في القرن الماضي

والى ان مضى محمد علي الى رحمة مولاة بعد ١٨ سنة من تأسيس مدرسة الطب كان قد بلغ عدد الحيل الجديد من الاطباء المصريين نيف و ١٥٠٠ . وكانت قد تمت ترجمة ٥٢ مؤلفاً

طبيياً من الفرنسية الى العربية تولت اخراجها دار الطباعة في ولاق بالآلاف وانتشرت نسخها في تركيا والجزائر وتونس ومراكش وسوريا وايران . وصارت تعبيراتها اساساً للمؤلفات التي يقرؤها الاطباء الآن في مدارس الطب في استانبول ودمشق وسواها
ولكنه ما ان تولى ابراهيم عرش ابيه سنة ١٨٤٨ ففقدته البلاد بعد قليل ثم تولى بعده عباس الأول حتى دخلت مدرسة الطب في عهد جديد كان عهد تقلقل واضطراب اذ كان عباس يمقت الاجانب ولا سيما الفرنسيين وكل ما كان لهم به صلة فاعتزل كلوت بك منصبه في ابريل سنة ١٨٤٩ بعد ربع قرن انشأ خلاله غير المدرسة الطبية مدرسة للصيدلة وللمولدات كما أسس المستشفيات في الحياء القطر وأوجد نواة مصلحة الصحة العمومية ومصلحة الكورنيتين وأدخل التطعيم ضد الجدري وتشريح الجثث لتعليم الطلبة وأوجد نظام الحلاقين الصحيين الذي بدأ ينفذ الآن

وما ان رحل مؤسس مدرسة الطب العتيد حتى استخدم عباس الاساتذة الالمان ومن حسن الحظ انه استقدم اولهم جرينجر سنة ١٨٥٠ وتودور بلهارس اللذين كانا من خيار العلماء والاول منهما فضل اكتشاف دودة الانكلستوما كما ان للاخير خاصة اكتشاف الدودة التي تسبب البول الدموي الشهير بين المصريين واطلق عليها اسم (البلهارسيا)
وجاء في النهاية دور جرينجر فسافر مكبوداً سنة ١٨٥٢ وخلفه الكسندر رير الالمانى زمناً ولكن سرعان ما ضاق صدر عباس بالالمان فحرب الايطاليين واستقدم راتش وراتزي من فلورنسا سنة ١٨٥٤ . ولكنه ما عم ان مات في نفس ذلك العام وخلفه سعيد الذي وجد المدرسة على أسوأ حال من الفوضى فأغلقها وشرّد طلبتها ايدي سبا بين فيالق الجهل وفرقه
وظلت مدرسة الطب زائلة عن الوجود بعد ذلك طوال عامين الى ان أسرع كلوت بك الى مصر لانقاذها ونجح بمساعدة راتزي في حمل الوالي على اعادة افتتاحها في سبتمبر سنة ١٨٥٦ تحت ادارته مرة اخرى . ولكن سوء صحته أبعده ثانياً عن المعهد الذي احبه أكثر من اولاده وتولى من بعده ادارة المدرسة ثلاثة من بني وطنه واحد الاطباء المصريين الى ان تولى اسماعيل عرش جده سنة ١٨٦٣ فوجدتها مرة اخرى على شيء غير قليل من الاخطا والنقص

﴿ محمد علي البقلي والحديو اسماعيل ﴾

وهنا برز في الميدان محمد علي البقلي باشا الطبيب المصري الشهير فتولى ادارة المدرسة سنة عشر عاماً سويّاً كانت درة في جبين الادارة الوطنية اذ رفع من شأن المدرسة وأصلح أمورها وكان الاساتذة جميعاً من ابناء البلاد ما عدا جاستيل المعروف وكانت لغة التدريس العربية

وفي زمانه ترجمت أنفس المؤلفات الفرنسية الحديثة وصدرت مجلة البحوث الطبية الأسبوعية عدة سنين وأرسلت البعثات بانتظام الى الخارج وبرز الأطباء المصريون الى البحث والتحقيق العلمي وبالمجلة بلغت المدرسة شأواً عظيماً الى ان شاء سوء حظها للمرّة الثالثة أن تصاب بلطمة أليمة بتقاعد محمد علي البقلي سنة ١٨٧٩ أثر خصام شيخه بينه وبين علي باشا مبارك الشهير فتولى الإدارة بعده جلياردو بك وسرعان ما حدثت الثورة العراقية بعد ثلاث سنوات

﴿ عيسى حمدي والحديوي توفيق ﴾

وفي سنة ١٨٨٣ تولى ادارة المدرسة مصري قدير آخر هو عيسى حمدي باشا الذي يمكن اعتباره المؤسس الثاني لها بعد كلوت بك ، ففي عهده سادها النظام واستتب العمل على خير الوجوه . وكان من اساتذتها نفر من كبار الاطباء المصريين مثل عثمان باشا غالب الذي كانت له شهرة عالمية واكتشف دودة القطن ووصف دور حياتها . ودري باشا سيد الجراحين في زمانه . وبفضل عيسى حمدي ونفوذه صار انشاء المباني الجديدة في المدرسة سنة ١٨٨٧ وأنشئت بها غرف للمحاضرات ومعامل للبحث وأخرج الطلبة من المدرسة للمبيت في الخارج . وفي تلك السنة صارت البكالوريا شرطاً للدخول في سلك المدرسة وفرضت المصاريف على الطلبة للتعليم ١٥ جنهما في السنة وحُتّم عليهم ان يقدموا رسالة قبل حصولهم على الدرجة الطبية وجعلت مدة الدراسة ست سنوات للطب وأربع للصيدلة وثلاثاً للموليدات وبالمجلة دخلت المدرسة تحت يده الحكيمة في عهد جديد من التقدم والارتقاء لاتزال آثاره باقية الى اليوم وعاونهُ من الاطباء الانجليز بعض اكبرهم كساندويث وملتون الجراح الشهير . ولكن عيسى حمدي اضطرّ بدوره للاستقالة سنة ١٨٨٩ أثر خلاف بينه وبين رئيس الادارة الطبية بعد ست سنوات مجيدة الذكر والأثر

وللمرة الرابعة عادت المدرسة الى الانحطاط في عهد خلفه يباعث الحسوية في وظائفها الى ان تولى شأنها ابراهيم باشا حسن سنة ١٨٩٣ وقد كان رجلاً فاضلاً ولكن حدث في عهده تنظيم المدرسة على الطرق الانجليزية وزيادة الاساتذة الانجليز وتحويل لغة التعليم الى الانجليزية حتى افرد ادارتها الدكتور كيتنج من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩١٩

﴿ عهد الاحتلال الانجليزي ﴾

وكان كيتنج رجلاً حديدياً في ادارة المدرسة ولكن قساوته الظاهرة ما كانت لتجيب شديد اهتمامه بسمعتها وسمعة خريجها في كل مقام ومقال . وقد بلغت المدرسة في عهده وعهد

مساعديه من الاساتذة البريطانيين شأواً غير قليل من النظام والدقة ولا يزال الكثيرون من خريجي ذلك العهد يذكرون بالحير ملنون ومادن وفرجوسن وفيليبس وسواهم كما يذكرون شمت ولوس من كبار الاساتذة الالمان الذين كان وجودهم في هذا العهد أثراً للصلة القديمة بين هذا المعهد وبلادهم

وفي هذا العهد توثقت الصلة بين مدرسة الطب في مصر والكليات الطبية الملكية في إنجلترا ووضع النظام الذي لا يزال قائماً من بعث تلك الكليات لاستاذ زائر في كل عام وقد اقتصرت المدرسة في هذا العهد على الدراسة الطبية الأولى فلم تدخل عليها درجات الاختصاص العليا التي كان المصريون يلجأون للحصول عليها الى خارج بلادهم

سعد زغلول ومدرسة الطب

وقد حدث في اثناء ذلك العهد تولي زعيم البلاد المغفور له سعد زغلول وزارة المعارف في سنة ١٩٠٨ فرأى بثاقب بصره زيادة ارسال بعثات التخصص الى الخارج لادخال العنصر المصري في التدريس وبالتالي لادخال العربية لغة للتعليم في مدرسة الطب اسوة بزميلاتها في المدارس العالية . واليه يرجع أول الفضل في اعادة مدرسة الطب سيرتها المصرية الاولى في عهدنا الحديث كما نراه الآن في شخص أغلب اساتذتها ومساعدتهم

الحرب العظمى وما بعدها

وساعد على ذلك أنه حينما اندلعت السنة الحرب العالمية العظمى وانتظم أغلب الاساتذة الاجانب في جيوش بلادهم وقع عبء التدريس على اكتاف المصريين فقاموا بالعمل خير قيام حتى رضي كيتنج ان يجعل منهم رؤساء غير مرؤوسين وسافر كيتنج سنة ١٩١٩ وعقبه رتشاردز الى سنة ١٩٢٤ في سني الثورة المصرية الحرجة وفي ذلك العهد خرج التفكير في انشاء الجامعة المصرية الى حيز العمل وصار اختيار موقع مستشفى فؤاد الاول الجديد في جزيرة الروضة ووضعت سياسة تولي المصريين مناصب الاساتذة نهائياً في كلية الطب

وجاء من بعده ولسون ثم مادن سنة ١٩٢٦ وفي عهده أعيد تنظيم الكلية على الطرق الحديثة وأدخل في برامجها الدراسات العليا وانشئت مدرسة لطب الاسنان ووضع الاساس الذي نهضت به الكلية النهضة العظيمة الحالية . ومات مادن سنة ١٩٢٩ .أسوفاً على خلاله وخصاله . وفي مايو من تلك السنة شاء مجلس ادارة الكلية ان ياتي على كاتب هذه السطور حمل ذلك

العبد، الخطير الجليل مترسماً في ذلك خطوات زملائه السالفين مستلهماً السداد من ارواحهم في عهد تاريخي كبير الأثر في حياة هذه البلاد

٢ - الحاضر

مضى القرن الاول من حياة مدرسة الطب وهي كما وصفت تبدو أحياناً مشرقة وضاحة الجبين ثم يسترها الغمام ولكن الى حين . ولعمري انه اذا قيست حياة المعاهد بحياة الانسان واذا شبهنا تلك المائة عام بعهد الطفولة ما كان لنا ان نعجب لما ذاقنا تلك المدرسة من مسرّة وحلو لأن للطفولة امراضها وعلمها كما لها نشاطها ومرحها وانما لنا ان نقرّ عيناً ونستريح خاطراً انها أهضت ذلك العهد على ما يرام وصار لنا ان ننظر لها عمرأ مديداً وعيشاً رغيداً في ظل النهضة المصرية الحديثة ولقد كتب الله لمدرسة الطب بالفعل دخول عهد الشباب مذ صارت في عام ١٩٢٤ كلية بل دعامة هي اقوى دعائم الجامعة المصرية . وكما ينتظر من دم الشباب قد اندفعت فيها روح جديدة ووصلت سرعاً الى آفاق أعلى وأسمى

فهي الآن كلية تضم تحت جناحيها اربعة معاهد كبيرة لدراسة فنون الطب وعلومه . فلطب واحدة ، وللصيدلة اخرى ، والانسان مدرسة ، وللتمريض والتوليد رابعة . وصار لا يكتفى بال بكالوريا بل على الطالب ان يتزود من كلية العلوم بقسط علمي ثمين لمدة عام وان يبرز بين اخوانه حتى يصل الى ساحتها الغناء

واستكملت كل مدرسة منهن أهبتها وجمالها . ففي مدرسة الطب تغير الانكماش القديم الى انبساط قضى به تقدم المعارف الطبية فانقسم علم التشريح الى فروع منها علم الاجنة وعلم تقويم الانسان وانقسم علم وظائف الاعضاء الى الكيمياء الحيوية والتشريح المجهرى وبرز علم الامصال كفروع قوي من فروع البكتريولوجيا وانقسم علم الطفيليات الى علم الطفيليات ذات الخلية الواحدة وعلم الديدان وعلم الحشرات وعلم الفطريات . وأدخلت دراسة جديدة لعلم الباثولوجيا الاكلينيكية التي تتير الطريق امام الطبيب بفحص افرازات المريض ودمائه . وظهرت في الجراحة أقسام للنظام وللاجهزة البولي وانشى قسم جديد للصحة العامة شرع هو الآخر يتفرع الى اقسام التغذية والصحة الصناعية والابوثة وما اليها . هذا فضلاً عما بلغته المدرسة من الشأ وفي تدريس الامراض الباطنة وامراض العيون

وارسلت الكلية البعثات تلو البعثات بما لم يكن له من قبل مثيل من بين ابنائها الفجباء للتخصص في تلك الفروع وسواها فبرزوا رفقاءهم في عقر دارهم وعاد ولا يزال يعود الكثيرون ممثلين حماسه وملمهين غيرة ونشاطاً

وبلغ الحال مثل تلك الحال في مدرسة الصيدلة التي انشئت فيها علم تشخيص العقاقير واتسع نطاق التحليل الكيميائي للأدوية والأغذية . وأما مدرسة الاسنان فقد سدت فراغاً عظيماً كان محسوساً في هذه البلاد وقضت على عهد كان بالدجاجة مذموماً

وأما مدرسة التمريض والتوليد فصارت طالباتها من ذوات الشهادات المدرسية كالابتدائية والدراسة الثانوية في قسمها الأول ورأسبات القسم الثاني وبعدها كانت تضع سنة كاملة في تعليمهن اللغات والحساب تمهيداً لدخولهن معجمان التعليم الطبي صرن يتلقين فنون التمريض ثلاث سنوات كاملات ثم فن الولادة عاماً وآخروا لاثارات الصحيات كذلك عاماً آخروا للتدليك والكهرباء الطبية سنة ونصف وصار للكلية غير درجة الطب والجراحة أو الصيدلة أو الاسنان العادية درجات عليا ودبلومات للاختصاص . فهناك درجة ماجستير في الجراحة بفروعها وهي : —

١ — الجراحة العامة ٢ — جراحة الاعضاء التناسلية والمجاري البولية ٣ — جراحة العظام ٤ — التوليد وامراض النساء ٥ — جراحة الخنجرية والاذن ٦ — الرمد وجراحة العيون ودرجة دكتوراه في الطب بأقسامها وهي : ١ — الطب الباطني العام ٢ — امراض الطفولة الاولى وامراض الاطفال ٣ — طب المناطق الحارة ٤ — الصحة العامة

ودرجة ماجستير في جراحة الاسنان ودرجة ماجستير في الصيدلة ودبلومات خاصة هي : —
١ — دبلوم الصحة العامة ٢ — دبلوم طب المناطق الحارة وصحتها ٣ — دبلوم الرمد ٤ — دبلوم الطب الشرعي ٥ — دبلوم علم الاشعة الطبية

وستنشأ دبلومتان خاصتان للكيمياء التحليلية والكيمياء الحيوية بل أن هذه السنة نفسها قد رأت انشاء قسمين جديدين كبيرين للتخصص احدهما في الجراحة والآخر في الامراض الباطنة وصارت الفرصة بذلك متاحة لكل طبيب مصري او غير مصري ان يستزيد من علمه ويستكمل من فنه على احدث طراز ونظام وأن يحصل على تلك الدرجات العالية في نفس وطنه وبلاده

وصار لكل قسم من اقسام الطب من المعامل والمخاض ما تبرز به الكلية سواها من كليات الخارج وهي ثروة عظيمة لا تقوّم بمال ولا عتاد ولا يقاس بها غير المتحف المصري ان كان يقاس معهد احياء بمعهد اموات

أما مستشفى قصر العيني فقد تحول الى دار علاج نظيفة كاملة الادوات والمعدات حتى لتخفى هويته الآن على كلوت بك ذاته وهو الذي ذرعه نيفاً وعشرين سنة جيئةً وذهاباً في القرن الماضي ولم يغير قصر العيني من إهابه فحسب بل تغيرت معالمه ومعداته الداخلية لراحة المترددين عليه من طلبة واطباء ومرضى . وفتحت به اقسام جديدة لفروع الطب الجديدة

وتضاعفت به حجرة العمليات وأنشئت مساكن جديدة للنواب وغرف محاضرات غير ما زاد منها في مباني كلية الطب جاريته

بل ان الطلبة ذاتهم قد اصابهم التغيير والتبديل فظهرت بينهم الطالبات لدراسة الطب اسوة بدراسة التمرريض والتوليد والاشياء لهم نادٍ يضم شتاتهم ويقيمون به حفلاتهم وزاد عددهم وتوثقت صلاتهم باساتذتهم

بل ان ذلك التجديد العظيم لم يكن ليشتفي سغب النفوس المتعطشة الى التقدم والارتقاء . فصَحَّ العزم على انشاء مستشفى جديد ومدرسة جديدة في جزيرة الروضة يشدان اُزر المعهدين القديمين المجاورين وقد تم بالفعل انشاء جانب كبير من مستشفى فؤاد الاول التعليمي ونقلت اليه العيادة الخارجية التي يؤمها نيف واربعة آلاف مريض كل يوم كما نقل اليها منذ بضعة اسابيع ٤٥٠ سريراً للأمراض الباطنة . فاذا استكمل صار به القان من الاسرة غير الالف الباقية في قصر العيني وغير مائتي سرير في مستشفى الاطفال الذي اشترته الحكومة لحساب التعليم ومائتي سرير في مستشفى كشنر اي ٣٤٠٠ سرير مما ليس له مثال ولا صنو في عالم الشرق وكثير من جهات الغرب جميعاً

على ان عظمة المعاهد العلمية لا يجب ان تقاس بفخامة مبانيها وكثرة اسرتها ونفقاتها وانما هي في الحقيقة بكفاءة رجالها . واذا كنا قد أعدنا للعلم الطبي في مصر داراً شاحخة الذرى فيحاء واسعة فأنتا لم تكن لننسى ان العلم والبلاد يتطلبان من ذلك الغرس محصولاً يافع الثمرات ولذا فان تلك المعاهد لم تبَنَ للتطبيب والتعليم فحسب، بل كذلك لاجراء المباحث العلمية التي هي مناط التفاخر اذا سوقه قامت . وقد بدىء بالطلاب فجهزت جوائز ثمينة ذهبية ومالية للبرزين منهم . فهناك مادلينات ذهبية باسم عيسى حمدي باشا للأمراض الباطنية وعلم وظائف الاعضاء وأخرى باسم مادن للجراحة الاكلينيكية وباسم فيليبس للطب الباطني الاكلينيكي وجائزة مالية باسم محمد شاهين باشا للتخصص في الصحة العامة ومثلها باسم مظلوم للصيدلة وباسم بحري كذلك . وصندوق آلات جراحية يهديه محل كلان الفرنسي في كل عام الى أول الطلاب المتخرجين ومداينة ذهبية في الجراحة باسم علي ابراهيم

وثبتنا بالمتخرجين فصار لا يدخل الطالب عداد المدرسين حتى تمضي عليه سنوات في الاستزادة من الدرس والتحصيل وحتى ينال ارقى الشهادات كالدكتوراه في الفن الذي ينبغي وحتى تشهد له اساتذته بالاستعداد والكفاءة وصار لا مطمع لنأشئ أن ينال ترقية الا اذا اوتي في عيونه عدداً غير قليل من الابحاث الفنية الطريفة التي نشرتها له الجامعة أو المجلات المصرية والاجنبية يشق بها طريقه الى الامام

وجعلت الكلية لا تقصن بالاجازات العلمية في الخارج كما لا تقصن بارسال البعث وجعلت تدعو كبار الاساتذة الاجانب في كل شتاء ليحاضروا الاطباء والطلاب في اطراف المواضع بل اخذت اخيراً في ارسال بعوث من الطلبة ليحضروا اسبوعاً او اسبوعين في احدى الجامعات الخارجية وبدأت بجامعة باريس في الصيف الماضي ليتعارفوا وتتفتح اذهانهم ومخيلاتهم وليعرفوا ان العلم لا دين له ولا وطن ولا لغة وان الذين يقفون حياتهم عليه هم المفاجون

كذلك زادت الصلة بالكلية الطبية الملكية بكثرة وفود الطلاب المصريين للحصول على شهادتها العالية القيمة . بل لقد تم اتفاقنا مع الكلية الالمانية ان توفد الينا طلاباً للتعلّم في بلادنا وان توفد اليهم مقابل ذلك من اطباءنا من يكونون من طلبة الدراسات العالية ويعرفون اللغة الالمانية وقد وصلت الامور من التقدم ان كثر في البلاد عدد الاختصاصيين وانقضى العهد الذي كان تطيب العائلات فيه وفقاً على الاجانب يتباهون به ويتفاخرون . وصار الاطباء المصريون علماء على نهضة بلادهم يشرفونها في اي مؤتمر حلوا واي حفل تزلوا

ويعيني العد اذا شئت ذكر النابغين منهم في فروع الطب ونواحيه . اما الابحاث العلمية التي وصل اليها هذا المعهد الجليل في دراساته المتعاقبة الى الآن فما يفخر به اي معهد في اي مكان . واذا كان قد اشترك في بعضها الاساتذة الاجانب في العهود الماضية كما كتشاف الانكستوما والبالهارسيا ودورة حياتهما فان الجيل الجديد والحمد لله قد كذب الخطأ الذي طالما اشاعه المفرضون من ان العقل الشرقي قد اصابه التحول والكسل . وهذه الابحاث علمائنا في امراض بلادهم تكشف المكنون وتهتك المستور . فهذا باحث عن اسباب حصوات الحالب وآخر عن داء الفيل وثالث عن مقاومة الطفيليات وآخر عن تضخم الطحال وأمراض القلب وآخر يفحص الاعشاب المصرية والاعذية المصرية والحشرات المصرية وغيره يبحث عن امراض الكبد والشرابين والرمم . وسواهم يفحص دم المصريين وغير ذلك مما لا تحيط به مثل هذه العجالة . ومما يقوم دليلاً على ان المعهد القديم قد انجب ابناء يسيرون في الطريق مع سواهم من علماء العالمين ولا تضيرهم وعناء السفر بل يسعدون ويهناؤون اذا زادوا حرفاً في قاموس الفن الشريف الذي جعلوا منه قوت يومهم وقوت نفوسهم معاً

٣ - المستقبل

قد مضى على كاتب هذه السطور الثماني السنوات الاخيرة وقد امتزجت فيها حياته امتزاجاً شديداً بالمعهد الذي فيه ربي ومنه خرج واليه عاد ليقضي بقية حياته العاملة جندياً ثم قائداً . واكبر أمله الآن ان يرى بعينه تنفيذ الخطة التي ترسمها اسلانه الأكرمون والتي اقضاها

تقدم العلوم الطبية يوماً بعد يوم تقدماً لم يخطر ببال جراح ولا جرى على ذهن طبيب
ولكن هناك غير هذا العامل الشخصي اموراً اجل خطراً واكبر قيمة تجعل من الواجب
جعل هذا المعهد في صورة مثالية تشرف البلاد

فمصر هي قائدة الشرق تتطلع اليها عين الاقطار العربية الشقيقة وهي في الوقت نفسه ملتقى
القارات القديمة الثلاث يعبر ارضها ومياها وهواءها المسافرون والتجارة من جانب العالم الى
جانبه الآخر . وفيها تمثل حضارة الفراعنة وحضارة العرب وحضارة اوربا معاً . وما أخرى
وطناً وهذا شأنه ان يكون بلداً نموذجياً في اهله ومعاهده ونظمه جميعها

ولقد استيقظت البلاد وحكامها وعلى رأسهم الملك العظيم الراحل فؤاد الأول الى هذه
الحقيقة كل التيقظ ، فلم ترض بالمال على دراسة الطب حتى لقد قررت نيفاً ومليونين من الجنيهات
لانشاء مستشفى فؤاد الاول وكلية الطب الجديدة وتحسين قصر العيني وكلية الطب القديمة وشراء
مستشفى رعاية الاطفال بالمنيرة وقد صرف من ذلك الى الآن مبلغ مليون ومائتي ألف من الجنيهات
اما الخطة التي رسمناها للمستقبل فستفضي الى تخصيص قصر العيني لذوي الامراض المستعصية
ولأقسام التخصص والى تخصيص مستشفى فؤاد الاول للامراض المعتادة من جراحية وباطنية
ونسائية وعيون . وان تقسم كلية الطب الى جزئين احدهما ينقل الى المباني الجديدة ويشمل اقسام
البكتريولوجيا والطبيليات وعلم التشريح المرضي وعلم الاقرباذين وهي علوم ذات صلة وثيقة بالمستشفى
اما القسم الباقي فيوزع على مباني السكينة الحالية فيخصص المبنى الشمالي لانشاء معهد للصحة
العامة مستكمل لمعامل فحص المياه والاعذية والمتخلفات واجراء التجارب البكتريولوجية والكيميائية
ذات الصلة بذلك الفرع الهام من العلوم الطبية

ويخصص المبنى المواجه له في الجنوب الذي يليه لعلم وظائف الاعضاء بفروعه الثلاثة والمبنى
الجنوبي الذي يشيد الان لمدرسة الصيدلة . اما المبنىان الغربيان فيخصص احدهما للطب الشرعي
في دورين فوق نادي الطلبة ويخصص الآخر بأدواره الثلاثة لعلم التشريح بمتاحفه ومشرحه
ومعامله . وسيضاف اليها مبنى سابع يؤوي ادارة السكينة وبهواً للاجتماعات والاحتفالات

وهكذا ستجد الاقسام المختلفة جميعاً سبيلاً الى الاتساع بما يؤمل ان يكفيها حقبة طويلة
اخرى من السنين وييسر لها سبيل البحث العلمي في هذا العهد الحديث . وتقضي خطتنا المرسومة
ان يتسع مستشفى رعاية الاطفال الذي ضمه الجامعة اخيراً الى مستشفياتها التعليمية فيبلغ مائتي
سرير . وان نعد مستشفى كتشنر بعد اتفاقنا الاخير مع مجلس ادارته لتعليم طالبات الطب فنون
ذلك العلم وان ننشئ في مدرسة الطب الجديدة معهداً كاملاً يقطع علماءه ولابحاث انقطاعاً ليحلوا
الكثير من المعضلات الطبية والصحية التي تجابه الاطباء والبلاد الان وفي المستقبل

بل اننا لن يستريح لنا خاطر او تطمئن نفوسنا حتى ننشئ بجوار هذه المعاهد كلها معهداً لطب المناطق الحارة . فمن عجب ان طالباً مصرياً يود التخصص في هذا العلم لا يجد مندوحة عن السفر الى اوربا بينما بلاده ذاتها هي في المناطق الحارة . بل انه لمن العجب ان طالباً انجليزياً او فرنسياً او المانياً او ايطالياً يرغب في تلك الدراسة فلا يجد في مصر المدرسة التي تشفي غليله فيخرج اليها كالحجج طلابنا الى اوربا للدراسة في الفنون الطبية الراقية بها

ولا شك ان موقع مصر الجغرافي يتيح فرصة نادرة لتلك الدراسة فإنه فضلاً عن المرضى من بحارة السفن القادمة من الشرق الاقصى وركابها وهم الذين يغذون مدارس طب المناطق الحارة في ليفربول وهامبورج ومرسيليا ولندن والجزائر بمادة التعليم توجد امراضاً المتوطنة ذاتها من بلهارسيا وانكلستوما وملاريا وداء الفيل والديدان المعوية وتضخم الطحال والبلاجرا وهي من اهم امراض المناطق الحارة

وقد شرعنا بالفعل في الاتصال بأولي الامر في هذا الشأن مؤملين قريباً انشاء معهد لطب المناطق الحارة يحمل اسم الزعيم الراحل الذي كان له فضل تقوية العنصر الوطني في مدرسة الطب من ثلاثين عاماً . ونود ان نرى فيه الطالب المصري بجانب الطالب الانجليزي او السوري او الفرنسي او الالماني او الايطالي في مدرج واحد ومعمل واحد ومحاضراتهم الاساتذة المصريون فيما هم فيه ثقة ومرجع

ان هذه الصورة التي ذكرتها لكلية الطب وفروعها كانت في الواقع صورة مثالية خيالية من عدة سنوات ولكنها قد تحققت في كثير من نواحيها . ويبدو المستقبل واضحاً بسلاماً لاتمام نواحيها الاخرى

فكلية الطب قد دخلت الآن في عهد تاريخي آخر يشبه في علو شأنه العهد الذي خلقها فيه كوت بك خالد الذكر الذي وقف تمثاله في ساحتها الى اليوم وفي باب مستشفاه امام تمثال سيده العظيم وعلى وجهيهما دلائل البشر لما يشاهدون وصار العالم جميعاً ينتظر منها ومن اساتذتها ومساعدتها وطلابها شيئاً آخر غير مجرد اتقان حرفة التطبيب . انه يتطلب منهم البحث والاستقصاء وشحذ الفكر في اكتشاف اسرار الجسم السليم والجسم العليل

ان الصورة المثالية التي ارجوها لهذا المعهد الجليل في مستقبل ايامه هي ان يصل فيه التخصص الى ارقى نواحيه وان يكون اكبر معهد في الشرق للعلوم الطبية وان تكتظ مراجع المؤلفات والرسائل الطبية باسماء علمائه المصريين وان يخفف آلام الانسانية بفضل اكتشافاته وابحاثه وانه بذلك لجدير وعليه لا مین ان شاء الله

مصلحة الآثار

للككتور سليم بك حسن
وكيل مصلحة الآثار المصرية

١ — ما هو تاريخ اشتغال المصريين بدراسة الآثار في مصر ؟

— بعد فك رموز اللغة الهيروغليفية ، واتجاه الأنظار الى دراسة الآثار المصرية دراسة جدية أنشئ المتحف المصري سنة ١٨٥٧ بمجهود أحد العلماء الفرنسيين «مارييت باشا» . وقد كان من الطبيعي ان يكون من ضمن رجال المتحف والمصلحة في الاقاليم بعض المصريين . وقد نبغ من هؤلاء اكثر من واحد ، في مقدمتهم المرحوم احمد باشا كمال ، اذ انه قام بعمل كثير من الحفائر العلمية ، ووضع عدّة مؤلفات نفيسة بالنسبة لذلك العهد . كما كان له مقامه المحترم بين معاصريه من العلماء الأجانب

وكان للمرحوم احمد كمال باشا طلبة يدرسون عليه ، وقد نجح في آخر سنة من حياته في حمل الحكومة على انشاء مدرسة عالية لدراسة الآثار المصرية . افتتحت هذه المدرسة فعلاً في أوائل عام ١٩٢٤ ، ولكن القدر وافاه قبل افتتاحها بقليل . وعند انشاء الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ ألحق بها قسم للآثار تابع لكلية الآداب ، ضمت اليه المدرسة القديمة ، واختير الاساتذة من بعض المصريين الذين اشتغلوا بهذا الفن ، وعاونهم بعض الاجانب من علماء الآثار — ٢ من هم الاساتذة الأحياء الذين أسسوا دراسة الآثار في مصر ؟

— كان طلبة المرحوم احمد باشا كمال عديدين ، ولكن الذين استمروا جدياً في الدراسة واتخذوها عملاً لهم هما اثنان الاستاذ محمود حمزة الأمين المساعد للمتحف وأنا . ومن بين زملائنا في ذلك العهد صاحب السعادة احمد باشا عبد الوهاب وزير المالية السابق ، والاستاذ رمسيس شافعي مدير مصنع طرايش القرش والاستاذ احمد البدري ناظر مدرسة الفيوم الثانوية

٣ — ما هي جهود قسم الآثار والنتائج العلمية التي وصل اليها مدة اشرافكم عليه

— عندما عينت للتدريس في كلية الآداب ، وجدت أن رفع مستوى الدراسات الاثرية لا يتم الا بعمل حفائر علمية لكي تساهم الجامعة بنصيبها بين الجامعات الكبرى ، ولانكون هذا الحفائر مدرسة عملية لتربين الطلاب فيها . وفي نفس الوقت كانت لي مساعدون يعاونوني في الاشراف على هذه الحفائر . وهؤلاء لم يمرنوا التمرين الكافي ، وكثيرون منهم يمكنهم القيام الان

بأي حفائر علمية ، لا تقل في قيمتها عن قيمة اية حفائر يقوم بها أجنبي . وقد آتت هنا هذه الحفائر موسماً الثامن وظهرت المؤلفات الخاصة ببعضها

أما هذه الحفائر التي نقوم بها فهي في منطقة اهرام الجيزة ، ولست أريد الاطالة في الحديث عما لهذه المنطقة من الشأن ، ولا عن الآثار القيمة التي عثرنا عليها ، او الفوائد العلمية التي اضافتها هذه الحفائر الى العلم . ولكن يكفي ان نذكر ان نتيجة هذه الحفائر قد كشفت كشفاً تاماً عن عصر ملوك الاسرة الرابعة ، وقد وجدنا مقابر الكثيرين من الاسرة المالكة في ذلك العهد ، مع ما احتوته من آثار هامة ، كما ان الحفائر في الموسم الاخير حول ابي الهول ، اتاحت الفرصة لحل كثير من رموزه ، واصبحنا لأول مرة نعرف حقيقة وتاريخه والملوك الذين كانوا يقدمون له احتراماً خاصاً ، ويسيرون المنشآت تمجيداً له

٤ — هل تفضلون بذكري شيء موجز عن حقيقة ابي الهول ؟

من المحقق ان تمثال ابي الهول يمثل أحد الآلهة وقد صنع في الاسرة الرابعة ، ولم نصل الى اسمه في ذلك العهد ، ولكن الحفائر الاخيرة امطت اللثام عن الكثير مما يختص به ، فنحن نعرف الآن انه كان يعتبر اسماً من آلهة الشمس ، اسمه « حور خفيس » اي « حورس في الافق » .. ولأول مرة علمنا انه كان له اسم آخر هو الاصل الذي اخذت منه كلمة « ابي الهول » محرفة عن الاصل القديم بار هون

كما كشفنا حوله عن لوحات كثيرة أهمها اللوحة العظيمة التي أقامها الملك امينوفيس الثاني من الاسرة الثامنة عشرة ، جاء فيها انه تولى الملك وهو « في سن الثامنة عشرة وأنه كان قوياً محباً للجياذ ، وليس في المملكة من يناظره » كما ذكر أيضاً انه قام برحلة من سقاره الى الهرم وأعجب بتمثال ابي الهول وأمر بانشاء هذه اللوحة مع معبد صغير لتكون بجوار آثار اجداده وقد وجدنا هذه اللوحة مقامة في مكانها كما وجدنا المعبد الذي اشار اليه

٥ — ما هو صدى هذه المكتشفات في الدوائر العلمية الاوربية ؟

— ذكرت لكم ان هذه الحفائر اضافت كثيراً من المعلومات الهامة الى التاريخ المصري ، وعلم الآثار المصرية . ومن الطبيعي أن تكون النتائج التي وصلنا اليها موضع اهتمام علماء الآثار في كل مكان وجميع الذين يفدون منهم يزورونها كما ان المؤلفات العلمية الخاصة بها تعني بالحصول عليها جميع الهيئات العلمية ، ويسرنا ان نذكر انها كانت موضع تقديرهم ، كما ان اكثر المجالات الخاصة بالآثار أشادت بهذه الحفائر ورحبت بالنتائج التي وصلنا اليها

٦ — ما هي الاسباب التي تحول دون نشر مؤلفات الآثار التي يكتبها مصريون باللغة

العربية .. لغة البلاد ؟

— الحقيقة أنه ليس هناك صعوبة في التأليف باللغة العربية ، ولكن هناك عامل هام لا يمكن اغفاله وهو أننا في مستهل حياتنا العلمية الأثرية وأكثر علماء العالم لا يجيدون اللغة العربية ، فأصبح من الخير أن تنقل لهم أبحاثنا ونتائج مجهوداتنا الى لغاتهم لكي يتحققوا من أن المصريين لا يقلون عنهم في شيء ، وأن لهم أبحاثاً تفيدهم ، كما استفدنا نحن وما زلنا نستفيد من أبحاثهم . وهناك ام كثيرة مثل اليابان وروسيا وبولندا يكتب علماءها بحوثهم العلمية الصميمة بأحدى اللغات الثلاث الانكليزية او الفرنسية او الالمانية . . وهذا لا يحول دون وضع هذه المؤلفات باللغة العربية متى توافرت الوسائل اللازمة والظرف المناسب

٧ — ماهي الصورة المثالية التي نرجونها لدراسة الآثار في مصر ؟

— ان ما ارمي اليه هو تعميم دراسة الآثار في كل ناحية من نواحي الحياة المصرية ، وان ارى المصريين يقومون بالبحث عن تاريخ اجدادهم على صورة تماثل الصورة التي وصل اليها العلماء الاجانب . والتفكير في هذا الموضوع يؤدي الى ان ندرك أننا يعوزنا شيء كثير للوصول الى هذه الغاية . واني اقدم بعض أمثلة أتمنى تحقيقها في القريب العاجل

اولاً — قيام بعض الشبان المصريين الذين درسوا الآثار بحفائر علمية واسعة النطاق ، واني اذكر مع السرور ان بعض هؤلاء الشبان قد بدأ فعلاً بمثل هذه الاعمال

ثانياً — انشاء متاحف محلية في عواصم المديريات ، واذا كانت البلدان المتوسطة في اوربا لها متاحف بها اقسام مصرية تحوي مكتشفات هامة فمن واجب مصر ، وهي مهد هذه الحضارة القديمة ، ان تنشأ فيها متاحف في مختلف الاقاليم تبين اولاً الآثار المكتشفة في هذه الجهة ، كما تحوي ايضاً بعض الآثار المكتشفة في جهات أخرى والتي تزيد عن حاجة المتحف المصري ، ولا يخفى ما في انشاء مثل هذه المتاحف من فوائد ، اذا انها على الاقل توجه نظر سكان كل مديرية الى تاريخها القديم وتبعث نشاطاً وتنافساً في الاقبال على الحفائر

ثالثاً — ان تهتم وزارة المعارف بتسهيل دراسة التاريخ والآثار في مدارسها بان تعهد الى فنيين بالقاء محاضرات ودروس ، وتنظيم الرحلات ، وحفظ مجموعات كاملة من الصور للآثار المصرية حتى يشاهدها التلاميذ والتلميذات بالفانوس السحري

رابعاً — ان تشجع وزارة المعارف المؤلفين المصريين من الاثريين بنشر ابحاثهم الشعب المصري ، وتسمي فيه حبه لآثار اجداده بطبع هذه المؤلفات ومنح المكافآت اللازمة . واني أؤكد انه في اليوم الذي تقدم فيه وزارة المعارف على ذلك سيتقدم لها اكثر من فرد من المصريين بمؤلفات نفيسة تشرفهم كمصريين ، وتأتي بالفائدة المرجوة للوزارة وللهيئات العلمية وللمصريين جميعاً

الضوء

والاحياء الدنيا

تجارب جريمة طريفة

منذ عهد قريب أقام المهندس الأميركي « هين » المختص بالاضاءة ، مأدبة أعد لها كل ما لذ وطاب من الاكل والحلوى. ولكنه أعد كذلك أساليب خاصة لاضاءة بهو المأدبة ، فبدلاً من الاكتفاء بالمصابيح الكهربائية المألوفة ، أعد مصابيح خاصة لها مصاف لونية تحجب من ضوء المصابيح جميع الألوان الا اللونين الأخضر والاحمر على اختلاف درجاتهما . وأقبل المدعوون الى المائدة وهم مرحون جذلون ، ولكنهم ما لبثوا ان فركوا عيونهم ليعلموا ان في بقعة ثم أم في منام . فاللحم المشوي رمادي اللون والكرفس ورديته واللبن أحمر كالدم والليمون كالبرتقال والقهوة صفراء باهتة والبسلة الخضراء سوداء فاحمة والفول السوداني أرجواني . وكان الطهي على أجود ما يمكن ان يكون ، ولكن هذه الألوان الغريبة أثرت في حواس المدعوين ، فغضبهم لم يقبل على الطعام وبعضهم غادر المائدة قبل نهاية المأدبة وأصيب مدعوان بقيء عنيف وقد كانت هذه المأدبة دليلاً على ان تأثير الضوء لا ينحصر في حاسة البصر بل يشمل الحواس الأخرى كحواس الذوق والشم واللمس . وليس الغرض من هذا المقال الا بيان بعض ما كشفه البحث الحديث عن تأثير الأضواء المختلفة في بعض الحيوانات الدنيا كالميكروبات والهوام والحشرات تقاس أمواج الضوء بوحدة تعرف باسم « انغستروم Augstrom » . فما هو الانغستروم ؟ خذ قلم رصاص وخُط به خطاً على ورقة بيضاء . هذا الخط عرضه في الغالب مليمتر . فالانغستروم جزء من عشرة ملايين جزء من عرض ذلك الخط — أي من المليمتر . والعين البشرية لا ترى من أمواج الضوء الا ما كانت سعته متفاوتة من ٤٠٠٠ انغستروم الى ٨٠٠٠ انغستروم . فالأمواج التي طولها اكثر ٨٠٠٠ انغستروم لا تحس بها عيوننا لطولها ولكن تحس بها بعض أعصابنا لانها أمواج حرارة . اما الأمواج التي يقل طولها عن ٣٣٠٠ انغستروم فلا تحس بها عيوننا لقصرها وهي تختلف بحسب قصرها من الأشعة التي وراء البنفسجي الى الأشعة السينية بين الأشعة التي وراء البنفسجي والأشعة السينية منطقة من الأمواج يتفاوت طولها من ٣٠٠٠

انفسرتم الى ألفين هي موضوع بحث دقيق الآن في غير دائرة واحدة من دوائر البحث العلمي قد يصح ان توصف هذه الأمواج بأنها امواج أشعة ممتة . ولكن قدرتها على النفوذ من الأجسام يسيرة فهي لا تحترق الجلد ولكنها قد تفرح . الا انها تमित الميكروبات وقتل الميكروبات من ضرورات الجراحة والعلاج . ولذلك عمد « هين » صاحب المادبة وصحبه من مهندسي الاضاءة الى استنباط مصباح صنعت « شركة وستهموس للمصابيح » مائة نموذج منه وبعث بها الى مائة طبيب ليجربوها في بعض نواحي العلاج . ومما تستعمل له هذه الاشعة قتل الاحياء الدقيقة التي تكون في مواد الغذاء المعدة للخبز او للحفظ . ويتوقع هؤلاء المهندسون ان تصبح هذه المصابيح في متناول العامة بعد خمس سنوات

هذا في ما يتعلق بالاشعة التي تقتل الحيوينات المجهرية . ولكن هناك طائفة اخرى من الامواج تستعمل لمكافحة بعض الهوام والحشرات التي تقتك بالزروع ليلاً . فينصب لهذه الحشرات شرك اساسه مصباح قائم فوق صفيحة من النفط او بقرب ورقة عليها صنع طري ، فيجذب الضوء الحشرات اليها ، فتقع في الصفيحة او تلتصق بالورقة بعض الحشرات يجذبها ضوء نستطيع ان نراه ، وبعضها ينفرها هذا الضوء . وبعضها كالجناد يبصر بضوء لا يراه الانسان . ولكن معظم الحشرات والهوام التي تطير في الليل وتبصر بامواج من الضوء الذي نراه ، تهفو في الغالب الى الضوء المزرق . اما اللون الاحمر فلا يجذبها لان عيون الحشرات على ما يظهر لا ترى الاحمر ولا الاخضر . فالمصباح الاحمر يجذب من الحشرات اقل مما يجذبها المصباح الابيض اللون ، حالة ان الاصفر والذهبي ينفرانها . وهناك ما يبعث على الظن بان الاشعة التي وراء البنفسجي اشد الاضواء جذباً للحشرات

ثم هناك ناحية اخرى . فالعلاقة بين الحياة وورق النبات الاخضر اوثق وأشهر من ان تحتاج الى تعريف . تتخذ الورقة من الارض والهواء مواد تصنع منها بفعل مادتها الخضراء (الكلوروفل) وضوء الشمس اصول غذائنا ووقودنا . وكان الظن اولاً ان البزور لا تنش والاوراق لا تنمو الا بفعل ضوء الشمس . ولكن التجارب الحديثة اثبتت غير ذلك . فقد ظهر ان تعريض اي نبات زهري لضوء كهربائي قوي ساعتين كل يوم يفضي الى ازهار ذلك النبات . وقد اثبت باحث يدعى « فلنت » ان الاصفر والبرتقالي والاحمر هي الالوان الحيوية في حياة النبات ، واما الازرق والبنفسجي وما اليها فالوان الاستكثان او الموت ثم ان فلنت وجنصن وجدا ان منطقة ضيقة من اللون الاحمر تفعل فعل السم في النبات ان ضيق النطاق يحول دون الاسترسال في هذا الموضوع الفئان ولكن ما تقدم دليل على ان ميدان البحث الذي تمهده هذه المباحث ميدان لا حدود له

اقفل تلك النافذة

كيف عارضت الدول أولاً في
انقضاء المحاكم المحظوظة

لو شاء الباحث لمضى في بيان هذا الجشع العثماني الى مدى لا حد له . ففي المحفوظات المصرية الملكية من الحقائق ما يكفي لكتابة فصل أثر فصل على هذا النمط . ولكننا بلغنا نهاية سنة ١٨٧١ وهذا التاريخ يصلح كغيره من التواريخ لانزال الستار على هذا الباب

إلا أن القارئ قد يستغرب لماذا شددنا في الفصول السابقة على « الناحية الادبية » من ميزانية أعمال اسماعيل ، وأصررنا على أنه إذا بدا للباحث ان طائفة من النفقات التي انفقها لم يكن لها قيمة يقيم لها المالي وزناً خاصاً ، فانها راجحة في ميزان « القواعد الادبية » ، ثم عمدنا بعد كل ذلك إلى تخصيص صفحة بعد صفحة رسمنا فيها صورة يقلب عليها حديث الارتكاب ويدنا أن الخديو أنفق عشرات الألوف من الجنيهات على سبيل الرشوة . فهذا التناقض الظاهر يحتاج الى قليل من التفسير

ان المفتاح إلى سر هذه المشكلة هو القول الصريح بأننا لا نحاول أن نجعل من اسماعيل قديساً . لأنه لم يكن كذلك . بل كان ابن بيته ، وكان متصفاً بمساوى فضائله وفضائل مساويه . فكان يوزع المال على السلطان والصدر الأعظم والباشا وصبي المكتب لأنه كان في حرب مع تركيا ، وكانت هذه وسيلته في اقامة الحرب

سبق لنا أن قلنا أن الجنرال ستون ونحو أربعين من الضباط الاميركيين الذين انتظموا في خدمة الخديو بعيد انتهاء الحرب الاهلية الاميركية قيل لهم أنهم انما ينتظمون في خدمته للكفاح في سبيل استقلال مصر . وقد كانت الدعوة الى انضمام سيوفهم في سبيل الدفاع عن الحرية ، هي المغناطيس الذي جذب هؤلاء المحاربين القدماء الى الشرق بعد تسريحهم من الحرب الاهلية . وكان الاختيار قد وقع عليهم لأن اسماعيل أدرك أنه اذا اختار اوريين ، فكأنه منح اوربا رهناً اول على استقلال بلادهم . قيل أنه كان قد اعدّ معداته ليعلن تحديده لتركيا اثناء الاحتفال بفتح ترعة السويس . وكان قد اتفق مع الملك فيكتور عمانوئيل على ان تقهر تركيا من ملك ايطاليا

انها اذا تدخلت في اعلان استقلال مصر فحيش بيدمونت واسطوها بها جان بعض البلدان العثمانية النائية . وترأى الى سماع نبوليون الثالث هذا النبأ فعارض اشد معارضة . فاضطر اسماعيل ان يتخلى عن خطته لما تبين مقاومة فرنسا . فاباء اوربا على اسماعيل ان يحارب تركيا حمله على الالتجاء الى حرب يقوم فيها المال مقام المدفع

ولا يمكن اقامة الدليل على اقوال قاطعة كهذه اذ ليس ثمة كتاب ازرق في صفحاته ما يؤيدها ولكنها قائمة على تأكيدات صادرة من مقام عال لا يمكن ان تقبس اقواله . ولكن كل شيء يؤيد دقة الحقائق الاساسية التي تستخلص منها . فطموح اسماعيل الى تحرير مصر مما لا يتطرق الريب اليه . بل ان الحجة سياسته كلها يؤيد ذلك . وليس ثمة باعث على الشك في قول الكولونيل شاييه لونغ . وقد كانت خبرة الحديو بالجشع العثماني ، مما أثبت له قدرته على اخذ الاستقلال بالسيف اذا سمح له أن يتحدى السلطان . وكذلك نستطيع أن نفهم وجهة نظره . وهي كما يلي :

« أن أوربا تأتي عليّ باعلان استقلال مصر ومحاربة تركيا اذا اقضى الامر في سبيل الحصول عليه . وإذن فلا فز بالاصلاح القضائي والاستقلال الذاتي بالسلح الوحيد الذي يتاح لي . انني سأشتري ضمايرهم . ان هذه الغاية جديرة بهذا البذل »

ولكن الراجح أن التاريخ الذي ذكر لمهاجته تركيا كان خاطئاً . فهو لا يتفق مع انتظام الضباط الاميركيين في خدمته . فالتواريخ في عقود خدمتهم أما سابقة قليلاً لتاريخ افتتاح التربة وأما بعيد . ثم أنه لا يتفق مع الحقائق التي بسطها نوبار باشا في الرسالة التالية التي كتبها من باريس في ١٢ مايو سنة ١٨٧٠ : —

« في الحفلة الساهرة التي أقامها السفير الاسباني قال لي لورد ليونز أن لورد كلارندون كان قد علم من نواح مختلفة ما أوصى به الحديو في أميركا من السلح وأنه أمره (لورد ليونز) بأن يحدثني في الموضوع ويحذرنى من أن الطريق التي يسلكها سموه طريق وعر ولا يفضي الى شيء طيب » ودعيت الى زيارة لورد ليونز في اليوم التالي فذهبت فأعاد عليّ ما كان قد قاله وأضاف اليه أن ستانتن (الفصل الجنرال البريطاني في القاهرة) قد تلقى أوامر بأن يقابل الحديو . فقلت أنني لا أعلم شيئاً مما يزعم من أمر شراء الاسلحة . فأجاب لورد ليونز بأنه يعلم كل العلم أنني غير مطلع على ذلك ، ولكن ما وصله من الحقائق صريح وقاطع ولا سبيل إلى الشك فيه . ثم قال أنه اذا لم نحل المسألة فقد تسفر عن متاعب وعقد جديدة لا ترغب فيها أوربا . وقال أنه من الطبيعي أن الحديو يرغب في أن يكون مستقلاً ، ولكن لما كان سموه ذكياً وحكماً فإنه يدرك ان هذا التسلح يشير ريبة الباب العالي ومخاوف الدول^(١)

وفي مذكرة مؤرخة في ١٠ مايو سنة ١٨٧٠ بعث بها نوبار الى القاهرة ولكنها من من إبلاء فردينان ديلبسس تقرأ ما يلي : « قابلت الآن دوق ده جرامون فسألني هل اعلم ما يفعله الخديو الآن . فقلت لا . فيسألني ان حكومة الامبراطور

وزراء فرنسا لنوبار : —

« قل لسموّه باسمي ، كصديق ، ان هذه الاسلحة تثير القلق ، وان الحكومة ولا سيما الامبراطور لا ترغب في عقد عقد ، وان هذه الاسلحة بدلاً من ان تعزز مكانة الخديو توهنها » (٢)

تلقت معلومات عن

لو عهد الكاتب الى

كتابة رسالة في ادب النفس
لكن يلوم اسماعيل لانه
عهد الى السلاح الوحيد
المتاح له عندما وقفت اوربا
هذا الموقف . فقد كان لا بد
له من ان يلين لهذا الضغط
السياسي لكنه حقن انهرأ
من الدماء ووفر ايكاساً
من الذهب بما فعل . فحقت
مصر من عمله فائدة
عظيمة ، وان كان قصر النظر
على الناحية الادبية من
عمله لا يعترف بها . فلو
سمح له بان يحارب ،

وأحرز الظفر في تلك الحرب ، لكانت النفقة
اعظم جداً من الاموال التي فرقها ابراهيم
بك على رجال لم يغوهم بماله بل كانوا جزءاً
من اداة حكومية فاسدة

واذا كانت مصر اليوم من اكثر الامم

في أوائل مارس ١٩٣٧ يخرج رئيس
تحرير « المقتطف » ترجمة لكتاب
بيير كرايتس القاضي الاميركي في
الحاكم المختلطة سابقاً وهو الكتاب
الذي وضعه في الخديو « اسماعيل »
ورد فيه ما وجه الى اسمه من تهمة
وفرى ، مستنداً الى اقوال المؤرخين
والساسة ، محلاً الارقام والجداول ،
معتمداً على وثائق رسمية لم تنشر
محفوظة في قسم المحفوظات بسراي
عابدين . وقد استأذن المترجم مؤلف
الكتاب وناشره في نقله الى العربية
فجاز منهم بالرخصة الرسمية .
وهذا المقال الجانب الاكبر من
أحد الفصول

معاهدة عقدها الخديو مع
الولايات المتحدة ارتبط
فيها سموّه باستخدام
لحو خمسين ضابطاً
اميركياً ، واوصى
بسفن حربية ومواد
حربية وطريدات وانه
عزم على ان يرفع علم
الثورة على السلطان .
قال الوزير : انك تفهم
الحالة . فان فرنسا على
الرغم من صداقتها للخديو
مصر ، لا يسعها ان تؤيد
هذه الخطوة ، وستضطر

ان تنحاز الى انكلترا وبقية اوربا . فاذا وقع
ما يخشى فان اميركا بعيدة ، والخسارة لا تقع
على مصر ولا على التركة بل على الخديو » (١)
وفي كتاب آخر مؤرخ في ١٨ مايو
سنة ١٨٧٠ نجد ما قاله اميل اوليقيه رئيس

رخاء ، فانها مدينة في ذلك لعقريه كرومر وبعد نظر اسماعيل . انني لن احاول هنا ان اسوغ التأيد الاول بل اسوقه على انه قول نهض عليه الدليل . اما العامل الاساسي في القول الثاني فهو الاستقرار الذي تتمتع به مصر نتيجة للاصلاح القضائي الذي بذل ابراهيم في سبيله جهداً عظيماً مشجعاً الوزراء في الاستانة بينما كان نوبار في العواصم الاخرى يحاول اقناع رجال السياسة المجرّبين

ولا بد من كلمة في طبيعة هذا الاصلاح القضائي . انه وليد ما توصف به مصر في القانون الدولي من انها دولة تتمتع الدول الاجنبية فيها بامتيازات خاصة . وهذا يعني ان الاجانب فيها لا يحاكمون بمقتضى القانون المصري فقانونها يشمل المصريين لا الارض المصرية . فالانكليزي كان قبل هذا الاصلاح ، اذا باع بضاعة لبرتغالي فيها ، او الاسباني اذا باع بضاعة لهولندي ، لا يقيم احدهما قضية في محكمة مصرية استصداراً لحكم يؤيد حقه في استيفاء ماله ، بل كان على الاول ان يقيمها في القنصلية البرتغالية فيرضى بتفسير القنصل للقانون البرتغالي ، والثاني في القنصلية الهولندية فيقبل تفسير القنصل للقانون الهولندي ، وقد لا يفوز باكثر من ذلك

وكل هذا كان من شأنه ان ييث الاضطراب في المعاملات التجارية ويحول دون ورود رؤوس الاموال الاجنبية لاستغلالها في البلاد . فالاصلاح القضائي الذي كافح اسماعيل في سبيله كفاح متشبثٍ مُصيرٍ ، نصّ على انشاء قضاء مختلط او دولي وعلى اصدار قانون متعاقب يطبق في البلاد كأنه دولة داخل دولة . وقد لحص لورد كرومر في احدى رسائله اختصاص هذه المحاكم قال :

« ان تفصل في القضايا المدنية والتجارية والنزاعات الناشئة من تملك الارض ، بين الاوربيين (يريد الاجانب) والمصريين او بين الاوربيين (يريد الاجانب) من جنسيات مختلفة او بين الاوربيين (يريد الاجانب) والحكومة المصرية » ^(١)

لما بدأ احتلال انجلترا مصر كان قد انقضى ست سنوات على انشاء المحاكم المختلطة . وكان من اثرها بث روح الاستقرار والضمان في الاعمال حتى اصبحت مصر لا تحتاج الا الى استقامة السر اثناع بارقع — كما كان يعرف لورد كرومر حينئذ — وصدق قصده وبارع خياله ، لكي تقام خزينتها على اساس سليم . ولولا ذلك العيب (بروقصل) العظيم لصاعت الثمار الطيبة التي جنيت من الاصلاح القضائي ، ولكن لولا انشاء المحاكم المختلطة وما تنبّه من روح الثقة ، لانهار الى الارض الهيكل الذي اقامته انكلترا بسعيها الصادق

ثم هنالك عنصر آخر لا يجب الاغضاء عنه عند ما يلام اسماعيل على انفاقه مبلغ ٢٨٩٤٢١

(١) مصر بعد كرومر : تأليف اللورد لويد : هامش صفحة ١٧ المجلد الاول

جنباً على الأقل ، للفوز من تركيا بالاصلاح القضائي والاستقلال الذاتي . وهو منطوق في القول المأثور « خير للذين يسكنون بيوتاً من الزجاج ان لا يقذفوا حجارة » . واللورد ملتر الذي وصف الخديو بقوله انه « غشاش اصيل » يقيم لنا الدليل على صحة هذا القول المأثور . فهو يقول في كتابه « انجلترا في مصر » : « ولا يمكن ان تصور تصويراً صادقاً مبلغ الفساد الذي كان الوكلاء الدبلوماسيون الاجانب — ولا سيما في عهد اسماعيل — يعمدون اليه في استعمال نفوذهم لينزعوا من مصر المسكينة الضعيفة مالاً توفية لا وقرح المطالب

» لم يكن الغرض الاساسي من الفوز بامتياز ما في تلك الايام استغلال ذلك الامتياز استغلالاً نافعاً ، بل اختراع سبب لاهماله ثم مطالبة الحكومة بتعويض . وعلاوة على ذلك كانت كل خسارة تصيب اي اجنبي ، او اي ضرر يلحق به حتى ولو كان ناشئاً عن حادث هو المسؤول عنه ، فرصة تقسم للمطالبة بتعويض . فاذا سرق ماله وقع اللوم على الحكومة لانها لم تقيم الحراس الكفاء . واذا جنح زورقه الى الشاطئ ، لام الحكومة لانها لم تنظف قعر النهر مما تراكم فيه . ويقال ان اسماعيل قال لاحد حشمه في خلال مقابلة مع احد الاجانب : اقفل تلك النافذة لانه اذا اصاب هذا الكريم بركام كلفني ذلك ١٠ آلاف جنيه ، وليس في هذا القول اي مبالغة

» فلما انشئت المحاكم المختلطة ، كانت المبالغ المطلوبة من الحكومة تعدل ٤٠ مليون جنيه . اما ما تمثله هذه المبالغ من الضرر الذي لحق بالمطالبين بها ، فيمكن ان يتبين من ان احدهم كان يطالب بمبلغ ٣٠ مليون فرنك فحكمت له المحاكم المختلطة بالف جنيه ^(١) »

ان العبرة التي تستخلص من هذه الفقرة المقتبسة واضحة . فاسماعيل كان واقفاً وظهره الى الجدار . وقد كانت بعض الوزارات الاوربية تؤيد هؤلاء المبتزين وتحرّضهم على ابتزاز المال من الخديو . وهذا قول فيه معنى التحدي ، ولكنه يستنتج من كلمات اللورد ملتر التي تقدمت . ان الدول لم تأذن لاسماعيل في محاربة تركيا لكي ينزع منها بسيفه الاصلاح القضائي والاستقلال الذاتي . فكان عليه ان يختار ، فاما ان يدفع مبلغ ٣٠ مليون فرنك توفية لطلب قدرته المحاكم المختلطة بالف جنيه واما ان يشتري الخلاص من هذه الحالة باشباع جشع الموظفين العثمانيين . فهل من الانصاف ان يلام على سعيه الى حماية نفسه بوسائل مخالفة للتعاليم الادبية حالة ان قبوله المحافظة على اساليب الضغط الدبلوماسي الاوربي يعني انتحاراً قومياً . اذا كان ذلك من الانصاف فالثلث اللاتيني السائر « *Salus populi suprema lex* » اي « سلامة الشعب هي القانون الاعلى » خطأ في خطأ

أما أوروبا فماغت في التخلي عن امتيازاتها ولم تقف من الاصلاح القضائي موقف عطف

ورضى . إلا أن معالجة أكثرنا للموضوع كان مما يشرّفها . وقد استغرق سعي نوبار شهوراً تحولت الى سنين قبلما فاز من الوزارات الاوربية بالموافقة على انشاء المحاكم المختلطة . وظلت فرنسا تمنع في انشائها بعد موافقة الدول الاخرى ولما أعربت عن رضاها كانت المحاكم قد بدأت عملها فعلاً . ان قصة المساعي التي بذلها نوبار من أقصى أوروبا الى أقصاها فصل خطير في ملك اسماعيل كانت القاهرة قد أنبثت في ١٨ أكتوبر سنة ١٨٦٧ ان وزارة الخارجية البريطانية « تعترف بضرورة الاصلاح القضائي وتكره مساوئ النظام القائم وتمهدت ببذل معونتها مع الدول على شريطة تمهيد الحكومة المصرية بموافقة الدول »^(١) . وفي ٨ نوفمبر ١٨٦٧ جاء من ألمانيا أن ألمانيا وافقت على مبدأ الاصلاح القضائي على شريطة حل مشكلة الضمانات التي تمنح للأجانب حلاً يبعث على الرضى وعلى شريطة تدبير فترة الانتقال وانشاء مدرسة للحقوق لتدريب قضاة المستقبل . ولكن الامور

لم تسر هذا السير الحسن في فرنسا فكتب نوبار الى القاهرة في ٥ مارس سنة ١٨٦٩ ما يلي :

« أشار علي الجنرال فلوري بأنني اذا كنت أرغب في الوصول بالمفاوضات الى خاتمة سريعة تبعث على الرضاء فعلي أن أطلب مقابلة الامبراطورة وأن أقول لها أن مولاي الحليل قد أمرني بأن أنبئه هل جلالته تنوي زيارة مصر لحضور الاحتفال بافتتاح ترعة السويس لأنه اذا كانت تنوي ذلك فهو يرغب في اعداد الاحتفاء بها احتفاء يليق بمقام امبراطورة عظيمة وفنانة . وقد قال الجنرال ان هذا العمل يبعث على اغتيابها ، وانها هي المسيطرة على لاقاليت (المركز ده لاقاليت كان وزير الخارجية حينئذ : المؤلف) وانه اذا لم تفعل فقد تطول المفاوضات

» أما لورد ليونز الذي قابلته بعد ظهر اليوم فقال لي أن المركز ده لاقاليت حسن الاتجاه ولكنه غير مستعجل لأن مشكلة البلجيك تستغرق معظم وقته . وأني لمتردد في الاتجاه الى الامبراطورة على نحو ما أشار الجنرال فلوري من دون أن أتلقى تعليمات أولاً من سموكم^(٢)

ان حرق البخور على مذبح زهو امرأة ، يلقي ضوءاً على ناحية من خلق اسماعيل . فقد زعم انه اتفق عشرات الالوف من الجنهيات في الاحتفاء باصحاب التيجان الذين حضروا حفلة افتتاح الترعة . والراجح ان هذا الزعم صحيح . ولكن كتاب نوبار المؤرخ في ٥ مارس ١٨٦٩ يدل على ان ذلك الاتفاق لم يكن جزافاً وان الابهة التي قابلهم بها كانت اسلوباً من اساليب حملته في سبيل الاصلاح القضائي وعلى كل حال يظهر ان الامبراطورة اعجبت باطراء نوبار عندما اذنت له في مقابلتها . فسارت

الامور على ما يرام وفي ٢٤ مارس سنة ١٨٦٩ ارسلت البرقية التالية الى القاهرة : —

«عندي من الوزارة ما يثبت لي ان قبول الحكومة الفرنسية اصبح مؤكداً . فلي ان اهنيء سموكم . ولا ريب في ان وفاة مدام لاقاليت قد يؤخر صدور البيان الرسمي بضعة ايام»^(٣)

(١) محفوظات عابدين : ملف الاصلاح القضائي ١٨٦٧ (٣ و ٢) محفوظات عابدين : ملف الاصلاح القضائي ١٨٦٩

واذ كان نوبار يبذل مساعيهِ في أوروبا ، راجع اسماعيل محفوظاتهِ فلاحظ ان احداً لم يفتح الولايات المتحدة الاميركية في الموضوع فكتب الى نوبار ما يلي :

«عزيزي نوبار : في موضوع الاصلاح القضائي ، لم تفتح الولايات المتحدة بعد . فيحذر بنا ان نفعل ذلك الآن» (١)

وكذلك كان . والظاهر ان وشنطن كانت قد تلقت انباء رسمية عما يدور في هذا الصدد . ويقول القاضي برنتن : ولكن من سخريه القدر أن اول نبأ اتصل بحكومة وشنطن عن مشروع الاصلاح ، كان مفرغاً في قالب نداء الى الولايات المتحدة لتستعمل نفوذها لمنع تحقيقه . وكان هذا النداء باسم أمة احد أبنائها اليوم ، عميد المحاكم المختلطة ومقدم رجال القانون في مصر . وفي رسالة مؤرخة في ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٦٧ وموجهة الى وزير خارجية اميركا اعربت حكومة اليونان عن رأيها بأنه يبدو لها ان تعديلاً خطيراً كهذا ولا سيما لأنه يمس جميع حقوق الأجانب تقريباً في مصر ، يُعدُّ سابقاً لا وانه وان الجهل والتعصب والمفاسد المتأصلة في العناصر الوطنية تحول دون دعوتها لممارسة أعلى وظائف القضاء» (٢)

ان المعارضة الناشئة عن وقوف حكومة اليونان هذا الموقف وضعت عراقيل كثيرة في طريق نوبار . ولكنه كان قادراً على النهوض بالتبعة الملقاة عليه . فقد كان متصفاً بالتفاؤل وحسن الحيلة والصراحة ، فلم يقف من طرق أبواب الوزارات في أوروبا . ولكن روسيا القيصرية لم تكن جزءاً من أوروبا حينئذٍ أكثر من روسيا السوفيت الآن . وكان نظرها الى الواجب يختلف عن نظر لندن . فالذهب كان في نظرها مفتاحاً من مفاتيح التعقل . واذن كان لا بد من الاعتماد على مساعي ابراهام في مفاوضاتها . فأرسلت اليه برقية في ١٣ يناير سنة ١٨٧٣ وكان لا يزال في الاستانة فاذا البرقية تنطوي على ما يلي :

«يجدر بك ان تأخذ مبلغ ٨ آلاف جنيه في سندات (القنصلية) وضعها في ظرف واكتب عليه عنوان الجزال إيجنايف . ثم احتمه بالشع الأحرر ولكن لا تستعمل ختمك . ثم سلمه الظرف وقل له أنك تلقيت هذا الظرف بالسفينة الخاصة التي جاءت لتنقل جهاز ابنتي . فاذا سأل عما فيه فقل أنك لا تعلم . واجتنب ان يفتح الظرف أمامك حتى يظن أنك لا تعلم شيئاً عما فيه» (٣)

كانت روسيا في تلك الايام نصير الروم الارثوذكس من المسيحيين . وكانت ذا سلطان عظيم في الاستانة . وكانت تطمح الى مدّ نطاق امبراطوريتها الى البوسفور . وكان سفيرها من أعظم السفراء الموفدين الى الباب العالي مقاماً ونفوذاً . فلو عارض في الاصلاح القضائي لتمذرع على اسماعيل تحقيق ما يصبو اليه . وقد كان الجزال إيجنايف سفير القيصر ولذلك كانت خطة اسماعيل تنطوي

(١) اشترك اميركا في المحاكم المختلطة تاليف جاسبر برنتن القاضي بالمحكمة المختلطة بلاسكندرية ص ٧٣

(٢) محفوظات عابدين : ايف ابراهام : سنة ١٨٧٣

على كسب عطف هذا السفير . فاقبل ابراهام على عمله بما عرف به من الدقة والنظام . وفي يوم ١٥ يناير انبأ اسماعيل بأنه سيعالج مسألة الظرف وفقاً لتعليماته ثم يسلمه للجنرال إيجناتيف^(١) إلا أن سير الأمور كان بطيئاً . ولم يستطع « مراقب » الخديو أن ينبئ مولاه بأي تقدم نحو الغرض إلا في ١١ فبراير . قال في رسالة :

« قال لي « البكير » كامارا أنه إذا شئنا أن نتهي مسألة الإصلاح القضائي فعلينا أن نعطي المال الذي وعد به ، لأن التدبير قد تم تقريباً بفضل إيجناتيف الذي يطلب عشرين ألفاً من الجنهات . فقلت له : انني وعدتك حقيقة بمبلغ من المال ولكنني فعلت ذلك على شرطين أولهما : أن تأتيني بكتاب من إيجناتيف بأن روسيا توافق على جميع الشروط . وثانيهما : أن تنتهي المسألة في خلال شهرين . فذهب كامارا ثم عاد وهو يقول ثق بي عندما أقول لك أن إيجناتيف قد بذل جهده . ولكن المسألة لم تنته بعد . وقد تطول إذا لم يتسلم المبلغ الذي وعد به »^(١)

وتلقى ابراهام رداً من القاهرة في اليوم نفسه ومؤداه أنه قد خوله دفع مبلغ ٨ آلاف جنيه وان الباقي وهو ١٢ ألف جنيه يرسل عندما يسلمه إيجناتيف كتاباً ينص على أن حكومته خولته حق الموافقة على الإصلاح القضائي . فكان رد ابراهام على هذا مؤرخاً في ١٣ فبراير وقد أكد فيه أنه سلم إيجناتيف مبلغ ٨ آلاف جنيه على أساس القواعد التي وصفها الخديو فلما كان أول مارس جعل كامارا يشدد على ابراهام بوجوب دفع الباقي من المبلغ وهو ١٢ ألف جنيه للسفير وأنبأه بأن الرسالة الخطيرة التي تنص على الموافقة ستسلم في ذلك المساء . وقد سلمت فعلاً ولكنها كانت كما يصفها المحامون « مهمة وعامة وغير محدودة » . فلما أبلغت محتوياتها إلى الخديو بالبرق أ برق سموه إلى ابراهام بتاريخ ٣ مارس :

« لا معنى لهذا الكتاب . ومن بواشع الأسف أن يكون قد تسلم مبلغ ١٢ ألف جنيه لأنه لن يعطينا كتاباً آخر إلا لقاء مبلغ آخر من المال »^(١)

وقد كان ابراهام عارفاً بمدخل هذه المعاملات ومخارجها فلم يندفع فأ برق إلى مولاه بذلك وقد طال الاخذ والرد بين ابراهام ووكيل السفير الروسي حتى منتصف شهر مارس اذ فاز ابراهام بكتاب من السفير واف بالغرض فأ برق إلى الخديو :

« مولاي الجليل . دفعت مبلغ ١٢ ألف جنيه لإيجناتيف فكان شديد الانغباط »

ان سرد هذا القصة الالمية من قصص الجشع الروسي يبين كيف تغلب الخديو على إحدى العقبات التي هددت مشروع الإصلاح القضائي بالحبوط . وقد كان هناك عقبات أخرى ولكن نوبار تحطها بمنطق السياسي الحنك ولباقة الدبلوماسي البارع

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الرمباضي

— ١٧ —

إبرة آدم الفاخرة

ويقال لها يوقا (Yucca) عند أهل سنت دومنغو وهي شجيرة دائمة الاخضرار ساقها بسيطة أو متفرعة ترتفع مترين . اوراقها كبيرة عديدة متضامة صلبة قائمة لونها أخضر يضرب الى الزرقة كاملة الحافة تماماً طول الواحدة منها متر وعرضها ٨ سنتيمترات مقعرة من وجهها العلوي ولها رأس شائك . وأزهارها مجتمعة في عنقود طوله متران يخرج من وسط الاوراق الواحدة منها بيضاء تضرب الى الخضرة من الداخل ومبقعة باللون الارجواني من الخارج وشكلها كالجرس المتدلى

اسمها العلمي (Yucca Gloriosa, L.) (يوقاغلوريزا) وفصيلتها الزنبقية (Liliaceae) (ليلياسية) وبالانجليزية (superb Adam's needle; mound lily) والفرنسية (yucca glorieux) موطنها امريكة الحارة (فرجينيا) وهي ضرب من الزنبق الأبيض مرغوب فيه للزينة جداً في البساتين المصطنعة من الصخور (الجليليات) لشبهها بشجر النخل والانايس والصابار ولدوام اخضرارها وهي بطيئة النمو والازهار ولذا تناسبها البيوت الزجاجية (الصوبات) في غير موطنها الاصلي أما اذا زرعت في العراء فلا تنجح

إبرة الراعي المنسوبة لروبرت (١)

هي عشب سنوي يرتفع من ١٥ سنتيمتراً إلى ٣٠ ورقته ذات ثلاثة فصوص أو خمسة مقسومة تقسيماً ريشياً ثلاثياً وأزهاره حمراء قرمزية أوراق تويجها كاملة الحافة طول الواحدة منها ضعف طول ورقة الكأس التي تكون مضلعة ولها سفاة كالإبرة

اسمها العلمي (Geranium Robertianum, L.) (جرانيوم روبرتيانوم) (٢) وفصيلته الجرانية أو فصيلة إبرة الراعي (Geraniaceae) (جرانياسية) وبالإنجليزية (herb robert; Scotch geranium) والفرنسية (gèranium robertin; bec de grue; herbe à Robert;)

شائع في أوروبا (فرنسا وإنجلترا) وآسيا وأفريقية الجنوبية ويكثر في الأراضي الزراعية نائماً بطبيعته وقد يزرع أحياناً في المواضع التي تظلها الأشجار وعصارته تستعمل دواء قابضاً وعطراً كماء الورد

إبرة الراعي المُخَطَّطة

هي عشب معمر ساقه مستديرة غير قائمة ترتفع إلى قدم ورقته السفلى ذات خمسة فصوص وكل فص يضي الشكل محدد الرأس مسنن الحافة جداً وأزهاره جميلة وردية تتخللها خطوط أرجوانية

اسمها العلمي (Geranium striatum, L.) (جرانيوم استرياتيوم) من فصيلة النوع السابق وبالإنجليزية (queen Ann's needle work; striped crane's bill)

والفرنسية (geranium strié; bec de grue strié) شائع في شمال أوروبا وإيطاليا وغيرها

يزرع للزينة ويبدأ في الإزهار من شهر مايو

إبرة الراعي اللانكشيرية

هي عشب معمر متساقط الأوراق ساقه مفرشة على الأرض ذات عقد يرتفع من ١٠

(١) في الشام يطلقون على ما عندهم من أنواع هذا النبات اسم (جرنة) و (عتر) و (منقار الكركي)

(٢) اشتق اسم جرانيوم من جرنون (gèranion) عند قدماء اليونانيين اخذاً من جرانوس

(gèranos) بمعنى كركي وذلك لشبه ثمرة هذا النبات برأس الكركي ومنقاره

سنتيمترات الى ١٥ أوراقه متقابلة الوضع في كل واحدة منها خمسة فصوص غائرة وأزهاره كبيرة قرنفلية اللون تتخللها خطوط أرجوانية

اسمها العلمي (Geranium Lancastriense, With.) (جرانيوم لانكاسترينسي)
أو (Geranium sanguineum lancastriense, Mill.) (جرانيوم سانغوينيوم لانكاسترينسي)
من فصيلة النوع السابق وبالإنجليزية (Lancashire crane's bill) شائع في إنجلترا وفرنسا
وغيرها يزرع للزينة

إبرة الراعي القرمزية

هي عشب متساقط الاوراق جميل المنظر ساقه قائمة كثيرة الفروع ترتفع من ٣٠ سنتيمتراً الى ٦٠ أوراقه متقابلة الوضع في الواحدة منها خمسة فصوص وكل فص مقسوم الى ثلاثة فصوص صغيرة على هيئة خطوط وأزهاره كبيرة قرمزية تضرب الى اللون الأرجواني اي حمراء كالدم
اسمها العلمي (Geranium sanguineum, L.) (جرانيوم سانغوينيوم) من فصيلة النوع السابق وبالإنجليزية (bloody crane's bill) والفرنسية (géranium sanguin)
شائع في أوروبا (فرنسا وإنجلترا) وغرب آسيا يزرع للزينة وهو اجمل الانواع يزهر من مايو الى سبتمبر وعصارته تشتمل على حامض العفص واسمها الفرنسي (rouge de géranium)
تستعمل في الطب قابضاً

إبرة الراعي ذات أوراق شقائق النعمان

هي عشب ساقه كساق الشجيرة يرتفع من ٣٠ سنتيمتراً الى ٦٠ أوراقه السفلى كفيّة ملساء الواحدة منها مقسومة الى خمسة فصوص وكل فص مضاعف التقسيم الريشي والأوراق العليا مقسمة تقسيماً ثلاثياً وأزهاره كبيرة قرنفلية اللون أو حمراء أرجوانية
اسمها العلمي (Geranium anemonaefolium, L.) (جرانيوم أنيمونيفوليوم)
أو (Geranium Lowii) (جرانيوم لويي) من فصيلة النوع السابق
وبالإنجليزية (anemone-leaved crane's bill) شائع في جزيرة مدبرة يزرع للزينة
يزهر في الصيف

إبرة الراعي المُبَسَّعة

هي عشب متساقط الأوراق معمر جميل المنظر ساقه الأرضية غليظة والهوائية قائمة ذات ضلوع على نوع ما ثنائية الشعب مغطاة بشعر قصير ناعم أوراقه مقسومة الى ثلاثة فصوص أو خمسة مسننة الحافة الجذرية منها ذات عنق طويل جداً والعليا متقابلة الوضع عديمة العنق وأزهاره أرجوانية اللون فاتحة تتفاوت في الحجم

اسمه العلمي (*Geranium maculatum, L.*) (جرانيوم ماكولاتوم) من فصيلة النواع السابق وبالانجليزية (spotted crane's bill)
والفرنسية (*géraine maculatum*)

شائع في امريكة الشمالية وعصارة ساقه الارضية تستعمل في الطب مقوياً للمعدة وقابضاً في حالات الزيف الباطني والخارجي والاسهال

أذن الحمار المتوسط

عشب متساقط الأوراق ترتفع ساقه الى ٢٠ سنتيمتراً أو ٢٥ وله سوق كثيرة الامتداد على سطح الارض أوراقه بيضية الشكل ملساء تقريباً الجذرية منها ذات عنق وللعليا تكاد تكون عديمة العنق (جالسة) وأزهاره زرقاء او بيضاء

اسمهُ العلمي (*Ajuga reptans, L.*) (آجوغا ربتانس)^(١) وفصيلته الشفوية وبالانجليزية (bugle) والفرنسية (bugle rampante; consoude petite)^(٢) وهو شائع في اوربا يزرع للزينة ومشهر عند العامة هناك دواء لألتئام الجروح ومبرد وقابض لطيف

(١) يؤثر عن اللاتينيين أنهم عزوا الى النبات المسمى (*ajuga*) خاصية ادرار الطمث ولكن الراجح ان هذه الخاصية انما هي للنبات المعروف الآن (بالعرصف) وهو (الكما فيطوس) واسمه العلمي (*Ajuga Chamaepitys, Schreb.*) وبالانجليزية (yellow bugle or ground pine) والفرنسية (*germandrée ivette ou chamaepitys*)

(٢) ولتشابه الخواص الطبية بين نباتي اذن الحمار المتوسط وابو خلسا او لسان الثور قد اطلق على الاول منهما اسم (bugle) مصحفاً عن (bugula) باللاتينية الذي هو مرادف (*ajuga*) أما (bugula) فهو مختصر (buglossum) مرادف (*anchusa*) اسم الجنس لاني خلسا او لسان الثور واسمه العلمي (*Anchusa officinalis, L.*) وبالانجليزية (common bugloss) والفرنسية (buglose ou buglosse des boutiques)

مدارس الصحافة

وبواعث انشائها

للدكتور ليل سينسر

عميد كلية الصحافة بجامعة سيراكوس الاميركية
والاستاذ الزائر بقسم الصحافة بجامعة القاهرة الاميركية

ان الجامعات الاميركية في طليعة جامعات العالم اهتماماً بالصحافة وتدريسها كفن من الفنون الهامة . وقد دعاها الى ذلك سيبان رئيسان هما : (١) قوة الصحافة ومنزلتها الاجتماعية . (٢) حاجة الصحافة والنشر في العصر الآتي الحديث الى دراية فنية ودربة عملية منذ سنوات قليلة أخرج الاستاذ اوجبرن (Ogburn) بجامعة شيكاغو كتاباً بعنوانه « التطور الاجتماعي » نبه فيه الافكار الى حقيقة جديدة بالتأمل هي ان المعلومات المدخرة عندي فرد من الناس ترجع في اصلها الى عنصر اجتماعي . اي ان مالدينا من المعلومات مأخوذ في الأصل عن غيرنا . وان قدراً ضئيلاً من تلك المعلومات مكتسبٌ بالملاحظة الفردية والاستنباط الشخصي المبكر . وقدرة الرجل العادي على استنباط النتائج الجديدة بنفسه من غير الاستعانة بغيره قليلة لا تكاد تذكر . أو بعبارة أخرى ان الامور الفكرية التي ينتفع بها المرء في هذه الحياة قد اشترك في تكوينها واعدادها افراد عدة مجتمعة فنحن نعرف ما نعرفه لأننا تعلمناه عن الآخرين ، لا لأننا فكرنا فيه مستقلين . لقد درس الاستاذ اوجبرن مائة وثمانية واربعين مخترعاً من اعظم المخترعات في العصور الحديثة فلم يجد في واحد منها ابتكاراً مستقلاً تمام الاستقلال بمعنى ان صاحبه انفرد به وحده ولم يعتمد في تكوينه على افكار غيره ، بل رأى في كل حالة أن المخترع أو الكاشف كان يستعين بالمعلومات التي كان لغيره الفضل في اعدادها وهذه الحقيقة نفسها هي التي دعت الاستاذ روس في Ross Finney بجامعة (منسوتا) الى القول بان التفوق العقلي في المرء ليس نتيجة لمجهوده الفردي ولكنه اثر من آثار التفكير الجمعي . ثم قال بعد ذلك ان كشف حقائق جديدة تضاف الى الحقائق القديمة عمل شريف جدير بالتقدير ولكنه عمل نادر الحدوث . وان الاستقلال الفكري الذي نفخر به احياناً ليس الا سرا باً خداعاً لا حقيقة له

والواقع ان الآراء التي لدينا وهي التي ننسبها كثيراً الى انفسنا وصلتنا أولاً عن افراد الاسرة والمتصلين بنا. ثم جاءت بعد ذلك عن طريق الصحف والكتب والمجلات . وما تأخذ عن الصحف أوفر وأكثر مما تأخذ عن الكتب والمجلات . ولا شك ان ما تنقله عن الزملاء والاصدقاء وغيرهم مقتبس معظمه من الصحف

فما تعلمونه عن الفيضان في اميركا وإضراب العمال هنالك قد جاءكم نبؤه في الصحف . وما تعرفونه عن هتلر وموسوليني وستالين نقل جميعه من الصحف . كذلك ما تسمعون عن الحرب في اسبانيا واطمال ايطاليا في الحبشة والازمة الوزارية في اليابان كل ذلك جاءكم عن طريق الصحف . والاخبار التي تذاع كل يوم بالمذياع جمعتها الصحف ونقلتها الى محطات الاذاعة فقامت بنقلها اليكم . وغاية القول ان الصحافة اصبحت اقوى وسيلة لنشر الانباء والمعلومات المتداولة بين الناس . وهذه المنزلة السامية للصحف في الحياة العصرية هي التي حدثت بجامعة اميركا ودفعتها الى العناية بدراسة الصحافة بانشاء مدارس خاصة لتلقين الناشئين من الطلاب والطالبات فنونها والتخصص فيها كسائر المهن الاخرى ولا يفوتني ان اذكر ان الصحف في اميركا قوية وان الجامعات هنالك قد انشأت مدارس لها اعترافاً بفضلها على المجتمع . وقد سيرت كثيراً حين علمت ان الصحف في مصر تتمتع بحريتها ولا اعتبر ذلك امتيازاً لها بل أعده حقاً من حقوقها . وأهنتكم لانكم تنشرون صحفكم هنا في احوال تختلف عن نظائرهما في بعض البلاد الاخرى كاطاليا والمانيا وروسيا . اذ لا يستطيع شعب ان يتمتع بالحكم المستقل ما لم تكن صحافته حرة تعبر عن آرائه وطرأته التي يريد بها لحكم نفسه . وتمتعكم في مصر بالحرية الصحفية تراث ثمين يجب عليكم المحافظة عليه . هذا هو السبب الاول الذي اردت ان احدثكم عنه

اما السبب الثاني الذي دعانا الى انشاء مدارس للصحافة في اميركا فراجع الى تعقد الحياة الاجتماعية العصرية وازدياد الوسائل الفنية للنشر والاعلان . فالحياة الفطرية الاولى لم تكن في حاجة الى تعليم رسمي منظم اذ كانت الاب والام يتوليان تربية الابناء في المنزل وتعليمهم ما يلزمهم للحياة في مجتمعهم الساذج الصغير . كما هو الحال الآن في القبائل المتوحشة التي يقصر التعليم فيها على تدريب الابناء على صيد الاسماك والحيوان والدفاع عن النفس وتعليم الفتاة شيئاً يسيراً من الطهي وطحن الحبوب وحياسة الملابس وأمثال ذلك . ولكن لما اتسعت الحياة وتقدم المجتمع اصبحت النظم اكثر تعقيداً وصار التعليم الرسمي ضرورة من ضروريات المعيشة . فالاب والام لا يستطيعان الآن اعداد ابنائهم وبناتهم لعصرنا هذا . ولعل الكثير منا يذكر ان معرفة المواد الثلاث القديمة وهي القراءة والكتابة والحساب كانت كافية لاعداد الطالب للحياة وعندها مهياً للزمامة

لقد انقضى ذلك الزمان واصبحنا في عصر تشابكت فيه المصالح وتعددت اساليب المعيشة واختلفت وسائل العمل والارتزاق . ولا نبالغ اذا قلنا اننا في عصر لا يستطيع فيه الشاب ان يحصل على القدر اللازم لسعادته من التربية الا بعد ان يصل الى سن الثلاثين . ولقد كان هذا التزامم على الحياة والميل الى النجاح فيها داعياً الى الاجادة والمهارة في الوسائل التي تكفل الفوز ومن اجل ذلك قال الناس بالتخصص والانقطاع الى بعض فروع العمل والتوفر عليها ليضمن الانسان الاتقان . فبدأ التخصص اولاً في الدين ثم في الطب ثم في الحقوق والهندسة وتبعها غيرها وجاء الآن دور التخصص في الصحافة . ومن الصعب ان نذكر تعليلاً صحيحاً لتأخر التخصص في الصحافة عن غيرها من المهن الاخرى وربما كان سبب ذلك الظن بأن كل فرد يحسن الكتابة وتحرير القلم وصوغ العبارات واعداد الآلات يصلح ان يكون محرراً لصحيفة او مديراً لها ولكن الحقيقة ان التحرير والنشر يتطلبان تعليماً فنياً وثقافة حرة واسعة النواحي فالصحفي الحديث لا بد له من الامام التام بالتاريخ والاجتماع والاقتصاد والسياسة واللغات . ولقد رايت بنفسي خطباً جليلة لقادة عظماء قد نقلها بعض الصحفيين ونشرها في جرائده قالت السخط والاستهزاء من القراء لا لأن تلك الخطب معيبة او بها نقص او سوء اختيار ولكن لان أولئك الصحفيين لم يكونوا ذوي امام تام بشئون الحياة وعلم واسع يمكنهم من فهم اغراض الخطباء وصوغها بالروح السامي والعبارات اللائقة التي تحدد المعاني وتوضحها وتقلها الى القارئ ككارييها أولئك الخطباء . وهذا هو السبب عينه الذي يدعو الى رفع شأن بعض الصحف واسقاط غيرها فديرو الصحف والمشرفون عليها هم الذين يدهم ان يكتبوا لها الحياة والذئوع او يسوقوا اليها الموت والافلاس

ولا يغيب عنا ان مهمة الصحيفة ليست مقتصرة على الاخبار والمسائل العلمية والادبية التي تطلب منا نحن معشر الصحفيين خبرة وفهماً ولكن هناك باباً هاماً من الابواب التي تعتمد عليها الصحف وتستعين بها على الحياة والبقاء ذلك هو باب « الاعلانات » وهو باب ليس اقل شأنًا واحتياجاً الى العناية والدراية من سائر الابواب الاخرى فله من الوسائل والاساليب الخاصة ما يدعو القراء الى الالتفات اليه . ولولا تلك الوسائل والاساليب ما اهتم به احد من الناس فيصيب الصحيفة بسبب هذا الاهمال ضرر جسيم — وهذا هو الباعث على ان بعض الناس يقرءون تلك « الاعلانات » في بعض الصحف ولا يجدون باعثاً على قراءتها في صحف اخرى

مما تقدم يتضح لنا ان تحرير الصحيفة والاشراف عليها واطهارها للناس في ثوب لائق يتطلب منا في عصرنا الحديث تخصصاً في فنون الصحافة وانقطاعاً لدراسة وسائلها كما يقطع بعض الطلاب لدراسة الطب او الحقوق او الهندسة او غير ذلك

الغدد والحياة

— ٣ —

الغدد وتجديد الشباب وتعيين الشق

لما اتيح للعلماء تور الشق نقيين استطاعوا ان يمتحنوا بهما اقوال الداعين الى تجديد الشباب بالعمليات الشقية sex operations فاستبدل شتيناخ النسوي بعملية زرع الغدد حقن الثيلين (تور الاتي) او الاندروستيرون (تور الذكر) ولكن التبديل لم يسفر حتى الان عن اي دليل على انهما يعيدان النشاط للعجائز والشيخوخة . وفي ذلك قال ستوكرا د : « ظن شتيناخ وفورونوف خطأ ان تنكس degeneration الغدة الشقية هو الباعث على الشيخوخة . وهذا رأي قائم على وهم . لان تنكسها عرض وليس بسبب . فالثور الخصي والجواد الخصي والديك الخصي لا تفوق في سرعة شيخوختها او بطئها الثيران والحياض والديوك السوية » . ولا يزال فورونوف يبحث في كل قطر من اقطار الدنيا عن اسرار التعمير ولا يزال كثير من الشيخوخة يعلقون بمباحثه اوهى الامال ان عزل الثيلين والاندرستيرون والتستوستيرون مكن العلماء من ان يوغلوا في بحث اسرار الشق التي امضت عقول الناس قروناً طويلاً . بهذه الاتوار تمكنوا من تفسير بعض التجارب الغريبة التي تمت في القرن الماضي وما انقضى من هذا القرن . ففي سنة ١٨٤٩ عمده باحث يدعى برتولد الى تجارب جربت قبل قرن من الزمان ونوعها قليلاً واعاد تجربتها وذلك بسليبه خصي الديوك من موضعها الطبيعي وزرعها في الديوك نفسها ولكن تحت جلدها . فلم يظهر على الديوك اي اثر من آثار الخصي . وذلك لان الخصي ظلت تفرز من موقعها الجديد مفرزاتها الداخلية في الدم وهي المفرزات التي ترتد اليها صفات الذكر الشقية . ثم جاء باحث آخر سنة ١٩٠٠ وجرب تجارب من قبيلها بغير الاناث الشقية . وفي سنة ١٩١٦ أخذ غوديل Goodale المبيض من دجاجة وزرعه في ديك خصي فتحوّل الديك دجاجة في مظهره الخارجي وسلوكه . ذلك ان تور المبيض أفرز في دم الديك فأنشأ فيه الخصائص الانثوية المتصلة به

ثم كشف الدكتور فرانك للي Lillie كشافاً كبير الشأن في هذا الموضوع عند ما شرع في دراسة الحثاث . وقد تمّ له ذلك وهو لا يعلم ان عالين نسويين كانا قد سبقاه اليه قبل ست سنوات

تلد بعض المواشي توأم ويكون أحد التوأمين في بعض الاحيان ذكراً والاخر أنثى تتصف بصفات الشقين اي الذكر والانثى وهو ما يعرف عندنا بالختنى . والختنى عقيم وأعضاؤها الجنسية غير سوية التركيب . فتناول الدكتور للي في دراسته عشرات من هذه الحثاث فوجد ان جهاز الدورة الدموية في كل من التوأمين ، لا يكون متصلاً قبل الولادة اتصالاً مباشراً بدورة الام ، بل يكون أحدهما متصلاً بالآخر . وكذلك يدخل تور الخصية من الذكر دم الانثى وهي في أدوار نموها الأولى فيحدث فيها تغييراً في تكوينها يجعلها شبيهة بعض الشبه بالذكر . وما انقضى على ذلك بضع سنوات حتى تمكن ساند Sand أحد علماء كوبنهاغن عاصمة الدنمارك من انجاز عملية طريفة . ذلك انه أخذ ديكاً وزرع فيه مبيضاً ، وانتزع ريش الجانب الأيسر من جسمه عند اتمام عملية الزرع ، فلما نما ريش جديد مكان الريش المنتزع كان ريش الانثى وذلك من تأثير مفرزات البيض . وكذلك أصبح هذا الديك نصف ريشه ريش ذكر والنصف الآخر ريش انثى . وفي سنة ١٩٣٠ أخذت ماري جوهن John الباحثة في جامعة شيكاغو ذكر طائر أسمر الريش وحقنته بالتور الشقي من امرأة ، فتحول ريشه وأصبح كأنه أنثى ذلك الطائر هذه البحوث والتجارب تفسر لنا ما كان يقع للخصيان في قصور السلاطين ، او للفتيان الذين كانوا يخضون للاحتفاظ بصوتهم رفيعاً كصوت النساء (سوپرانو) للترتيل في الكنائس . ثم ان دراسة أتوار الشق كشفت عن بعض الحوادث الغريبة التي وصفها الطبيب النفسي كارل ميننجر . فمن الحوادث التي حدثت حادث رجل أصيب بعد الحرب بمرض النوم . فلما شفي من مرضه لاحظ ان شعر عارضيه توقف عن النمو . وان صوته أصبح عالي النغمة ، وكبرت ثندواته حتى اضطر ان يستأصلها بعملية جراحية وأصبح كالنساء في ما يستوقف عنايته ويسترعي اهتمامه . وكان لما رآه هذا الطبيب جالساً في سريره في احد المشاتي وهو يطرز . وتفسير ذلك ان مرضه أحدث اضطراباً في غده الشقية فأصبح خثى . وهذه الظاهرة ظاهرة الحثاث كثيرة في النباتات ولكنها مشاهدة في الرجال كذلك . ولعل أشهر حوادثها حادث رجل ثندواته كثندي المرأة وسلوكه كسلوكها ولكن أعضائه التناسلية اعضاء رجل تام الرجولة ، فالحثاث والتجارب المتصلة بهذا الموضوع هي الدليل القاطن على تأثير أتوار الشق في تغير خصائص الاحياء

إلا ان تفسير الشق بأتوار الغدد الشقية ليس بالتفسير العلمي الوحيد . بل هناك التفسير

الآخر الذي تقدّم به العلامة توماس هنت مورغان وهو القائم على عوامل الوراثة المنطوية في الكروموسومات. ثمّ لما نشأ علم المفرزات الداخلية بين أقطابه أن هذه المفرزات ولا سيما مفرزات الغدد التناسلية هي العوامل المسيطرة على تعيين شق الوليد (Sex) وهل يكون ذكراً أو أنثى. كان رأي أرسطوطاليس أنه إذا كانت نطفة الذكر غير قوية، نشأ وليد ناقص وهو الانثى. وظلّ الناس قروناً متوالية يعتقدون أن مفرزات الخصية التي تولد الذكر حالة أن مفرزات الخصية اليسرى تولد الانثى. وضيفت إلى هذه العوامل عوامل أخرى ذكر بينها سن الوالد وغذاء الوالدة والحرارة عند الحمل بل وإتجاه الرياح أيضاً. وفي أواخر سنة ١٩٣٣ حاول أحد العلماء أن يثبت أن زيادة المادة القلوية مثل مادة بيكر بونات الصودا تقضي إلى ولادة الذكور حالة أن زيادة المادة الحامضة كالحامض اللبنيك تقضي إلى ولادة الاناث

ولا يزال العلماء إلى يومنا هذا غير مجمعين على رأي واحد يفسرون به تعيين الشق في المواليد. ولكنهم يقرّرون أن الكروموسومات ومفرزات الغدد الصم المختلفة هي العوامل الرئيسية ثم هناك تفسير آخر. فلاستاذ ليلي Lillie يعتقد أن كل خلية تنشأ من تلقیح بيضة بنطفة ذكر تشتمل على خصائص الخثى وأن اضطراباً في الغدد واحوال البيضة التي تتكاثر فيها هذه الخلية، قد تقضي إلى تغلب الذكر على الانثى أو الانثى على الذكر

ولهذا الرأي خطره من ناحيتيه النظرية والعملية. اما الناحية العملية فيبدو خطرها في أن مربّي الحيوانات يهتمون تكثير الابقار والدجاج دون الثيران والديوك. وقد حاول بعضهم أن يسيطر على شق الحيوان فاصاب قسماً من النجاح. ففي مختبر علم الحيوان بجامعة انديانا تمكن الباحثون من زيادة نسبة الدجاج إلى الديوك من ٥٠ : ٥٠ إلى ٢٢ : ٣٥ ، ٧٨ : ٦٤ ، وذلك بحقن الثيلين في الفراغ الهوائي الذي في اعقاب البيض. ثم وردت انباء من موسكو بأنهم تمكنوا من السيطرة على شق الارانب ولكن بطريقة أخرى. وذلك بفصل النطف الذكرية التي تدل كروموسوماتها أنها تقضي إلى ولادة الاناث. وهذا الفصل تمّ بطريقة كهربائية. ثم لقمح بها بويضات تلقیحاً صناعياً. وكان عدد البويضات الملقحة ٢٠٠ بيضة فكانت النتيجة ١٠٨ اناث. ولكن هذه التجربة وما تلاها لم تسفر عن شيء يصحّ الاعتماد عليه مع أن كولستوف وهو الباحث الروسي الذي قام بهذه التجارب يزعم أنه في الامكان تطبيقها على المواشي

واذ كان ايفانسن وزوندك وردل وغيرهم يبحثون في خلاصة الفص الامامي من الغدة النخامية، اتجه آيبل إلى دراسة الفص الخلفي، وكان قد نفذ إلى حصنه اولاً في سنة ١٩١٧ وفي سنة ١٩٢٢ استخلص منه مادة ترفع ضغط الدم في العروق رفعاً سريعاً. ثم ظهر أن لها

وظائف أخرى . فهي تحدث قبض العضلات في رحم الخنزير . حتى ان جزءا منها في ١٥ الف مليون جزء من الماء يحدث اقصى ما يمكن حدوثه من هذا الانقباض . فقوائده السيريرية عظيمة جداً في الطلق والولادة وفي منع النزف

ثم اقبل على البحث في خلاصة الفص الخلفي من الغدة النخامية طائفة من الباحثين . فاثبت اوليثر كام ان الخلاصة التي استخلصها آيل يمكن ان تفصل الى مادتين دعا الاول « پترسين » Pitressin والثانية پيتوسين Pitocin فالاولى ترفع ضغط الدم . والثانية تحدث الانقباض . وقد استخلص حتى الان ما لا يقل عن اثنتين وعشرين مادة مختلفة من الفص الخلفي من الغدة النخامية . ولكن آيل يأتى ان يصوغ لها اسماء لان مباحثه حملته على الاعتقاد بان هذا الفص يفرز مادة واحدة اصلية وان جزيء هذه المادة ينحل وفي خلال انحلاله تتولد المواد المختلفة وكل منها له خواص فسيولوجية يتميز بها . هذا هو رأيه ولكن المباحث الجديدة لا تؤيده

ومن الذين بحثوا في الغدة النخامية رجل يدعى فيليب سمث وقد اثبت انه اذا نزعت النخامية من الجسم افضى نزعها الى ضمور الاعضاء التناسلية وضعف الغدة الدرقية واضطراب افراز الكظرين (الغدتين اللتين فوق الكليتين) . ثم وجد ايفانس ان هناك صلة بين الغدة النخامية واستهلاك السكر في الجسم . فقد تمكن مثلاً من احداث حالة البول السكري في جسم كلب بتغذيته بخلاصتها . ثم ان آخرين بينوا ان الحقن بخلاصة النخامية يهيج فعل الغدة الدرقية ، وان نزع الغدد التناسلية يحدث تغييراً في اتوار النخامية . فهذه الاوصاف العجيبة التي تتصف بها الغدة النخامية حملت العلماء على تسميتها « سيدة غدد الجسم » وذهبوا الى انها تسيطر على سائر الغدد وتقيم الميزان بينها

ولما ظهر ان للغدة النخامية اكثر من تور واحد ، ارتد العلماء الى الغدد الاخرى يبحثون لعلمهم يجدون بينها عدداً تفرز غير تور واحد كذلك . فثبت ان الكظرين وهما الغدتان اللتان تستخلص منهما مادة الادريالين يفرزان ايضاً توراً آخر اذا منع عن سيره في الجسم احدث المنع نتائج خطيرة . ففي سنة ١٨٥٥ وصف الطبيب الانكليزي ادريسن Addison حالات متعددة من مرض معين انتهت جميعها بالوفاة . وكان اهم اعراضه ضعفاً في الجهازين العضلي والعصبي والدورة الدموية . ولاح لا دسن من تشريح جثث الموتى ان هذا المرض مرتبط ببعض التصاقات في الكظرين . فلما نشأ علم المفرزات الداخلية حاول بعضهم ان يعالج هذا المرض بخلاصة الغدد فحضرت خلاصة من الكظرين ولكنها عجزت عن شفاء المرضى

وكان رجل يدعى هارتمان يدرس في جامعة بفالو الاميركية وكان قد عرف بانتفع قبل اشتهاؤه ، فلما بلغه نبأ الانسولين ، عمد الى البحث في علاقة الكظرين بهذا المرض المنسوب الى

أدسين الانكليزي ولكنه قصر بحثه على قشرة الكظرين Cortex لانه بدا له ان القشرة دون سائر الغدتين لها صلة بهذا المرض . فاذا اخذ كمية من كظور الابقار وفصل القشرة عن بقية الغدد واستخلص منها مادة فعالة ، ازال منها كل اثر من آثار الادريالين وجربها في حقن تحت الجلد في هررة نزع كظورها فظالت حية نشيطة ، تقبل على اللعب والاكل والزواج ، بل ان بعضها حمل

وفي شهر اكتوبر من سنة ١٩٢٧ اعلن هارتمان اكتشافه لمادة «الكورتين» (نسبة الى كورتكس اي القشرة) وهي خلاصة فعالة لتور تفرزه قشرة الكظرين . واثبت ان نقص هذه المادة في الجسم يفضي الى مرض أدسين . فهل يفضي استعمال هذه المادة الى انقاذ المصابين به ؟ جربت التجربة الاولى في ٨ يوليو سنة ١٩٣٠ في شاب في الرابعة والعشرين من العمر فأطبلت حياته قليلاً ولكن المرض كان قد تمكن منه فتوفي بعد ذلك . وسعى هارتمان وغيره من الباحثين الى الحصول على مادة «الكورتين» نقية من كل شائبة فلما جربت في المصابين بمرض ادسن كان تأثيرها عجيماً اذ انقذتهم من موت محتوم . وفي اوائل سنة ١٩٣٤ حضر كندل (المشهور بتحضير الثيرونوكسين : راجع الكلام على الغدة الدرقية في هذه السلسلة) مادة الكورتين بلورات نقية كل نقاوة

وما استعمل له الكورتين تصاب الحديقة (غلو كوما) الذي يفضي الى العمى في الشيوخ وكان من اثر نجاح بانتخ في موضوع الانسولين ، ان عمد احد مساعديه ويدعى كولب Collip الى البحث في اربع غدد قائمة على جنب الغدة الدرقية (Parathyroid) وكانت قد اكتشفت في سنة ١٨٥٥ شكل كل منهما كحبة الفاصوليا وحجمها حجم حبة الحمص وهي زوجان كل زوج منهما على جانب الدرقية . الا ان وظيفتها كانت سرّاً مغلفاً . ولكن ظهر بعد البحث انها اذا اصبحت بمرض افضت اصابها الى اصابة صاحبها بمرض يعرف باسم «تيتاني» واعراضه حركات عصبية في اليدين والقدمين والوجه والقصبة ، تقضي في الغالب الى الموت . ثم اثبت مكلم احد علماء جامعة جونز هبكنز ان نزع الغدد المجاورة للدرقية لا يفضي الى مرض «التيتاني» فقط بل الى نقص في مقدار الكالسيوم في الدم . وكذلك تمكن من تحسين حال المصابين بالتيتاني بجمع وافية من املاح الكالسيوم . ثم لاحظ كولب ان التنفس الثقيل اذا استمر افضى الى التيتاني فقراً هولدين (J. B. S.) عن هذه المشاهدة وحاول ان يمتحنها فامتحنها بنفسه فأصيب بالتيتاني بعد تنفس ثقيل دام مدة طويلة ، ولكنه أثبت كذلك في تجاربه بنفسه انه اذا سبق هذا التنفس تناول مقدار من ملح كلوريد الامونيوم لم يصب بسوء بعده

الا ان العلماء لم يكتفوا بمعالجة التيتاني باملاح الكالسيوم على طريقة مكلم بل عمدوا الى

استخلاص المادة الفعالة من الغدد المجاورة للدرقية المنزعة من الماشية وكان اول من فعل ذلك طبيب ممارس في بلدة فريمولت بولاية منسوتا الاميركية واستخرج إجازة رسمية بصنعها وبيعها ومنحها للمعهد السنشوني . اي انه لم يرجح من اكتشافه هذا ملهاً واحداً
وكما ان املاح الكلسيوم استعملت اولاً في معالجة التيتاني ، فخلاصة الغدد المجاورة للدرقية تستعمل الآن في معالجة الاحداث المصابين باعراض ناشئة عن نقص الكلسيوم في دمهم

ثم هناك سرُّ غدة اخرى اخذ العلم الحديث ييط اللثام عنه رويداً رويداً . ففي سنة ١٨٥٥ ظهرت رسالة موجزة في موضوع الغدة النكفية Thymus ولكن مؤلفها كان يجهل وظيفتها . وكان بعضهم يظن انها عضو اثري لا عمل له الآن . الا انها قد تتضخم احياناً فتسد قسبة الطفل فيموت اختناقاً . وهي جسم رخو وردي اللون قائم فوق القلب يكون وزنه عند الولادة نحو ربع اوقية ounce ثم يكبر حتى يبلغ وزنه عند البلوغ اوقية كاملة ثم يضمّر رويداً رويداً فلا يبقى منه الا اثر يسير . وقد ظل عمل هذا الجسم غامضاً حتى اخذ جودرناتش Gudernatsch قطعاً من الغدة النكفية وغذى بها الشرافيف (صغار الضفادع) فتمت نمواً هائلاً من دون ان تتحوّل الى ضفادع . وصنع « ردل » خلاصة من نكفية الثور وحقن بها حماماً مصاباً بضعف في غدته النكفية فبدت في هذا الحمام آثار عجيبة اذ جعل يبيض بيضاً سوياً بعد ان كان يبيض صفار البيض فقط

وفي سنة ١٩٣٤ تمكن رونتري — وقد كان من اعوان آيل قبلاً — من صنع خلاصة هذه الغدة وغذى بها الجرذان ففاز بنتائج تبعث على الدهشة . ذلك ان الاحيال المتتالية من الجرذان كانت تفوق بعضها بعضاً في سرعة نموها وتبكير نشاطها الجنسي . فلما كان الجيل الرابع والخامس برزت اسنان الجرذان بعد انقضاء ٢٤ ساعة على ولادتها والمدة التي تنقضي بين الولادة وبروز الاسنان في الجرذان السوية Normal ثمانية ايام . وتفتح عيون الصغار في هذين الجيلين بعد انقضاء يومين وكان هذا لا يتم الا بعد انقضاء اربعة عشر يوماً . كذلك فطمها بعد ثلاثة ايام من ولادتها وبعد ثلاثة ايام اخرى استطاعت ان تسمج . كذلك أسرع نمو غرائزها الجنسية فجيلها العاشر استطاع ان يخلف نسلاً بعد انقضاء ٤٣ يوماً على ولادته مع ان السوي منها لا يخلف نسلاً قبل انقضاء مدة على ولادته تتفاوت من ٨٠ يوماً الى اربعة اشهر ، فاذا أسرع نمو الغرائز الجنسية في الصبيان والبنات بهذا المعدل بلغوا سن النضج التناسلي في الثامنة الى العاشرة من العمر ان الباب الجديد الذي يفتحه كشف هذا الثور النكفي ، ولا سيما في تربية المواشي ، لباب سحري يحفل الانسان عندما يتأمل في ما قد يفيض اليه

والغدة الأخيرة من هذه الغدد العجيبة التي أطلق عليها ضوء العلم الحديث الغدة الصنوبرية Pineal وهي مخفية بين ثنايا الدماغ ولكن بعد متالها لم يحل بينها وبين العلماء فقد صنعوا منها خلاصة مائية فثبت أنها تؤثر في انتطار الهرميسوم فيزيد تكاثره سرعة. ولما حققت بها الشراغيف زادت سرعة تحوّلها الى صفادع . ثم جرّبها الدكتور غودرد بالاطفال الذين تأخروا في الجسماني والعقلي ولكن النتائج التي اسفرت عنها تجاربه لا تعدّ حاسمة حتى الآن . ومن غريب ما يروى عن الفيلسوف ديكارت انه حسب الغدة الصنوبرية مقرّ النفس ولكن العلماء لا يزالون في ريب من وظيفتها الحقيقية ولا يدرون هل تفرز ثوراً خاصاً بها أو لا

لقد أثبت العلم ان الكظرين والغدد الدرقية والمجاورة للدرقية والحلوة والتخامية والناسية والنكفية والصنوبرية غدد صمّ أي أنها تفرز مفرزاتها في الدم رأساً بلا قنوات خاصة . وقد أسفر البحث العلمي فيها خلال نصف قرن عن أتوار الاپفرين (الادرينالين) والثيروكسين والانسولين والثاين والاندروستيرون والكورتين وغيرها مما لا يزال يحضّر في خلاصات مختلفة ولم يستفرد بعد او يحضّر نقيّاً في شكل بلورات

ان دراسة الغدد الصمّ فتحت الباب الى علمين جديدين لا يزالان في مهدها وهما الطب القائم على مفرزات الغدد الصمّ والطب النفساني القائم على تأثير هذه المفرزات في حياة المرء الذهنية والعاطفية فقد أقام ستوكارد الدليل على صلة وثيقة بين الغدد والشخصية ذلك ان الذهن والشعور في الانسان من أهم العوامل في خلق الانسان وشخصيته فعلى ذهنه يتوقف الرأي في هل هو أبله او ذكي او متوسط ، والدكاء يتوقف على الدماغ الذي يرثه الانسان من أسلافه . ولكن غمّ الدماغ يتوقف الى مدى بعيد على اتوار الغدد الصمّ . وأهم من العقل في تكوين الشخصية افعال الانسان ومداه وكتبته لا نفعاله او استسلامه له . فتجنّح من الرفاق من كان مرحاً لعبوباً وقد نعّرض عن كنهه كان مقتطاً يغلب فيه القمام على النور . والانفعال متصل او ثق الاتصال بالفرائر والفرائر تعتمد اعظم الاعتماد على مفرزات الغدد الصمّ في طبيعتها وقوتها (راجع مقال « الغدد والشخصية » في مقتطف اكتوبر ١٩٣٥ ص ٢٦٥)

اما في علاج الامراض فالصفحات المتقدمة سلسلة متصلة الحلقات من الادلة على ان صحة الغدد اساس لصحة الجسد

السفاح

للكنوز حسن ابراهيم حسن
استاذ التاريخ الاسلامي في كلية الآداب

بمعنى السفاح

بويج أبو العباس السفاح بالخلافة ليلة الجمعة الثالث عشر من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٢ وقد أقام الخطبة في يوم الجمعة فخطب على المنبر قائماً وكان بنو أمية يخطبون قعوداً في الناس وقالوا: أحيت السنة يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد نوه في أولى خطبه بفضل آل محمد ، وندد بالامويين لاغتصابهم الخلافة ولما اقترفوه من آثام وذنوب ضد آل النبي ، وأنحى باللائمة على جند الشام ، وأطنب في مدح أهل الكوفة ، وزاد في أعطيائهم لإخلاصهم وولائهم لبيت العباس ، وختم خطبته بقوله « انا السفاح المنساح » ، مما يشعر في بادىء الرأي بأنه عوّل على سفك دماء كل من يقف في سبيله وفي سبيل دولته

يقول المسعودي^(١) عن أبي العباس السفاح أنه كان جميلاً وسيماً ، ويقول صاحب الفخري أنه « كان كريماً حليماً وقوراً ، عاقلاً كاملاً كثير الحياء حسن الاخلاق » . وهذا يخالف ما يتبادر إلى الذهن من ان اسم السفاح مرتبط بسفك الدماء ، لافراطه في التمثيل ببني أمية وقد ناقش الاستاذ نيكلسن^(٢) لفظ السفاح في كتابه « تاريخ العرب الادبي » فقال : « لقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن السفاح معناه الرجل الكثير العطايا أو المنساح . ومع كل فأنه مما يهمننا ملاحظته أن هذا الاسم قد أطلق على بعض شيوخ القبائل في الجاهلية . ويقال إن سلمة بن خالد الذي قاد بني تغلب في موقعة بني كلاب الاولى سمي السفاح لانه أفرغ مزاد جيشه قبيل الموقعة . والذي أميل إليه أنه إنما سمي بهذا الاسم لقوله في أول خطبة له : فأنا السفاح الميسج والناثر المنيج »

ومن ميل الى الاخذ بأن لفظ السفاح إنما اطلق وشاع عن أبي العباس بعد هذه الخطبة

لما قام به من سفك دماء الامويين وغيرهم من الخارجين على الدولة . ولا يبعد أن يكون قصده من عبارة السفاح المناخ أن يتوعد أهل الكوفة لما اظهروه في ماضي أيامهم من تغير في الاهواء والميول وغيرهم من اعدائه ولا سيما الامويين الذين عول على التكنيل بهم لما اقترفوه من آثام وذنوب ، وتبشيرهم من يقوم بنصرته باغداق العطايا والاموال عليهم

ولما تمت له البيعة تحول السفاح إلى الأنبار غربي نهر الفرات ، وبينها وبين بغداد عشرة فراسخ ، وقد أسسها سابق بن هرمل أحد ملوك الفرس فجاء السفاح فجدها وأقام بها القصور ثم بنى المنصور في جوارها قصرًا فخماً اتخذ دار ملكه ، فسميت هذه المدينة الهاشمية نسبة إلى هاشم جد هذه الاسرة

وقد قضى السفاح معظم عهده في محاربة قواد العرب الذين ناصروا بني أمية وقضى على أعقاب الامويين حتى أنه لم يفلت منهم أحد إلا عبد الرحمن الداخل الذي أسس الدولة الاموية ببلاد الاندلس ، كذلك وجه السفاح همه إلى الفتك بمن والوه وساعدوه على تأسيس دولته فقتل أبا سلمة الحلال وأعقبه بسليمان بن كثير الذي أوصى ابراهيم الامام أبا مسلم به خيراً ، وهم بقتل أبي مسلم لولا أن عاجلته منيته

محاربة قواد الامويين

أقام ابن هبيرة أحد قواد مروان بن محمد بواسط ، فأرسل إليه أبو سلمة ، الحشوش فحاصره هناك ، ولما طال الأمر أرسل السفاح أخاه أبا جعفر فحاصره أحد عشر شهراً بلغه في نهايتها خبر مقتل مروان بن محمد فرأى التسليم وفاوض أبا جعفر في الصلح ، وانتهى الأمر باعطائه الأمان ، وتسلم ابن هبيرة كتاباً يحمل امضاء الخليفة العباسي ، ولكن هذه الدولة قد قامت على المكر والحيلة ، فانه لم تمض أيام حتى قتل ابن هبيرة وهذا أول غدر في الدولة العباسية ، وقد أخذ على عبد الملك بن مروان عدم وفائه لعمر بن سعيد بعد ان ولاء عهده لان هذا مناف لأخلاق العرب ، فجاء أول خلفاء بني العباس ، واستهل خلافته بوضع هذه القاعدة التي سار عليها الخلفاء من بعده

القضاء على أعقاب الامويين

ولقد تتبع السفاح البقية الباقية من بني أمية وأنصارهم ولم يُبق عليهم . ويخيل لنا أنه إنما لجأ إلى هذه السياسة لما كان من عداة العباسيين لبني أمية منذ أيام الجاهلية . والعداء بين بني أمية وبني هاشم باقي الأثر لم يزده الاسلام إلا تفاهماً وازدياداً . يضاف إلى ذلك ما كان من

تأثير الشعراء ورجال البلاط في اذكاء نيران هذا العداء . وما قام به بنو أمية من سفك دماء أهل البيت حين كان لهم السلطان

يقول المسعودي (١) : ولما أتى العباسُ برأس مروان ووضع بين يديه سجد فأطال ثم رفع رأسه فقال : الحمد لله الذي لم يُبق ثأري قبلك وقبيل رهطك ؟ الحمد لله الذي أظفرتني بك وأظفرتني عليك ! ثم قال : ما أبالي متى طرقتي الموت ، قد قتلت بالحسين وبني أبيه من بني أمية مائتين ، وأحرقت شلنوا (٢) هشام بن عمي زيد بن علي ، وقتلت مروان بأخي ابراهيم وتمثل :
لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني
ثم حول وجهه الى القبلة فأطال السجود ثم جلس وقد أسفر وجهه وتمثل بقول العباس ابن عبد المطلب من أبيات له :

أبي قومنا ان يُنصفونا فأنصفت قواطع في أيماننا تقطر الدما
توورثن من أشياخ صدق تقرأوا بن إلى يوم الوغى فتقدما
إذا خالطت هام الرجال تركنها كبيض نعام في الوغى متحطما
كان السفاح جالسا في مجلس الخلافة وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك الأموي . وقد أكرمه السفاح ، فدخل عليه سديف الشاعر فأنشده :

لا يفرئك ما ترى من رجال ان تحت الضلوع داء دويبا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويبا
فالتفت سليمان وقال : قتلتهني يا شيخ . ودخل السفاح وأخذ سليمان فقتل . ودخل عليه شاعر آخر وقد قدم الطعام وعند السفاح نحو السبعين رجلا من بني أمية ، فأنشده الشاعر :

أصبح الملك ثابت الآساس بالهليل من بني العباس
طلبوا وثر هاشم فشففوها بعد ميل من الزمان وياس
لا تقيسن عبد شمس عثارا واقطن كل رقلة (٣) وغيراس (٤)
ذلها أظهر التودد منها وبها منكم كحز المواسي
ولقد غاظني وغاز سوائي قربهم من غمارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والاعتاس
واذكروا مصرع الحسين وزيد وقبلا بجانب المهراس (٥)
والقبيل الذي بجران (٦) أضحي ثاويبا بين غربة وتاسي

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٢١٣ (٢) مفرد أشلاء وهي البقايا (٣) الرقل جمع رقلة وهي النخلة فاتت اليد (٤) فصيل النخل . والفسيلة التي تقطع من الام أو تقلع من الارض فتفرس (٥) ماء بجبل أحد ، قتل عنده حمزة بن عبد المطلب ودفن (٦) هو ابراهيم الامام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس

أجل ! لقد أعاد إنشاء هذين الشاعرين ذكرى الماضي وما جرّه الامويون على أنفسهم من سخط الناس لتمثيلهم بأهل البيت . ولا زالت مأساة ابراهيم الامام عالقة ببال الخليفة العباسي . فإذا كان من امر هؤلاء الامويين بعد هذه الذكريات المؤلمة التي أعادها الى السفاح شعراء دولته ؟ امر السفاح بسلامة بن هشام فقتل ، ثم امر بمن كان في داره من امية فقتلوا بالسياط وبأسط النطوع^(١) عليهم وجلس فوقهم فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً . ولقد بالغ العباسيون في التنكيل ببني امية فعولوا على استئصال شأقتهم ، فقتلهم اخوه واعمامه في البصرة والكوفة والشام ، ونبشوا قبر معاوية بن ابي سفيان ، فلم يجدوا فيه الا خيطاً مثل الهباء ونبشوا قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاماً كأنه الرماد . ولما قتل ابو العباس رجال بني امية ، واستصفى اموالهم قال :

بني أمية قد أفنيت جسمكم فكيف لي منكم بالاول الماضي
يطيب النفس ان النار تجتمع عوَضْتُمُوا مِنْ لَظَاهَا سَمّاً مُعْتَصِضاً
مُنِيتُمَا لَا أَقَالَ اللَّهُ عَشْرَتَكُمْ بِلَيْثٍ غَابَ إِلَى الْأَعْدَاءِ نَهَاضَ
ان كان غيظي ليقوت منكمو فلقد رَضِيتُ مِنْكُمْ بِمَا رَبِّي بِهِ رَاضِي^(٢)

ولم يقف العباسيون عند التمثيل بالموتى . فقد قتلوا الأحياء واستصفوا اموالهم . فليس من عجب اذا انصرف العرب عن العباسيين ودب في نفوسهم ديب الكراهة لهم وللفرس الذين استأثروا بالسلطة دونهم للملاة العباسيين لهم ، واعتمادهم على ولائهم ، فقامت الفتن والثورات في البلاد الإسلامية

قَتْلُ أَعْرَافٍ

وان في قتل ابي سلامة الخلال وزير السفاح الذي كان من اهم العوامل التي ساعدت على تأسيس الدولة العباسية مثلاً حياً على ما قضت به سياسة هذا الخليفة بالخلاص ممن ساعدوه وناصروه اذ رأى في وجودهم خطراً يهدد كيان دولته الناشئة . وقد يكون من الحسن ان تأتي هنا بترجمة ابي سلامة لنقف على حقيقة الأسباب التي أدت الى اغتياله للتخلص منه لما آثم به من العمل على تحويل الخلافة الى العلويين

كان حفص بن سليمان ، ويكنى ابا سلامة الخلال ، مولى لبني الحارث بن كعب ، وكان من اهل اليسار في الكوفة ، اشتهر بالكرم وكثرة البذل لرجال الدعوة العباسية ، كما كان فصيحاً عالماً بالاشعار والسير والجدل والتفسير . وقد اتصل بالعباسيين عن طريق صهره بَكَيْرِ بْنِ مَاهَانَ كاتب ابراهيم الامام . فلما حانت وفاة بَكَيْرِ اوصى الامام بان يعهد الى ابي سلامة بالقيام بامر

(١) النطع بالسكبر وبالفتح وبالتحريك بسط من الادب (الجلد) (٢) الفخري ص ١٣٥

الدعوة مكانه ، فكتب إليه الامام بذلك ، فأخاض ابو سلمة للدعوة العباسية وبذل جهده في القيام بنصرتها . ولقد اتفق المؤرخون على انه لما سبر احوال بني العباس عزم على العدول عنهم الى اولاد علي بن ابي طالب . ولما عزم على تنفيذ رغبته في نقل الخلافة الى العلويين ارسل مع رجل من شيعة العلويين كتاباً وامره ان يقصد جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي ، فان اجاب ابطل الكتابين الآخرين وان لم يجب لقي عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي ، فان اجاب ابطل كتاب عمر الاشرف بن علي زين العابدين ، وان لم يجب قصد عمر . فذهب الرسول الى جعفر الصادق ودفع اليه كتاب ابي سلمة فلم يُقم له وزناً ولم يُخفِ بل بما قدمه رجل الشيعة بخراسان للعلويين حيث قال « مالي ولا بي سلمة وهو شيعة لغيري ؟ » ثم وضع الكتاب على السراج فاحترق . فسأله الرسول عن رد كتاب ابي سلمة فقال له : قد رأيت الجواب ! مضى الرسول بعد ذلك الى عبد الله المحض فسُـرَّ بالكتاب وركب غداة هذا اليوم الى جعفر الصادق وقال له :

« هذا كتاب ابي سلمة يدعوني فيه الى الخلافة ، وقد وصل على يد بعض شيعتنا من اهل خراسان » فقال له جعفر الصادق كلاماً يؤيد ما ذهبنا اليه من ان الفرس او الكثيرين منهم على الأقل لم يكونوا في ذلك الوقت شيعة للعلويين خاصة : « ومتى صار اهل خراسان شيعتك ؟ أنت وجهت إليهم أبا مسلم ؟ هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته ؟ فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك ! وهذا كلام رجل من كبار العلويين وأعيانهم في ذلك الزمان وقف على مبلغ الثقة من رجال الشيعة وإن لم يكن عبد الله المحض قد وثق منه ، بل شك في نصحه ، بل ، ولم يخف بل بما سمع عن الكتاب الذي جاءه قبله . وأما عمر بن علي زين العابدين فلم يكن منه إلا ان رد الكتاب وقال : « أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه » ، ومن هذا كله نرى ان العلويين لم يكن لهم من القوة وكثرة الانصار ما يعبد لهم سبيل الوصول الى الخلافة ، فلم يروا بدءاً من الاستكانة حتى تهيأ لهم الاحوال فيمتشقون الحسام ويقومون بطلبها ، ومن هذا لا نعجب اذا فت رفض هؤلاء العلويين في عضد ابي سلمة وأدى الى قتله على يد السفاح بعد ان وقف على ما دبره له ولا سرته

ويحكي لنا التاريخ ان السفاح لما بويع بالخلافة استوزر أبا سلمة على كره منه لمكانته من الخراسانيين وهم عصب الدولة ومصدر قوتها ولقبه وزير آل محمد إلا ان هذا كله لم يكن مصدره حسن النية من جانب السفاح ، اذ خاف على نفسه ان هو قتله قام أهل خراسان يثأرون له ، فعمل على ان يتم هذا الامر على يد ابي مسلم وكتب اليه مع اخيه المنصور كتاباً يخبره فيه ان ابا سلمة يعمل على تحويل الخلافة الى العلويين وعهد له بمعاقبته ، وباطن الكتاب يشعر بتصويب

قتله ، فأرسل أبو مسلم رجالاً من أهل خراسان فقتلوه وتخلص منه السفاح وأبو مسلم الذي كان يكرهه ويحقد عليه مقامه ، وبذلك هب أبو مسلم سبيل قتله بنفسه ، فقد عوّل السفاح على التخلص منه إذ كان شجياً في جسم دولته إلا أن منيته حالت دون ذلك حيث مات سنة ١٣٦ بعد أن قضى في الخلافة أربع سنين وستة أشهر

أشهر السفاح وصفاته

قال الطبري ^(١) : كان السفاح مجعد الشعر طويلاً أبيض أفنى الاتق حسن الوجه واللحية وقال المسعودي ^(٢) : ولم يكن أحد من الخلفاء يحب مسامرة الرجال مثل أبي العباس السفاح وكان كثيراً ما يقول : انما العجب ممن يترك أن يزداد علماً ويختار أن يزداد جهلاً . فقال له أبو بكر الهذلي : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك ، ويدخل الى امرأة او جارية فلا يزال يسمع سخيفاً ويروي نقصاً . فقال له الهذلي : لذلك فضلكم الله على العالمين وجعل منكم خاتم النبيين

كان السفاح يشجع الادب والغناء ؟ وكان يُجزل العطاء على الشعراء والمغنين . فقد دخل عليه أبو بجيلة الشاعر فسلم عليه . وقال عبدك يا أمير المؤمنين وشاعرك ، افتأذن لي في إنشادك . فقال له السفاح لعنك الله ؟ ألسنت القائل في مسأمة بن عبد الملك بن مروان

أُمُسْلِمٌ أَنِي يَا ابْنَ كُلِّ خَلِيفَةٍ وَيَا فَارِسَ أَهْلِيحَا وَيَا جَبَسِلَ الْأَرْضِ
شَكَرْتُكَ أَنْ الشُّكْرَ حَبْلٌ مِنَ التَّقَى وَمَا كُلُّ مَنْ أَوَلَيْتَهُ نِعْمَةً يَنْقُضِي
وَاحْتَيْتَ لِي ذِكْرِي وَمَا كَانَ خَامِلاً وَلَكِنْ بَعْضَ الذِّكْرِ أَنَّهُ مِنْ بَعْضِ

فقال الشاعر : أنا يا أمير المؤمنين الذي أقول

لَمَّا رَأَيْنَا اسْتَمْسَكَتْ يَدَاكَ كُنَّا أَنْاسَا نَرْهَبُ الْمَلَكَ
وَزَكَبُ الْأَعْجَازِ وَالْأَوْرَاكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَا خَلَا الْأَشْرَاكَ
فَكَلَّمَا قَدْ قَلْتُ فِي سِوَاكَ زُورٌ وَقَدْ كَفَرْنَا هَذَا ذَاكَ
إِنَّا أَنْتَظَرْنَا قَبْلَهَا أَبَاكَ ثُمَّ أَنْتَظَرْنَا بَعْدَهَا أَخَاكَ
ثُمَّ أَنْتَظَرْنَاكَ لَهَا إِيَّاكَ فَكُنْتَ أَنْتَ لِلرَّجَاءِ ذَاكَ

فرضي السفاح عنه واجزل له العطاء

وكان السفاح يطرب من وراء الستر ويصيح بالمطرب له من المغنين : احسنت والله ، فأعد هذا الصوت . وكان لا ينصرف عنه احد من ندمائه ولا مطربيه الا بصلة من مال او كسوة ويقول : لا يكون سرورنا معسجلاً ، ومكافأة من سرنا واطربنا مؤجلاً . على انه سرعان ما احتجب السفاح عن ندمائه

وكان السفاح اذا حضر طعامه أنسَطَ ما يكون وجهاً فكان ابراهيم بن خزيمة الكندي اذا أراد ان يسأله حاجة أخرها حتى يحضر طعامه ثم يسأله . فقال له السفاح يوماً : يا ابراهيم ! مادعاك الى ان تشغلني عن طعامي بجوانحك ؟ قال يدعوني الى ذلك التماسُ التَّجَبُّعِ لِمَا اسأل . قال ابو العباس : إنك لتحقيقُ بالسُّؤدد لحسن هذه الفطنة

ويحدثنا المسعودي ^(١) في كتابه مروج الذهب عن زواج السفاح قبل توليته الخلافة من أم سلمة ، وكانت قد تزوجت من عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، فمات فتزوجت بعده من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الأموي فمات فيبناهي ذات يوم ، اذ مر بها ابو العباس السفاح ، وكان جميلاً وسيماً فسألت عنه وأرسلت له مولاة لها تعرض عليه ان يتزوجها ، وقالت لمولاتها : قولي له : هذه سبعمائة دينار أوجه بها اليك -- وكانت تمتلك كثيراً من المال والحشم والجوهر ، فأتته المولاة وعرضت عليه ذلك ، فقال السفاح : انا مملق لا مال عندي ، فدفعت اليه المال ، وأقبل الى اخيها وطلب اليه ان يزوجه منها ، فزوجه اياها ، فأصدقها خمسمائة دينار ، واهدى من يلودها مائتي دينار وزفت اليه في ثياب موشاة بالجواهر ، وحظيت عنده حتى أصبح لا يقطع أمراً الا بمشورتها حتى أفضت الخلافة اليه

فلما كان ذات يوم في خلافته ، خلا به خالد بن صفوان فقال : يا أمير المؤمنين ! إني فكّرت في أمرك وسعة ملكك ، وقد ملكت نفسك امرأة واحدة . فان مرضت مرضت ، وإن غابت غبت ، وحرمت نفسك التلذذ باستطراف الجواري ومعرفة أخبار حاليهن والتمتع بما تشتهي منهن فان منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء ، وان منهن الغضة البيضاء ، والدقيقة السمراء ، والبربرية العجاء تقتن بمحادثتها . وجعل خالد يحيد في الوصف ويحبد في الاطناب بحلاوة لفظه وجودة وصفه ، فلما فرغ كلامه ، قال له ابو العباس : ويحك يا خالد ، ما صك مسامعي والله كلام احسن مما سمعته منك . فأعد عليّ كلامك ، فقد وقع مني موقعاً . فأعاد عليه خالد أحسن مما ابتدأه ثم انصرف وبقي السفاح مفكراً فيما سمع منه ، فدخلت عليه زوجته أم سلمة ، فلما رآته مفكراً مغموماً ، قالت إني لا أنكرك يا أمير المؤمنين ، فهل حدث أمر تكرهه ، أو أتاك خبر فارعت

له؟ قال: لم يكن من ذلك شيء، قالت: فما قصتك؟ فجعل ينزوي عنها، فلم تزل به حتى أخبرها
 بحديث خالد، فقالت: فما قلت لابن الفاعلة؟ قال لها: سبحان الله ينصحنني وتشتمينه، وخرجت
 من عنده مغضبة، وأرسلت إلى خالد من النجارية وأمرتهم ألا يتركوها منه عضواً صحيحاً. قال
 خالد: فانصرفت إلى منزلي وأنا على السرور بما رأيت من أمير المؤمنين وأعجابه بما ألقىته إليه، ولم
 أشك أن صلته ستأتيني، فلم ألبث حتى سار إليّ أولئك النجارية وأنا قاعد على باب داري، فلما
 رأيتهم قد أقبلوا نحوي، أيقنت بالجائزة واصله حتى وقفوا عليّ، وسألوا عني، فقلت ها نذا خالد،
 فسبق إليّ أحدهم يهراوة كانت معه، فلما أهوى بها عليّ وتبت، فدخلت منزلي وأغلقت الباب عليّ
 واستترت ومكثت أياماً على تلك الحال لا أخرج من منزلي ووقع في خلدي أني أوتيت من قبل أم سلمة
 وطلبني السفاح طلباً شديداً، فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم هجموا عليّ وقالوا: أجب أمير المؤمنين،
 فأيقنت بالموت، فركبت وليس عليّ لحم ولا دم فلما وصلت إلى الدار أو ما لي بالجلوس، ونظرت فإذا
 خلف ظهري باب عليه ستور قد أرخيت، وحركة خلفها، فقال: يا خالد ألم أرك منذ ثلاث؟ قلت
 كنت عليلًا يا أمير المؤمنين. قال: ويحك إنك وصفت لي في آخر دخلة من أمر النساء والجواري
 ما لم يخرق مسامعي قط كلام أحسن منه، فأعده عليّ. قلت: نعم يا أمير المؤمنين. أعلمك أن
 العرب اشتقت اسم الضرة من الضر، وأن أحدهم ما تزوج من النساء أكثر من واحدة إلا كان
 في جهده فقال: ويحك لم يكن هذا في الحديث. قلت: بلى والله يا أمير المؤمنين، وأخبرت أن
 الثلاثة من النساء كنهنّ القدر يغلي عليهنّ. قال أبو العباس برئت من قرايتي من رسول الله صلى الله عليه
 وسلم أن كنت سمعتُ هذا منك في حديثك قال وأخبرت أن الأربعة من النساء شر صحيح
 لصاحبهن، يشبهنّ وهرمنه ويسقمنه. قال ويحك ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل
 هذا الوقت

قال خالد: بلى والله. قال: ويحك وتكذبني. قال وتريد أن تقتلني يا أمير المؤمنين؟ قال من
 في حديثك. قال: وأخبرت أن أبكار الجواري رجال، واسكن لا خضسي لهنّ، قال خالد،
 فسمعت الضحك من وراء الستر، قلت: نعم وأخبرت أيضاً أن بني مخزوم ربحانة قريش،
 وانت عندك ربحانة من الرياحين وانت تطمح بعينك إلى حرار النساء وغيرها من الاماء. قال
 خالد: ففيل لي من وراء الستر: صدقت والله يا عماء وبررت بهذا ما حدثت أمير المؤمنين، ولكنه
 بدّل وغير، ونطق عن لسانك فقال له أبو العباس مالك قاتلك الله وأخزأك، وفعل بك وفعل
 فتركته وخرجت وقد أيقنت بالحياة. قال خالد فما شعرت إلا برسول أم سلمة قد ساروا إليّ ومعهم
 عشرة آلاف درهم ونحت ويزدون وغلّام

قطرات ندى

لراحمي الراعي

قيل لي : أنت بين سمّ الأفعى ووثبة الأسد فأَيّ الموتين تؤثر ؟ فقلت لهم : هاتوا لي برائن الاسد فان فيها الرجولة والصراحة لا غدر الرقطاء الكامن في نايها الحقير

جمعت بين الكتاب والطفل في سرير واحد وجئت بالنفس اسأها أيهما تؤثر فأجابت لساعتها مشيرة الى الكتاب : هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت، أما الطفل فهو رمية القلب الطائش ، هو قطرة دم كشفت علقمت بسهم حاد من سهام « كويد » في احدى سكراته ، هو ثمرة الشهوة الزائلة واثر من آثار الجنون

خيّل اليّ ذات مساء ان قريحتي نصبت فهرولت الى الحيل وسجدت امامه قائلاً : انا من ابنائك المعجيين بك ، وهذه قريحتي بين يديك اظنها كتبت فأقلها من عثرتها .. فالتفت الحيل الى عقباته وينابيعه وأمرها ان ترافق روحي ثم نظر اليّ نظرة الاب الرحيم وقال : امشي في طريقك ولا تخف فجنودي حراسك وعظمتي وغزاري تخفرونك حيثما حللت فشكرت للحيل وعدت الى القلم والقرطاس فراحا قريح اليمين غير خائف من الغد ومن النضوب...

كأنني بغصن هذه الشجرة يمتد فوق رأسي ليقف بيني وبين الشمس اللاذعة فله ما اكرم هذا الغصن ! ما اشد جراته واوفر مروءته !!..

هذه الشجرة صورة أخذت عني فهذه هي البذور التي تألّبت وكوّنتني في

بذورها . . . وهذه هي قوتي في جذعها . . . وهذه هي مواليدي في أغصانها . . . وهذا هو أمني في أخضرارها . . . وهذا هو ياسي في ذبولها . . . وهذه هي مطامعي في قممها . . . وهذه هي أعصابي في أليافها . . . وهذا هو هديري في أعاصيرها . . . هذه حياتي في ماءها . . . وهذا موتي في فأسها . . . نعم نعم أنا هي وهي أنا فإذا شئت أن رسمني فارسمني في ظلها وإذا شئت أن تميتني فالق علي حفنة من ترابها . .

هل أنا جنّة ربوتها القلب ونهرها دمي ، أم أنا ما تقول : جسد عبد يخضع لروح قاهر . .

انزع هذه الغيوم الباكية من الأفق لانزع مني كآبتي ودموعها . .

الفلسفة جبل طويل يتجاذبه الكفر والإيمان . .

هذه الشمس التي يحجبها وشاح واحد من أوشحة الليل وظلّ واحد من ظلال الشجرة ليست بالحجارة التي تخيلها . .

في نفسي آلهة وشياطين — في نفسي أبراج بابلية وصراع مستديم — في نفسي الجمال كل الجمال والقيح كل القبح يتنازطان السيادة في وجهي فلا تنظر إليّ فترى أثراً من السماء حتى رى لساناً مندلعاً من أفواه الجحيم . . .

لا أريد أن أقيس هذه المسافات والأبعاد المعروفة ، وإنما أريد أن أعرف أن ينتهي عقلي وأن يبدأ جنوبي . . . أريد أن أقيس المسافة الروحية الفاصلة بين عربدي ووقاري

بيروت



رحلة جغرافية عمرانية

لوصفي زكريا

﴿الوضع الطبغرافي﴾ يتألف القطر اليمني من ثلاثة أقسام : الاول المنخفض ذو البراري والسباسب المنبسطة والاقليم الحار والهواء الرطب ويدعى « تهامة » ويجمع على تهائم ، والثاني المرتفع ذو الاطواد والهضاب الشاخطة والاقليم البارد والهواء الجيد ويدعى « قسم النجود » او « قسم الجبال » وهي تسمة جبال السرا ، والثالث المنخفض ايضا شرقي قسم الجبال ، وهو ذو برار وسباسب كانت في عهد ملوك سبأ عامرة غناء فاصبحت بعدهم غامرة قفراء ، ويدعى هذا القسم « الجوف » وهو بمثابة تهامة في الغرب ، واقليمه حار لكن هواءه جافٌ وجيد

﴿وصف تهامة﴾ تهامة برية عظيمة مستطيلة الشكل تمتد من الشمال الى الجنوب من جدة على ساحل البحر الاحمر الى عدن في ساحل المحيط الهندي ، على طول يقدر بالفي كيلو متر ، وهي تنحصر بين قسم الجبال والبحرين المذكورين على عرض يتفاوت بين ٦٠ و ١٢٠ كيلو متراً وهي تنقسم الى تهامة الحجاز وتهامة عسير وتهامة اليمن . وتهامة اليمن اما غربية وهي التي على البحر الاحمر واما جنوبية وهي التي على المحيط الهندي . وحدثنا عن الاخيرتين في الاكثر كانت تهامة في الاصل قعراً للبحر الذي انحسر عنها في الطور الجيولوجي الاخير . يستدل على ذلك بطبيعة ارضها ووفرة رمالها وكثرة الاحافير والاصداف البحرية التي تظهر في ربتها السفلى . ولا يزال انحسار البحر الاحمر وارتفاع سواحلها متوالياً على كر الدهور . فالرمال ما برحت تظهر مراقته وتمنع السفن الكبيرة من الوقوف الا على بعد شاسع . حدث هذا الطمر قبل اربعة او خمسة قرون في مرفأ غلافقة وقد كانت كما قال ياقوت في معجم البلدان مرسى زيد ، وكانت زيد عاصمة تهامة واكبر مدنها فيما مضى ، فلما اندثرت غلافقة انحط شأن زيد . وحدث الطمر ايضا الى حدٍ كبير في ميناء مخا ، فكان ذلك من دواعي انحطاطها وانتقال عمرانها الى الحديدة الحديثة العهد . ويحدث هذا الطمر والانذار الآن في اللحية واماها من المواني الصغيرة فيتجدد غيرها على توالي العصور وهكذا دواليك

وبسيط تهامة يتموج بموجاً خفيفاً ويحدث قلمات متواضعة وتعرضه اودية حصية منحدره

من انحاء الجبال ، اكثرها جاف في اغلب ايام السنة وبعضها حار ، وتعرضه أيضاً كئيبان رمال
ترداد في بعض الاماكن وتمتد الى مسافات شاسعة وتتحرك سطوحها بفعل الرياح كما هو الحال
بين الحديدية وباجل وحول ميناء غلافقة المندر . وفي بعض شطوط تهامة مرتفعات صخرية
تؤلف آكاماً تظهر في سواحل الشيخ سعيد ولاسيما حول مرفأ عدن

ومعظم بسيط تهامة قابل للحرث والزرع وذو خصب يقوى في بعض الاماكن لاسيما اذا
جاءتها الامطار وفاقت الاودية المنحدرة من الجبال بالسيول وسقى الزراع حقولهم منها—حينئذ
ينمو الزرع والفرس نمواً عظيماً وتغزر محاصيل الدخن والذرة والسمسم والتبغ والنيلة والقطن
والبطيخ ، والاشجار المثمرة وهي النخيل والموز والعمبا والليمون وغيرها . وفي تهامة نباتات
وانجم بزية شائكة وغير شائكة تنسب الى فصائل مختلفة منها العصل الذي يعملون منه
خمساً والبارك والهام اللذان يستعملان في بناء العشش والاكواخ . وفيها من الاشجار غير المثمرة
السمر والسلم والدوم والعشر والشورى والخروع الهندي وغيرها . وتؤلف هذه الاشجار في
بعض اماكن تهامة ادغالاً ملتفة كان يعتصم بها ثوار القبائل في حروبهم مع الدولة العثمانية

قال ياقوت : سميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها وهو من التهم . اهـ . لاجرم ان تهامة شديدة
الحرارة تتفاوت درجتها في الحديدية في الصيف بين ٣٠-٣٥ ليلاً و ٤٠ نهاراً ولا تقل في الشتاء عن
٢٤-٢٥ وانها شديدة الرطوبة تبلغ احياناً درجة الازهاق (٨٠-٩٠) وذلك لقرسها من خط الاستواء
ومجاورتها البحر . لهذا لا يمكن سفر القوافل والمشاة والركبان في تهامة الا ليلاً خوفاً من الرعن
ولا يمكن النوم في ليالي الصيف الا على السطوح وفي العراء . وتهب فيها احياناً ريح السموم فتسفي
الرمال وتحدث اعاصير ، ولا يلطف الحر الا هبوب الريح الجيلي الشرقي او البحري الغربي

واهل تهامة شافعية المذهب ، يخاف الابدان ، ربعات القامة او اطول ، سمر الوجوه لحر
بلادهم ولاختلاطهم بالدم الصومالي او الحبشي من قديم الزمان . وهم في الجملة آدمث خلقاً والين
جانباً وأرشد للغريب وأقرب للضيف من اهل الجبال . لكن الامية اكثر انتشاراً في
اهل تهامة منها في اهل الجبال ، وكذلك الشقاق والتناحر . ويعزى ذلك الى ان الشافعية ليسوا
كالزيدية ذوي ائمة وسادة يعنون بشؤونهم الروحية والزمنية الى حد ما . والفرقة بين الشافعية
والزيدية ما برحت ملحوظة . وهذه الفرقة سياسية وادارية اكثر منها مذهبية ، لو عني بشأنها زالت
وسكان السواحل في تهامة يعملون في البحر بالنوذية وصيد الاسماك وبناء الزوارق وبعضهم
بالغوص واستخراج الصدف واللؤلؤ ، وهذه الحرفة تجارة رابحة ، ويعمل اهل الحديدية وعدن
بتجارة الصادر والوارد من النين واليه . وسكان السهول والقرى الداخلية يعملون في تربية
الزرع والضرع ، ويعمل امثال اهل زيد وبيت الفقيه بالصنع والنسج مما سوف نذكره
وفي تهامة قبائل شتى أشهرها الصبيحة والزرائق والقحري وبني صليل والعبيسية والجرايحة

وبنو مروان ودوغان وبنو قيس وغيرهم . وليست هذه القبائل رحالة بل مستقرة في قراها وضمن حدودها ، تعمل في الزرع والضرع ، وتسكن بيوتاً من الاعشاش . والزرائق أشد هذه القبائل بأساً وخبثاً وأطولها يداً في قطع طريق البر وقرصنة البحر وفي تهريب السلاح والرقيق قبل منعهما . مواطنهم حول بلدة بيت الفقيه بين الحديدة وزيد ، حاربوا الترك العثمانيين مراراً ولم يزالوا مشاغبين لهم لما في مواطنهم من الحر الشديد والادغال الملتفة التي يختبئون فيها . واراودا ان يعيدوا الكرة هذه مع جلالة الامام الحالي بقيادة بعض الدسائس الاجنبية فساق عليهم جيشاً قبل بضع سنوات ، قمع فتنهم وأسكت نأمتهم . والفجرى ايضاً من القبائل القوية تسكن بين وادي سررود ووادي باجل ، لكنها ليست من الشر في ما يماثل الزرائق

وكانت تهامة في اكثر عصور تاريخ النين ولاسيا في العصور الاسلامية منفصلة عن قسم الجبال . قامت فيها دول عديدة مستقلة ، كدولة بني زياد وبني نجاح وبني الصليحي وبني ايوب وبني الرسول وبني طاهر ، وسيأتي ذكر ذلك في بحث التاريخ . ويظهر ان هذه — الدول ما استطابت النشأة والمقام في تهامة رغم حرها ووباء هوائها الا لكثرة محاصيلها ووفرة ريع المكوس التي كانت تقاضاها من قوافل البر وسفن البحر الواردة من الهند وافريقية الشرقية ومصر والحجاز والشام . فكانت تهامة مركز التوزيع بين هذه الاقطار قبل فتح قناة السويس ، وكانت ميناء عدن ومخا مركز التصدير والتوريد . الا ان الدول المذكورة لم تكن لتفنع بتهامة ، بل كانت كلما اشتد ساعدها ورأت ضعف أئمة الزيدية بسطت ايديها نحو الجبال فهاكمتها مدة ، ثم أخلتها اذا عجزت عن حفظها . وهكذا كان شأن أئمة الزيدية ، كلما قوا وراوا خلو الهائم من الحفظة استولوا عليها ، واذا ضعفوا اضاعوها وحكمها كبرائها . وظل هذا الاخذ والرد حتى تم جمع المنطقتين نهائياً في عهد الترك الاخير سنة ١٢٨٩ هـ وفي عهد جلالة الامام الحالي سنة ١٣٤٣ بعد ان نازعه عليها الادارة الذين كانوا اصحاب عسير

وئمة في سواحل تهامة على البحر الاحمر عدة جزر بعضها صغير غير مأهول لا يزوره الا الصيادون والغواصون . ولكن أكبرها حجماً وأجلها قدراً قران وپريم . فقران في شمالي الحديدة ، كان الترك انشأوا فيها قبل نصف قرن محجراً صخياً فحفلت بالسكان منذ ذلك الحين ، ثم احتلها الانكليز عقب الحرب العامة . وپريم وتدعى ايضاً مينون في مضيق باب المندب ، لها مرفأ عميق صالح للبواخر . ورغم حرمان هذه الجزيرة الصغيرة القاحلة من اي اثر للماء والحضرة فقد أوجد فيها الانكليز منذ ان احتلوها في الربع الاخير من القرن الماضي الماء المقطر وكل ما يحتاج اليه البواخر الداخلة والخارجة من البحر الاحمر من فحم ومؤونة . وتجاه هذه الجزيرة في ساحل النين موقع غير مأهول له مكانة عسكرية كبرى يدعى الشيخ سعيد فيه لحكومة النين مخفر للجنود ومركز للبرق وفي ساحل تهامة وداخلها مدن وقرى عديدة . منها في الساحل ميدي واللحية والصليف

وإن عباس والحديدة والطائف وغلافقة والحوخة ومخا وعدن . وفي الداخل عبال وباجل والزبدية والقطيع والدرهمي والمنيرة والزهرة والضحي والمرأوعة وحيس وبيت الفقيه وزيد ، وفي تهامة الجنوبية وراء عدن الشيخ عثمان والحوطة والراحة وبير احمد والحسوة وغيرها واكبر مدن تهامة وأشهر موانئها على البحر الأحمر في عهدنا (الحديدة) . ويظهر من عدم ذكرها في كتب جغرافي العرب أنها لم تكن لمضي ثلاثة قرون أو أربعة سوى قرية حقيرة يقطعها الصيادون . إلا أنه بعد أن طمرت الرمال مينائي مخا وغلافقة وتعذر على السفن أن ترقأ اليهما سعدت الحديدة بال عمران . وهي الآن مدينة كبيرة يقدر عدد سكانها بثلاثين ألفاً ، جميعهم عرب شافعية المذهب ، بينهم خلاسيون أمهاتهم من رقيق الحبش أو الصومال وفيها قليل من الهنود الباليان والبحرة ومن اليونان والطليلان المشتغلين بالتجارة . والحديدة محاطة بسور بني سنة ١٢١٥ هـ له خمسة ابواب وعدة أبراج ، وفي داخل السور دور حجرية جميلة بيضاء وبعضها ذو طبقتين وثلاث وثمة عدة أسواق تغص بحوانيت الباعة والتجار ومستودعاتهم . وفيها حركة بيع وشراء واصدار واستيراد ، كانت أقوى من الآن كثيراً في عهد الترك . وفيها عدة مبان حكومية ومساجد ، غير أن ساحلها مكشوف ومعرض للانواء ، تلجأ السفن عند اشتدادها الى خليج الحيانة في جنوبها . وحر الحديدة شديد ووبى تزداد وطأته بحكم شدة الرطوبة ايضاً . وفي خارج سورها احياء ودور كثيرة كلها عشش وأكواخ . وليس في الحديدة الا قليل من البساتين لفقدان المياه الجارية ولملوحة التربة ، ولذا تأتيا البقول والثمار من القرى والحيال القريبة منها . وماء الشرب يجلب اليها من آبار تبعد نحو أقل من ساعة ينقل في براميل محمولة على عجالات تجرها الجمال . وفي شمالي الحديدة على بعد ٢٤ ساعة عنها (اللحية) ، وهي بليدة وفرضة على البحر محاطة بسور وفيها ثلاثة مساجد ، وفي خارج سورها حصن ، ويجلب اليها ماء الشرب من آبار تبعد ساعتين أو ثلاث . و (الزبدية) بليدة تبعد عن الحديدة ١٢ ساعة بيوتها عرائش ، ينسج فيها حصير من ورق شجر اسمه الدوم يشبه النخل . و « باجل » بليدة تهامية على طريق صنعاء تبعد عن الحديدة عشر ساعات لها قلعة قديمة ومسجدان ودار حكومة . وفي جنوبي الحديدة بليدة (المرأوعة) ذات مساجد وحوانيت ومصانع لنسج القوط والبروز المتنوعة ومعاصر لعصر السمسم ويسمون زيتة في اليمن سليطاً ويزرع حولها النيلة والقطن والبطيخ . و (بيت الفقيه) في جنوبي الحديدة وعلى بعد اثنتي عشرة ساعة . وهي مبنية على تل مرتفع ، وهوؤها وماؤها أجود ما في مدن تهامة ، دورها من الاجر ، ومن العريش ، وفيها حوانيت كثيرة وخمسة مساجد ، أحدها جامع كبير ، وفيها حصن ، وقد اشتهرت بمنسوجاتها الجميلة المتينة المنسوجة من الحرير والقطن ، وعدد سكانها خمسة عشر ألفاً ، وحولها نخيل كثير . وفي جنوبي بيت الفقيه وعلى بعد ست ساعات تقع مدينة (زيد) بنيت في فم وادي زيد ووسط سهل خصب كثير النخيل ، وأحيطت بسور

مربع الشكل شيد من الاجر ، وفيه أبراج كثيرة وأربعة أبواب وفي داخلها قلعة بني فيها دار للحكومة وجامع باسم بانيه اسكندر باشا ، وفي البلدة جامع آخر كبير لمصطفى باشا النشار أحد ولاه الترك في اليمن . وفي زبيد من السكان عشرون ألفاً ، ودورها من الاجر أو العريش . وفيها جوامع ومساجد ومدارس عديدة . قال القلقشندي في صبح الاعشى : زبيد مدينة مبنية في مستوى من الارض ، عن البحر على أقل من يوم وماؤها من الآبار وبها نخيل كثير ، وبها مجتمع التجار من الحجاز ومصر والحبشة وهي شديدة الحر لا يبرد ماؤها ولا هوأؤها . وقد كانت مشق ملوك اليمن بني الرسول كما ان تعز كانت مصيفهم . اهـ . وبعد ان كانت زبيد قاعدة تهاجم اليمن حافلة بالملوك والامراء الذين سيأتي ذكرهم في بحث التاريخ والتجار والسفار وبدور العلم والعلماء واللغويين حسبك منهم الفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط الذي حظ رحاله في شيخوخته فيها ومات سنة ٨١٧ هـ ، وحسبك بعض ملوك بني الرسول مؤلفي الكتب العديدة في التاريخ والادب والطب انحط شأنها بعد زوال دولة بني الرسول ، ولا سيما بعد خراب ميناء غلافة ثم مخا وانتقال السفن والتجار والحكام الى الحديدة ، فلم يبق من مجد زبيد وعمرانها ولا سيما من دور علمها وعلمائها الا أثر ضئيل . وفي جنوبي زبيد بليدة (حيس) فيها عدة مساجد ومطاحن ومصانع للنيلة ومصانع للوان الحزفية . وفي اقصى الجنوب فرضة (مخا) التي كانت في العصور المتوسطة مدينة كبيرة تعد اكبر مواني اليمن بل كل جزيرة العرب ، ويدخل مرفأها الامين سفن الهند والحبشة والزنج وتصل اليها قوافل مصر والحجاز وغيرها ، فتبادل العطور والطيوب والاصباغ والمنسوجات والمصنوعات والرقيق . وكان فيها ٧ — ٨ آلاف دار ، وعشرات من الخانات والمستودعات ، لا تزال اطلالها ماثلة . وكان البن اليمني الناتج في لواء تعز واقضيته يصدر منها ويعرفه الافرنج باسم (بن مخا : Moka) . وظل هذا العز والعمران في مخا حتى طمر البحر مرفأها بالرمال فاضطرت السفن الى التحول الى الحديدة وعدن ، ثم دهمها القضاء المبرم في سنة ١٢٥٠ هـ حينما هاجمها العسيريون ونهبوها وخربوها ، فأصبحت قرية حقيرة تنذب مجدها الغابر

ومثل ذلك يقال عن مدن تهامة الجنوبية والغربية التي كانت قديماً فدرس اكثرها وخلفها غيرها . ذكر منها الهمداني وابن خلدون والمقدسي والعمرى وغيرهم من جغرافي العرب ، عدن ولحج وأمين والرواغ والشفاف والمنذب والحصيد وهي قرية زبيد والقحمة والكدراء والمهجم وعطينة والشرجة والحردة وغيرها . وصف المقدسي في كتابه (احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) عدن فقال : بلد جليل عامر أهل حصين دهليز الصين وفرضة اليمن وخزانة المغرب معدن التجارات كثير القصور مبارك على من دخله مثل من سكنه مساجد حسان ومعايش واسعة ، قد أحاط به جبل بما يدور الى البحر ودار خالف الجبل لسان من البحر فلا يدخل اليه الا ان يخاض ذلك اللسان فيصل الى الجبل وقد شق فيه طريق في الصخر عجيب وعليه

باب حديد ومدوا من نحو البحر حائطاً من الجبل الى الجبل فيه خمسة ابواب، الا انها
يابسة عابسة لا زرع ولا ضرع ولا شجر ولا ثمر ولا ماء ولا كلاء كثيرة الحريق والوكف .
وقال ابن فضل الله العمري في مسالك الابصار : لم تزل عدن بلد تجارة من زمن التبابعة والى
زماننا ، عليها ترد المراكب الواصلة من الحجاز والسند والهند والصين والحبشة ويمتار اهل كل
اقليم منها ما يحتاج اليه اقليمهم من البضائع . الا ان المقيم بها يحتاج الى ما يتبرد به في اليوم مرات
من قوة الحر . ولكنهم لا يبالون بكثرة الكلف ولا بسوء المقام لكثرة الاموال النامية اه .
قلت : ما برحت هذه الاوصاف جارية في عدن على ما رأيت . الا ان حالها قد حسن في الجملة
منذ ان احتلها الانكليز في سنة ١٢٥٤ هـ فخفلت بالشوارع المستقيمة والمباني الجميلة والمتاجر الحافلة،
والحدائق المغروسة ، والحصون والمنائر الظاهرة فوق الجبال السود المحيطة بها ، والماء المشروب
الذي استعملوه بعد الحرب العالمية من قرية الشيخ عثمان ، وهي اليوم من اهم نقط المواصلات بين الشرق
والغرب ومن أحصن حصون البريطانيين ومركز أساطيلهم البحرية والجوية ومحطة عظيمة تتمون
منها البواخر بالفحم والنفط وما يلزم ، وبندر كبير تستمد منه بلاد العرب وافريقية الشرقية عامة
واليمن خاصة كل ما يلزمها من السلع ، وفيها وكالات البواخر التي تفشاها بكثرة في غدوها ورواحها
بين الغرب والشرق . ويقدر سكانها بخمسين ألفاً اكثرهم عرب مسلمون وبينهم الصومالي والهندي
والفارسي والافرنجي . وبحيية عدن (الصهاريج) او اسداد الماء وهي من أجل الاعمال الهندسية
في العالم تسع ثمانين مليون جالون ماء . وتاريخ انشائها مجهول ، يرجع الى قبل الميلاد بخمسة
قرون او عشرة . وكانت هذه الاسداد مردومة عند احتلال الانكليز لعدن ثم كشفت ورممت
في سنة ١٢٧٢ هـ . وعدن في شبه جزيرة على ساحل البحر في دلتا وادي لحج وعندها ينهي خلاف
لحج ، كما ان هذا الخلاف منتهى اليمن في الجنوب . ويقع سلطان هذا الخلاف في بلدة اسمها
« الحوطة » تبعد عن عدن نحو عشرين كيلومتراً ، وفيها من السكان نحو عشرة آلاف ، وفيها قصور
السلطان واخوته ومساجد كثيرة . وسلطان لحج عبد الكريم فضل العبدلي واخوه الامير احمد
قد اخذا بحظ وافر من الثقافة والحضارة المفقودتين عند سلاطين وامراء بقية المحميات ، ولها
عناية بالعلم والادب والزرع والغرس . زرت بستاناً كبيراً للسلطان في شمالي الحوطة فوجدته
يحتوي على كثير مما لم اسمع الا باسمه من اثمار البلاد الحارة التي جلبت اشجارها من الهند ،
كالجوافة والعاط والسينافل والرامفل والنارجيل والتمر الهندي والشيكو والبيذان والغناء والحيالي
والمالح وغيرها ناهيك بأثمار البلاد المعتدلة . وللأمير احمد مؤلف مطبوع في مصر سنة ١٣٥١ هـ
دعاه «هدية الزمن في اخبار ملوك لحج وعدن» فيه بحث وتحقيق جديران بالثناء والاعجاب، خاصة
وقد انقطع التحجير والتحرير بين امراء اليمن منذ عهد بني الرسول اصحاب زيد (٦٢٠-٨٥٨ هـ)

الى الثلاثين...

لسيد قطب

إلى الثلاثين نُصِّي الركاب حيثنة يا ليل
مضى من العمر أغلى اللباب فلست آسي لفال
مضى من العمر ما يستطاب من بهجة أو جمال
مضى كما جاء — عهد الشباب عهد المنى والخيال
وضاع في غمرة واضطراب ومرّ دون احتفال

فأسرعي يا ليل

علام من بعده تمهلين ؟ وأي غيب نهاب ؟
وما احتفالي بمرّ السنين ؟ من بعد مرّ الشباب ؟
وما الذي يا ليالي يكون بعد اكتمال الرغاب ؟
يكون — واحسرتاه — السكون على ضفاف اليباب ؟
يكون — كالقيد — عقل رزين ! يعطو لشط الصواب !

فيا لسوء المآب

فذلك العقل رمز القيود ونحن شرّ العُناء
يدودنا عن مراقي الخلود وخير ما في الحياة
والطيش رمز الشباب المرير يسمو بنا عن مداه
فنحن زنو لهذا الوجود بفتنة وانتباه
فلا نبالي بصرف الجدود ولا نخاف الغداه

فكل يوم حياه

يضاعف اليوم مني المصاب أن لم أعش بالخيال
قضيت — واحسرتاه — الشباب كالكهل في كل حال
يحيش بالنفس سيل الرغاب فلا يمس اعتدالي
ووجهتي في الحياة الصواب ونظري للمآل !
عصيت أمر الحياة المحاب فكان رشدي ضلالي !

فأسرعي يا ليل

الحضارة الحديثة

نواحيها الصناعية والتجارية

بقلم قيصر صادر

عضو جمعية العاديات السورية

التجارة

يؤخذ من مخطوطات الكبادوك ان الحثين كانوا منذ اقدم عهودهم تجاراً من الطبقة الاولى وعلى اتصال وثيق بسائر ارم الشريق يتاجرون معها بشقّي الاصناف اهمها الاصواف والماشية والمعادن وكان عندهم شبه مصارف تجارية لترويج معاملاتهم ونقود يتقاضون بها حاجتهم وكانت وزن قطعة نقدهم الكبرى ستين مثقالاً من الفضة وقد عثر لهم على عقود بيع وشراء وتسليف على بضائع وقروض مقابل رهونات مدونة على الآجر واستدل من بعض النصوص على وجود محل في الحواضر الكبرى يدعى كاروم اشبه بالغرف التجارية المعروفة في ايامنا بهم بتعيين معدل فوائد القروض بين التجار ويعد المرجع الاعلى لحسم الخلافات التجارية وكانت معظم قيودهم تختم بالرصاص وتطبع بطابع الغرفة المذكورة بجانب مهر التاجر المصدر عنه وكانت وعداتهم معينة بخمسة ايام عوض اسابيعنا الحالية فقراً مثلاً في عقودهم انه اتفق على ايفاء القرض الفلاني بعد مرور تسع خمسات اي بعد خمسة واربعين يوماً

وعندما تقدموا في مضمار الحضارة مهروا في تقوية المعادن وصياغتها فصارت تجارتها تدر عليهم ارباحاً طائلة وقد اهتموا بها حتى ملوكهم فأخذوا يطلبون الى فراغته مصر ارسال سبائك ذهبية ليصوغوا لهم منها حلياً في معاملهم الملكية مقابل اجر يحسمونه من اصل البضاعة ثم اتقنوا في القرن الحادي عشر صنع الاسلحة وسائر مستلزمات الحضارة من معدن الحديد الذي كانوا يستخرجونه بكثرة من مناجم اسيا الصغرى وجعلوا معامل هذه الصناعات ومحال الصاغة الكبرى ملكاً للدولة واخذوا يتاجرون بمصنوعاتها مع سائر ارم الشريق وقد عثر العالم الاثري

المسيو تورو دالنجان في حفريات تل برسيب على رسالة الملك حثي جواباً الى ملك غير معروف يقول له فيها : « لقد اوعزت الى معلمي بأن تصنع ما اوصيتهم به من اصلاح انواع الحديد فعندما يتم عمله سوف ارسله اليكم » وأصبح رسالته خنجراً من الحديد كنموذج وقد كشف التنقيب عن اشياء كثيرة من تلك المصنوعات كاطواق وآلات واسلحة واصنام وتمائيل وتمام مرصعة بالذهب وقد كان الامن مستتباً على طرق مواصلاتهم التجارية والثقة موطدة فقطع قوافلهم المسافات الشاسعة وتقضي فيها اياماً وليالي من غير ان تخشى بأساً ولم تكن طرقهم مستقيمة على شاكلة الطرق الرومانية بل كثيرة الالتواء كشبكة تربط كل البلاد الحثية بعضها ببعض وتدلنا الآثار التي شادوها على قارة هذه الطرق على اتساع حلقة تجارتهم وبعد مداها في غربي مملكتهم كما انه في الجهة الشرقية كانت كركيش منفذهم على الفرات وعقدة مواصلاتهم مع بلاد ما بين النهرين

الصناعات والفنون

لا غرو انه لا يمكن ان يبلغ شعب من الشعوب مستواه الراقي في الفنون والصناعات ما لم يجتز سلسلة من المراحل الابتدائية . لذلك نشاهد في آثار الحثيين تفاوتاً في درجات رقي فنونهم وصناعاتهم يختلف باختلاف العهود التي ترتد اليها . فيجدر بنا والحالة هذه ان نقسم هذه الفنون والصناعات الى قسمين نطلق على الاول اسم الفن الحثي الآسيوي وعلى الآخر الفن الحثي السوري نظراً الى ما لكل من هذين القسمين من عهود متفاوتة وميزات خاصة . فيينا يكاد يكون الاول مشتقاً من الفن السومري لكثرة وجوه التشابه بينهما نرى على الثاني مسحة من الفن الاشوري تزداد بروزاً مع تقدم عهود التاريخ حتى تنفذ منه الى الصميم . على أن هذه التأثيرات لم تحل دون تكييف الفنون والصناعات الحثية وتطبع بطابع خاص جعلناه موضوع بحثنا في خطوطه العامة

﴿ فن العمارة ﴾ فاذا أخذنا بفن العمارة وهو من أهم العوامل في درس مدينة الشعوب دلنا الآثار الحثية الباقية على عبقرية الشعب الذي شيدها . فقد امتازت عمائر الحثيين باستقامة خطوطها الساذجة وضخامة قواعدها وتوسط ارتفاعها وتناسبه مع امتدادها وتجلت هذه الأوصاف خاصة في الآثار التي اكتشفت في بوغاز كوي وهويوك كما بدت على انقاض قلعة كركيش ومن أروع تلك الأدلة على قولنا حصون حاتوشا وأبوابها الحجرية التي تم بضخامتها وصلابة بنائها على ما كانت عليه تلك العاصمة القديمة من القوة والمناعة وقد قامت في وسطها قلعتان على ذرى رايتين تحيط بهما أسوار غليظة يبلغ سمك جدرانها اربعة امتار ونصف متر وهي مبنية بأحجار كبيرة الحجم متراسة تتخللها دعائم على مسافات متوازية يزيد مداها متانة يفند منها بواب حجري مستطيل الى قباب طويلة مزخرفة الجدران برؤوس اسود بارزة كأنها قائمة على

حراسة الابواب ويخرج من هذه القباب الى فناء داخلي تتفرع منه سائر المشتلات من
أبهاء وغرف وهياكل

ومما اكتشف ايضاً في حفريات بوغاز كوي بقايا قصور تيسر معرفة شكلها الهندسي بفضل
بقاء جدران طبقها الاولى فوجدت مبينة بأحجار جسيمة الحجم يتألف داخلها من رواق
طويل يتهي الى فسحة مكسوة بالبلاط تتوسطها بناية كبيرة يلوح من زخارف انقاضها انها كانت
معبداً في قلب القصر وتقوم في غرب هذه البناية غرف كثيرة تشرف على الفسحة المذكورة وتماز
هذه الأبنية الحثية بأسسها العميقة خلافاً للابنية الاشورية التي كانت تقوم على سطح الارض
فيستنتج مما تقدم ان الحثيين بالغوا في صلابة بناء عماراتهم الكبيرة التي كانت من الصخر
الصلد وحاطوها بكل ضروب التحصين وجهدوا في أن تكون غاية في المناعة ويظهر أنهم بذلوا
معظم جهدهم في تشييد قصور الملوك ومعابد الآلهة توحياً لرضاء أربابها

﴿الحفر والنقش﴾ وقد اغرق الحثيون في الاستكثار من الحفر والنقش على آثارهم حتى
انتشرت نقوشهم في جميع أنحاء الاناضول وسوريا الشمالية على ان فيها لم يكن متجانساً في كل الامكنة
على السواء . ففي يازيلي قايه وبوغاز كوي القديمتين تراه أقل رقياً مما هو عليه في كركيش
وزنجيرلي . فبينما كان الحفار الحثي يقصر همه في البدء على اخراج نقوش ناتئة اخذ يعنى على مرور
الايام بنحت الاصنام والتقرب من تصوير الحقيقة ويحهد في محاکاتها فهدر في ضبط اعضاء الجسم
وصار له ميزة خاصة بأسلوبه ومبتكراته ثم نحا آخر نحو الرقة وكاد يضاهي في بعض الآثار
نقوش المصريين الرائعة

وربما كان من امهر خصائصه تصوير الحيوانات حيث توصل بها الى محاكاة الشبه بامانة
تكاد لا تصدق نخص منها نقوش الأسود التي برع في تمثيلها واكثر من صفوفها على ابواب قلاع
وقصوره ومعابده . ففنها تبدو لك جالسة وقد بطخت ايديها الى الامام كأنها تعبئة من طول السير
وقد بانت اعضاء جسمها كافة فتكاد تعد اضلعها ومنها تراها منتصبه كأنها تتحفز للوثوب وقد فتحت
اشداقها ليزأر قترناع من هول مشهدها . وهناك نقوش كثيرة على جانب عظيم من المهارة تمثل
كلاباً تطارد سرب غزلان ومشاهد قصص وصيد قل تمثيلها في محاكاة الطبيعة مثل نقش هوبوك
الذي ظهر فيه وعل يعدو هرباً من نشابة الصياد . وقد اقام الحثيون تماثلاً لابي الهول المصري
في عاصمتهم الاسيوية ونقله المكتشفون الى متحف استامبول حيث يشاهد مرماً من الكسر ذا
جسم عتيّ ووجه بشري كبير يحاول الابتسام

اما سائر النقوش فقد تنوعت موضوعاتها الى حد لا يحصر وأتيح لنا ان نتبع مبدعها في حفلاتهم
وطقوسهم واعمالهم وفي كل امر من امورهم . ففي بوغاز كوي عثر على قاعدتي تمثال من حجر

الخص من ينتين بنقوش تمثل في احدهما رجلاً ملتفّاً برداء وفي الاخرى فاتحاً الرداء وهو واقف وقفة تعبد وابتهاال امام هيكل يشبه مقعداً كثير الثقوب اكتشف له مثال من الفخار في معابد اشوروتيين ان كثرة ثقوبه تساعد في عرف الاشوريين على ظهور ارواح الاجداد من نوافذها وقد تعرفنا بفضل نقوش اخر تغطي صدوغ احد ابواب مدينة حاتوشا الى ملك محارب حايق الذقن يكسوه قميص حريري مشدود تكاد تبرز من تحته عضلات صدره الواسع . اما رأسه فغطى بخوذته بيضوية الشكل يمتد في موقاً معكوف الانف ويحمل في طيات محزومه العريض خنجرأ معوجاً بقبضة مزخرفة وقد امسك بيده اليمنى المقربة من صدره فأساً ذا حدين اما يده اليسرى فتراها مطبقة القبضة دلالة على شدة بأسه وهو في وقفة تحاله فيها يتأهب للعشي وهناك نقش آخر يرينا آله النباتات القروي محملاً بعناقيد العنب وقد امسك بيد عنقوداً كبيراً وفي الاخرى حزمة من سنابل الحنطة كأنه يشير بها الى ملك واقف امامه وقفة الخشوع والاحترام

وفي يازيلي قايه صور اشكال من الطقوس نقشت على سلسلة من صخور جبلية يستريحك بينها مشهد يمثل مواكب من الآلهة والملوك والملكات وقد وقفوا في صفين متقابلين يتقدمهما اله عظيم على رأسه تاج عال وقد امسك بيده اليمنى قبضة من الاسلحة وأشاح باليسرى الى الهة الشمس الواقعة قبله مما فسرهم العلماء بحفلة زواج احد الملوك وارتفائه الى مصاف الآلهة وفي محل آخر زى الها شاباً ممسكاً بيده اليمنى شارة الملك وقد لف الاخرى حول عنق اله اصغر رمزاً الى حمايته ويجدر بنا ان نشير ايضاً الى بعض آثار هوبوك التي تمثل مشهد تطواف كهنة باليستهم الرسمية حول ذبيحة مقدمة على هيكل بحضور الملك والملكة . وان توه بمشهد آخر يمثل الآلهة قاعدة في مجلس طرب وقد التف حولها نانفو الابواق وسائر المطربين ولا يفوتنا الى ان نلمح في الحتام الى المشاهد الطقسية العديدة التي وجدت في ارسلاناتيه وكر كيش وفي غيرها مما لا يعد ولا يحصى

﴿ صناعة المعادن ﴾ عرف الحثيون صناعة المعادن من اقدم عصورهم فصاغوا من سبائك التبرحلياً وأصناماً صغيرة كما عالجوا الحديد وصنعوا امنة الرقائق المصورة والتماثيل وخلطوا الحارصيني بالنحاس وركبوا من مزيجهما الشبه وسكبوا منه آنية وكؤوساً ودمى طولوها بالذهب والفضة واذا بوا القصدير واستعملوه لبصم اختامهم وصهروا سائر المعادن واستخدموها في صناعاتهم . يشهد لنا بذلك ما خلفوه من شتى الآثار التي سموها بميسمهم الخاص وقد كثرت فيها تماثيل الآلهة المستطية ظهور حيوانات ومعظمها سليم الذوق ودقيق الصنع

﴿ صناعة الفخار والخزف ﴾ وقد اتقنوا كذلك صناعة الفخار والخزف وتفننوا في منتجاتها

فامتازت مصنوعاتهم بأناقة اشكالها وزخرفتها وجمال تلوينها ولا سيما الآنية المكتشفة منها في أنحاء سوريا الشمالية حيث تطورت اشكالها العتيقة المبثلة واخذت تقرب من اشكال الآنية المعدنية فتبسّطت اعقابها وصار بعضها بطيئاً والبعض الآخر معنقاً وكان الاحمر لونها الغالب الا أنهم وسموا معظمها بتعاريج هندسية وغصون اشجار ملونة كادت تضع لونها الاصلي ثم اخذوا يكيفون بها اشكال بعض حيوانات مثل السمك والبط والسلاحف وما شاكلها ويطلونها بالميناء اللامعة فصارت في منتهى الزخرفة كما دلت على ذلك مجموعة آنية تل برسيب المحفوظة في متحف حلب وقد شبه العالم الاثري بوتيه بعضها بالخزف العيلامي الجميل المكتشف في ايران

﴿ الحفر على الاسطوانات ﴾ ومما برع الحيثيون في صناعته الحفر على الاسطوانات . فقد عثر لهم على اختام رتد الى القرن الخامس عشر ق. م على جانب عظيم من دقة الصنع كثيرة الزخرف وقد حفر على بعضها صور آلهة حثية عارية مثل آلهة الحصب وقد نقشت حولها احرف هيروغليفيه حثية كما اكتشف في قبور كركميش اسطوانات حثية الفن ولكنها مشبعة بروح اجنبية حيث ترى بعضها مزداناً بنقوش آشورية واخرى بتعاويد مصرية وتصاوير آلهة وادي النيل، وقد برهنت هذه الآثار على مدى تأثر الحثيين في الامم التي اتصلوا بها

وقد يبقى بحثنا ناقصاً اذا تغاضينا عن ذكر مدى انتشار الفنون الحثية في سائر الاقطار الشرقية وتأثيرها في الحضارات التي ازدهرت من بعدها . فتأيداً لانتشارها نذكر الصنم الحثي الذي عثر عليه في حفريات بابل بين آثار القرن الثاني عشر ق. م وهو يمثل الاله تحشوب بقميصه القصير وسيفه المعوج في خصره وحذائه المعكوف الطرف ولحيته الكثيفة وشعره المموج وقد لبس على رأسه تاجاً يعلوه قرنان وأمسك بيده فأساً مهدداً بالبطش والانتقام

كما ان تأثير الفنون الحثية في سائر الفنون القديمة تبدو في كثير من الامور اخصها قواعد الاعمدة اليونانية المزدانة بنقوش وتماثيل حيوانات معروفة بكونها من مبتكرات آسيا الصغرى . وفي خوذة الجندي اليوناني وسائر لباسه الذي يماثل ألبسة الجنود المنقوشة على آثار زنجيري وفي تماثيل الآلهة المنتصبة على ظهر حيوانات وفي غيرها من الاساطير الدينية وبعض الصناعات التي تسربت من الحثيين الى بحر إيجه فاليونان

وصفوة القول ان اكتشاف الحضارة الحثية قد أبان مصادر كثير من الفنون القديمة وأظهر الأواصر العديدة المتوثة بين الاقطار الشرقية منذ أقدم الازمنة وأوضح فضل هذه الدولة العريقة التي اذكت شعلة المدنية قبل اربعة آلاف سنة وحملت نبراسها احقاباً طويلة في أحلك ظلمات القرون السحيقة

نفسية الجماهير

لنظمي فبيل

إذا اجتمع نفرٌ من الناس لسماع محاضرة أو مشاهدة قصة تمثيلية فانتا نتين نوعاً من الشعور قد سرى الى عقول هؤلاء الناس جميعهم وان لم يكن على درجة واحدة في كل واحد منهم . ومصدر هذا الشعور هو الممثل أو الخطيب ومنه ينتقل الى جمهور الحاضرين ولكن هذا الشعور ليس بالعميق الراسخ فسرعان ما يتبدد ويتلاشى في مشاغل الانسان الكثيرة . وكما كان الأفراد مهينين لمثل هذه الايجاءات كان الامتزاج في عاطفة الجمهور أقوى وأكمل وكان تأثيرها أشد وأبرز . والواقع ان الاستعداد لقبول هذه الايجاءات يختلف باختلاف الأفراد . وهو في الاطفال والنساء أظهر منه في الرجال وفي بعض الشعوب أقوى منه في غيرها . وعلى هذا نجد عقل الجماعة مسرحاً لشقى الايجاءات لا تكاد تظهر سلسلة حتى تعقبها سلسلة أخرى تجربها في طريقها وتتزع منها مكانها . ولا يتوقف دوام أثر هذه الايجاءات على كيفية انتشارها بأسهل الطرق ولكن على مقدار ما فيها من صلابة وحدة في العاطفة . لأن هذه الحدة في العاطفة التي تمسح بالآراء عادة هي التي تعمل على تثبيتها وتغلغلها في عقول الأفراد . وهذه الطريقة يسعى كل حزب الى كسب أنصاره بواسطة الخطب الساحرة والكلمات الخلافة التي يتوهمها هؤلاء الأنصار أنها تتفق ورغباتهم . لان الأفراد يسعون دائماً وراء امتيازات خاصة مشتركة بين الجميع ومن أجل ذلك يجتمعون لاعتقادهم أنهم يصيبون مجتمعين أكثر مما يصيبون متفرقين . وعلى هذا يقوى بينهم شعور الزمالة كلما استهدفوا لخطر فيتكاتفون جميعاً على درئه . فالخوف شعور وجداني له فوائد العظيمة في الجمع بين الأفراد وفي تكوين الجماعات وبمقدار بقاء هذا الخوف تكون مدة اتحاد هذه الجماعات والتماس صفوفها

ولم يغفل قادة الشعوب عن هذه الظاهرة السيكولوجية في الجماهير فعملوا اجهدهم على استغلالها والانتفاع بها . فاذا نجح القائد مرة في ادخال الخوف في قلب الجمهور من أجل خطر — وهمي أو حقيقي — لم يصعب عليه بعد ذلك ان يقبض على زمام هذا الجمهور وأن يوجهه كيفما يشاء . هذا ما نراه في جميع الشعوب فقبل ان تدلج نيران الحرب يكون الرأي العام قد تهيأ لها عن

طريق الصحف والخطباء الذين لا يفتأون يدخلون الرعب في قلوب الناس بما يذيعونه عن زيادة تسليح إحدى الدول المعادية. لذلك كان أول واجبات الزعيم الشعبي أن يثبت الخوف والكراهية وعدم الثقة في نفوس الناس. لقد كشف جوستاف لوبون عن تلك العاطفة - الخوف - التي تحتل المكان الأول في أعمال الإنسان فقال « إن روح الجماعة عاجزة عن أي نشاط ذهني فهي بين الاقدام والاحجام وبين هذين القطبين تذبذب روح الجمهور فهي قد تدنو وتأي تبعاً لشعور العطف أو الكراهية » فإذا أدرك الزعيم رغبات شعبه وعمل على تحقيقها استطاع أن يبعث فيه روحاً قوية قد تدفعه إلى التضحية. ويكفي أن يذكر بهذه الكلمات الشرف - الدين - الوطن فيثير فيه أهواءه الدفينة وميوله القوية وسلوك الجماعة يعتمد قبل كل شيء على سلوك الأفراد الذين تتألف منهم هذه الجماعة. وتصرف الفرد يخضع للجنس والسن والبيئة ولكنه يعتمد في النهاية على السلالة أو بوجه عام على العوامل الوراثية. وما دام الأمر كذلك فقد كان المنتظر أن يختلف سلوك الجماعات الفردية الزعة Individualistic Masses عن سلوك الجماعات الاجتماعية الزعة Collectivistic masses وسنرى هل هذا صحيح أو غير صحيح. وإذا شبهنا المجتمع الإنساني بجهاز عضوي ونظرنا إليه من الوجهة البيولوجية أمكننا أن نتعرف على طبيعة الجماعة ونفسيتها وما ينتج عنها من تصرفات. وكما يختلف الأفراد في التكوين الجسمي كذلك الحال في الجماعات ففي الإنسان نجد كل خلية تكتسب عناصر الوراثة من كلا الوالدين، ونشاط الخلية يتأثر دائماً بالعناصر التي ورثتها. كذلك الحال في الجماعة فإن تكوين الكتلة البشرية يخضع دائماً لتصرفات الفرد وعلى ذلك نجد أن هناك شهاً قوياً بل تطابقاً محكماً بين خلايا الإنسان الواحد وبين الناس في المجتمع هذا من الناحية البيولوجية أما إذا نظرنا إلى المجتمع من الناحية النفسية - السيكولوجية - فانتنا لا نجد اختلافاً كبيراً بين الإنسان والجماعة إلا أن الخلايا في الإنسان أسرع اتصالاً ببعضها ببعض من اندماج الأفراد في الجماعة ففي الأول رباط مادي لا نجد مثيله في الأخير ولكن هذا الرباط يستبدل في الكتلة البشرية بما يسمى انتقال المشاعر أو الإحجام

ولست أميل هنا إلى الدخول في موضوع عويص بالبحث في طبيعة انتقال هذا الشعور فقد تكون الحركات المتوافقة للخلايا ناتجة من انتقال نوع من أنواع الشعور. ومهما يكن فإن في الجماعات البشرية دوافع قوية متصلة تنتقل من فرد إلى آخر كذلك التي نجدها في خلايا الجسم البشري. وكما يحدث أن الخلايا التي في الإنسان تؤثر في حركات غيرها كذلك الحال في الكتل البشرية فانتنا نجد صدى التأثير هو الذي ينتقل من شخص إلى آخر. ويمكننا أن نستنتج من هذا أن حالة التأثير في الجماعة هي مجموع تأثير الأفراد غير أن السلالة والسن والجنس والنمو في الأفراد وغيرها من مؤثرات البيئة تجعل « التفاعل » في الجماعة غيره في الأفراد إذ أننا نجد في الجماعة كما في حياة الأفراد العقلية دوافع شتى تتصارع وتتناضل. هذه الدوافع هي التي تسلط

على حركات الجماعات كما تتسلط على حركات الافراد وهي دوافع غريزية خالصة ولكن هذه الدوافع وحدها لا تكفي لتكون كتلة نفسية متماسكة تحيا حياة اجتماعية متماثلة اذ لا بد أن يكون بين الافراد شيء من التجانس العقلي . دع رجلاً يقوم بين مائة من الناس بنعي على الامة ضعفها وتفككها فسرعان ما يلتف حوله هؤلاء المائة ولكن اذا كان هؤلاء المائة من أجناس وشعوب مختلفة فانهم سرعان ما ينصرفون عن الخطيب لان كلامه لا يعينهم في قليل أو كثير وعلى ذلك يجب أن يكون هناك بعض التشابه في التكوين العقلي أو ما يسمى بالتجانس العقلي في الجماعة . وكلما زادت درجة التجانس في الكتلة البشرية كان التكوين النفسي للجماعة أيسر وكانت مظاهر الحياة الاجتماعية فيها أظهر وأوضح

فاذا أتت جماعة متجانسة شخص بشير فيها الحماسة والعمل فان شعور هذه الجماعة لا يلبث ان يتحد وقد يمر بعقل كل واحد منهم في تلك اللحظة كل العمليات العقلية التي شاعت في ذلك الجو الجديد ويصبح من السهل اقناعهم وتوجيههم الى حيث يريد الزعيم بل قد يكون اقناعهم أسهل من اقناع الفرد لأن أعمال كل عضو في الجماعة غير أعمال الشخص الذي يواجه الموقف كفرد مستقل . فالفرد في الجماعة لا يهتم له إلا أن يجد قوة الجماعة ولكن الجماعة لن تحاول أن تقي على كيانه أو أن تحافظ على حرته فهو في هذه الحالة يصبح فرداً في الجماعة يفقد فيها شعوره الشخصي وادراكه لذاته كشخصية مميزة . وعلاوة على ذلك فانه باندماجه في الجماعة يفقد كثيراً من المسؤولية الشخصية إذ يشعر أن مشاعر غريبة قد غمرته وقوى أخرى خارجية قد جرفته في هذا الطريق الجديد وهو عاجز عن أن يقف أمام تيارها . لذلك يكون من اليسير جداً على الزعيم أن يتلاعب بتلك الجماهير التي أسلمته قيادها يوجهها كيف يشاء . فهي تسير وراءه بإطاعتها لا بعقلها تسع كلماته فتفتح لها قلوبها وترى اشاراته فتسارع الى الاستجابة لها فتندفع في فورة العاطفة وحرارة التأثر فترتكب من أعمال الطيش والتدمير ما يثير عجب جميع الناس الذين لم تمسهم نيران الثورة ولم تستجب قلوبهم لنداء العصيان . ولكن ليس لنا أن نعجب لأمر هذه الجماهير التي طاشت أو لتلك العقول التي ضلت فان هذه الظاهرة النفسية وان بدت لنا غريبة شاذة هي نتيجة طبيعية لتلك الثورة الجارحة . فاذا وقفنا على الصفات النفسية للجمهور ما هالنا أمره . فالجمهور ساذج عاطفي الى حد كبير ، كثير الاندفاع قليل الثبات ، متطرف في كل شيء . قابل للإيحاء ، مستهتر في تحكمه ، متسرع في حكمه فهو شبيه بالطفل المتروك أو الهمجي غير المكبوح وقد يكون في بعض الحالات أقرب الى الوحش الضاري منه الى الانسان العادي . اذا فهمنا هذه الحقائق الأولية في نظريات نفسية الجماعات ما رمينا الجماهير الساذجة التي تفقد عقلها في الازمات النفسية العنيفة بالاحتياط الخلقى والثقافى ووقفنا على تلك الحقيقة المهمة وهي ان الجمهور لا يصحبه اي شيء من الشعور الخلقى والعقلي الذي يصحب أعمال الافراد الذين يكونونوا

وقد يخطئ كثير من الناس فيعززون أعمال التلف والتخريب الى الرعاع المستهترين والواقع أن جميع الافراد سواء المذهب المثقف أو السوقي الأحمي يكونون في حالة عقلية واحدة في تلك الثورات النفسية الشاذة . اذ السكل يتبع نداء الغريزة ، ويندفع بتأثير الايحاء

لقد فهم شكسبير عقلية الجماهير فهماً دقيقاً فلا تخلو قصة من قصصه التمثيلية الكبيرة من الاشارة اليها والتعرض لها . وأقوى مثال على هذا ما جاء في مسرحيته الرائعة « يوليوس قيصر » من موقف الشعب الروماني بعد قتل قيصر . فقد نجح بروطس زعيم المتآمرين في اقناع الشعب بضرورة قتل قيصر لانقاذ روما حتى أن الشعب اعتبر القتلة أبطالاً جديرين بالخلود . فلما جاء « مارك انتوني » وجد نفوساً حائرة على قيصر وأتباعه فلم يشأ أن يهاجم القتلة أو أن يسيء الى قصدهم بل عمد الى استمالة الجمهور اليه بأن حدثه عن أعمال قيصر وكيف ان قيصر قد بنى لهم مجداً خالداً وشاد لهم امبراطورية عظيمة دون أن يكسب لنفسه شيئاً

فسرعان ما انقلب ذلك الجمهور الخائف السائح على قيصر واتباعه الى جمهور ثائر على القتلة الجرمين فاندفع في فورة العاطفة يطالب بدم قيصر البريء . وهنا يورد شكسبير حادثة طريفة قد تكون حقيقة تاريخية ثابتة وقد لا تكون ولكنها على اي الحالات حادثة يمكن ان يقدم عليها جمهور في مثل تلك الثورة الجارحة والهاج العاطفي العنيف . خرج الشعب الروماني جوعاً متدفعة يبحث عن القتلة فصادف في طريقه رجلاً فسأله عن اسمه فأجاب الرجل « سنا » فلم يكذ الجمهور الثائر بسمع هذا الاسم حتى انقض على الرجل يريد الفتك به لانه كان يبحث عن احد الاشخاص المتآمرين يدعى « سنا » وعبثاً حاول ذلك المسكين ان يقنع الجمهور انه « سنا » الشاعر لا سنا « المتآمر » . هذه الحادثة البسيطة وان لم تكن حقيقة تاريخية ترسم صورة واضحة لنفسية الشعب الثائر الذي لا يعرف الا الانتقام والتدمير سواء كان هذا التدمير يتصل بالسبب الحقيقي الذي من أجله يثور أو لا يتصل . وتعليل هذا أمر يسير فالجمهور في حالة هياج كالفرد في ثورة غضبه فكما ان الفرد يخرج به الغضب أحياناً عن دائرة التعقل فيتلف ويدمر كل ما يلقاه أمامه وقد يبكي او يضرب نفسه ان أعوزه ذلك . كذلك الجمهور يدفعه حنقه وجنونه الى قلب كل ما يراه أمامه وهذه ظاهرة نفسية طبيعية فهو في تلك الحالة ثائر مضطرب فيريد ان يرى كل شيء حوله ثائراً مضطرباً أي انه يريد أن ينفق عن نفسه بخلق الجو الملائم لطبيعته الثائرة . ومن الخطأ ان نأخذ مثل هذا الجمهور بالشدة والعنف فاننا ان فعلنا ذلك نزيد النار اشتعالاً . فكم من شخصيات عظيمة ذهبت ضحية الثورات الجارحة لأنها لم تفهم نفسيات الجماهير . وما اكثر الذين كان يرجى منهم مستقبل عظيم فجرهم الجمهور في طريقه لانهم تصدوا له

والواقف على تاريخ قادة الشعوب يدرك تماماً أن هؤلاء القادة لم يكونوا اذكي الناس أو اكفاهم ولكنهم كانوا أجراهم وأكثرهم صبراً وأعرفهم بنفسية شعوبهم

الرتب العسكرية

في مصر والعراق

للفريق امين المملوك

كثر البحث في هذه الأيام في توحيد الرتب العسكرية في اللغة العربية فرأيت ان اكتب شيئاً عما أعرفه عن الرتب العسكرية في العراق. وقد كانت في أيامي كما يأتي من أدناها الى أعلاها وسأذكر الاسماء المصرية ثم العراقية ثم الانجليزية والفرنسية

الرتبة المصرية	الرتبة العراقية	الرتبة الانجليزية	الرتبة الفرنسية
نقر	جندي	Private	Simple soldat
وكيل أو نباشي	جندي اول	Lance corporal	—
اونباشي	نائب عريف	Corporal	Caporal
جاویش	عريف	Sergeant	Serjent
باشجاویش	رأس العرفاء	Sergeant major	—
صول	نائب ضابط	Warrant officer	—

هؤلاء الاربعة يقال لهم في مصر صف الضباط وفي العراق ضباط الصف. ثم الضباط وهم من ملازم ثان الى مشير فجميعهم ضباط

ملازم ثان	ملازم ثان	Second Lieutenant	Lieutenant
ملازم اول	ملازم اول	First Lieutenant	—
يوزباشي	رئيس	Captain	Capitain
صاغ	رئيس اول	Second captain	—
هؤلاء الاربعة يقال لهم ضباط اعوان والواحد عون			
بكباشي	مقدم	Major	Commandant
قامقام	عقيد	Lient. Colonel	—
ميرالاي	زعيم	Colonel	Colonel

هؤلاء الثلاثة يقال لهم في مصر ضباط عظام وفي العراق قادة والواحد قائد

Général de brigade	Brigadier general	امير لواء	لواء
Général de Division	Major General	فريق	فريق
Général d'une armée	Full General	عميد	
Maréchal	Field Marshal	مشير	مشير

وأحياناً يسمى المشير في العراق العميد . هؤلاء الاربعة يسمون في مصر ضباط كرام وفي العراق أمراء فيقال تحية الأمراء اذا كان لهم تحية خاصة

ثم ان الرتب العسكرية العراقية وضعت اولاً في الحجاز . ثم عدلت في دمشق ثم في العراق عدلها الفريق جعفر باشا العسكري وكان وزيراً للدفاع وعاونته في بعضها . وكان رحمه الله يتقن لغات كثيرة فمن اللغات الشرقية العربية والتركية والكردية والفارسية والافغانية وقليلاً من الروسية ومن اللغات الاوربية الفرنسية والالمانية وتعلم أخيراً الانكليزية وأتقنها . قلت انه عدل الرتب العسكرية في العراق وقد اقترحت عليه يوماً كلمة للعميد للكلونل لان كلمة كلونل أصلها من كلمة عمود فلما عرضها على جلالة الملك قال العميد كثيرة للكلونل أي الزعيم فاجعلها لا كبر رتبة في الجيش وهكذا كان . أما العميد فكلمة شائعة في الشام والعراق يقولونها لزعيم القوم في يوم القتال وأظن أصلها من «عقد له لواء» . وأما المقدم فرتبة كبيرة كانت في زمن المالك ثم في لبنان وهم يطلقونها على من هو دون الامير . ولعل بعض اخواننا المصريين لا تروقه لان المقدم عندهم هو رئيس الفعلة او العمال ولكن المقدم كانت ولا تزال عند العرب رتبة كبيرة . ولعل بعضهم يفضلون ترجمة الكلمة الفرنسية وهي القائد ولكن القائد لا تصلح لها فقد يكون القائد ملازماً او يوزباشياً او امير لواء . بقيت مسألة أخرى وهي الخوف من استعمال الافرنج للرتب العسكرية بلقظها العربي وكتابتها بحروف لاتينية كما يستعملون في أيامنا الكلمات الاتية وهي Ferik, Lewa, Miralai, Bimbashi, Yousbashi

كان هذه الرتب خصصت لنا نحن المشاركة . قلت لو عرفنا كيف نحفظ كرامتنا وترجمنا هذه الكلمات لما وقع ذلك . اولواتنا امتنعنا نحن انفسنا عن كتابتها بحروف لاتينية ولو ان البكباشي او الميرالاي او اللواء عند ما يكتب اسمه بالافرنجية على بطاقته يكتب General او Colonel او Major لما حصل ذلك . اولو سألني واحد ما هي رتبك في الجيش وكان كلامه معي بالانكليزية فقلت مثلاً أنا Captain فقال هذه الرتبة ليست عندكم بل عند الانجليز والفرنسيين لقلت له ماذا كانت رتبة ابراهيم باشا الكبير وماذا رأيك في قيادته لا جاب He was a great General وهل الرتب العسكرية مكاً لكم . وعندي ان احسن وسيلة لاتقاء ذلك ان يصدر البرلمان قراراً ويترجم هذه الرتب بالانجليزية والفرنسية وينشر قراره بصفة رسمية فلا تعود الجرائد الفرنسية والانكليزية تكتب اسم الفريق فلان باشا Ferik so & so ولكن General so & so والمسألة بسيطة جداً . اني لا أحب التعرض للسياسة ولن افعل ولكن لا أرى وسيلة لحفظ كرامتنا في هذا الصدد الا هذه

سِيرُ الزَّمَانِ

المستعمرات
من الناحية الاقتصادية

لواء الإسكندرية

للدكتور عبد الرحمن شهنسدر



المستعمرات

من الناحية الاقتصادية

١ - لفرنكور سافيت

في مجلة « الشؤون الخارجية »

ان بلدان اوربا الشرقية بلدان زراعية على الغالب ، فالسوق الالمانية في نظرها لها المقام الاول . ذلك ان المانيا تستورد الآن ١٤ في المائة من صادرات بولونيا ، و١٦ في المائة من صادرات تشكوسلوفاكيا و١٧ في المائة من صادرات النمسا و٣٠ في المائة من صادرات المجر و٤٩ في المائة من صادرات بلغاريا و٢٠ في المائة من صادرات رومانيا و٣٦ في المائة من صادرات يوغوسلافيا و٤٥ في المائة من صادرات اليونان و٦٤ في المائة من صادرات تركيا . فزوال السوق الالمانية يفضي الى أسوأ الآثار في حياة هذه البلدان الاقتصادية والاجتماعية . ثم ان السوق الالمانية لا تقل شأنًا عما تقدم في نظر البلدان السكندنافية . فالرخاء في اوربا لا يمكن ان يقوم الا على أساس من الرخاء في المانيا

في عصر الإقبال الذي كان يسود الامم قبيل الحرب الكبرى . لم يكن لموضوع المستعمرات والمواد الخام من الشأن ماله الآن . وهذا القول يصدق على المانيا صدقاً على غيرها . فقد بلغت اموال المانيا المثمرة في الخارج قبل الحرب ٢٤٠٠ مليون جنيه فكانت تستعمل الفوائد التي تجنيها من هذا المال في شراء المواد الخام التي تحتاج اليها حيث تشاء . وكانت الاسواق التي تباع فيها هذه المواد حرة مطلقاً من القيود . وكان من النادر ان نرى موارد المواد الخام خاضعة لاحتكار فعلي تمارسه شركات دولية ضخمة قوية . وكانت المعاهدات التجارية البعيدة الآجال تضمن حرية التجارة الدولية . وكان نقد جميع الامم الكبيرة على اساس الذهب فكان الذهب قاعدة صالحة للتبادل وكانت المهاجرة الى البلدان الجديدة ومنها مطلقاً من القيود ، وينظر اليها بعين العطف والتشجيع جميع هذه القواعد الاولية والاساسية في التجارة الدولية والمعاملة بين الامم قد زالت . فالقيود الدقيقة مفروضة على الهجرة ، والذهب قد حذف من سفر النقد في معظم البلدان ، والمعاهدات التجارية تعقد لمدى قصير ، والحوافز والحصص وما اليها تقفل التجارة الدولية وتقف سدوداً في وجه تياراتها . وعلاوة على ذلك لقد اخذ من المانيا المال الذي كل مثمراً لها في الخارج

والبلدان التي فيها موارد المواد الخام خاضعة كالنجارة لقيود دقيقة . وقد رأينا نتيجة هذه الخطة في السنوات الاخيرة . فقد نقصت تجارة العالم الى نحو ثلث ما كانت عليه وضعفت الثقة الدولية حتى كادت تزول ، وتحطم نظام الاعتماد المالي الدولي لانه قائم على الثقة

فلما ضعفت التجارة الدولية ونقص مقدارها ، عمدت البلدان الكبيرة الى استغلال موارد الثروة التي فيها ، وكثيراً ما رعى المانيا من هذه الناحية بالانطواء على نفسها ولكن الذين يرمون المانيا بذلك ينسون ان فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة الاميركية وروسيا سبقتها الى ذلك . فلا اكتشاف الذاتي (autarchy) في ميدان الاقتصاد يتم من تلقاء نفسه ، في البلدان التي تحوي على مصادر لمعظم المواد الخام التي تحتاج اليها الصناعة ، والتي تتمتع بنظام نقدي واحد يسهل التعامل والتبادل بين اجزائها . فخفض قيمة الجنيه ما كان ليسفر عن النجاح الذي أسفر عنه ، لو لم تقف بلدان الدومينيون في ذلك اثر انكلترا . وفرنسا لولا تطبيق نظام نقدي واحد عليها وعلى مستعمراتها ، لما استطاعت ان تحمي من هذه المستعمرات اكبر قدر من الفائدة

ولئلا يتم الدكتور شاخ بالقاء الكلام على عواهنه بقوله ان الامبراطورية البريطانية والامبراطورية الفرنسية سارتا في طريق الاكتفاء الذاتي (اوتاركي) اورد ارقاماً أثبت بها ان نصيب بلدان الدومينيون والمستعمرات والمحميات من صادرات بريطانيا العظمى في الاثني عشرة السنة الاخيرة زاد من ٤١ في المائة الى ٤٩ في المائة وزاد نصيب بريطانيا مما تستورده منها من ٣١ الى ٤٢ في المائة . وزاد ما تستورده فرنسا من مستعمراتها في العشر السنوات الاخيرة من ١٠ في المائة الى ٢٦ في المائة وزادت صادرات فرنسا الى مستعمراتها من ١٤ في المائة الى ٣٢ في المائة . اما الولايات المتحدة الاميركية وروسيا فالتساع مساحتهما وغنى اراضيها بالموارد الاقتصادية المختلفة يجعلانهما في غنى تقريباً عن التجارة الدولية

يقابل هذه الدول الاربع ، دول كثيرة السكان محدودة الاراضي . ولما كانت اراضيها لا تتطوي الا على موارد يسيرة للعواد التي تحتاج اليها ، فهي شديدة الاعتماد على التبادل الدولي في الحصول على معظم ما يحتاج اليه

وكان رجال السياسة اكتشفوا مؤخراً فقط ان الامبراطورية البريطانية تشمل ربع اليابسة على سطح الكرة الارضية ، وتنتج نصف محصول العالم من الصوف والمطاط ، وربع محصوله من الفحم ، وثلث محصوله من النحاس وكل محصوله تقريباً من القصدير . وقد التي بيان في مجلس اللوردات من عهد قريب ظهر منه ان الامبراطورية البريطانية ، غنية الموارد بثماني عشرة مادة من خمس وعشرين مادة لازمة للائمة الصناعية الكبيرة ، وان محصولها من مادتين آخرين لا بأس به ، وانها في حاجة الى استيراد ما تستهلكه من خمس مواد اخرى فقط

يقابل هذا ان المانيا غنية الموارد بأربع من هذه المواد فقط ، ومحصولها من مادتين أخريين لا بأس به وانها تعتمد على الاستيراد في ما تحتاج اليه من بقية المواد وهي تسع عشرة مادة . قال الخطيب في مجلس اللوردات : ولستنا نعجب والحالة هي ما هي ان في المانيا واليابان وايطاليا قلقاً . نعم ان بريطانيا من اكثر الامم تعلقاً باهداب السلام ولكن الباعث على ذلك انها تملك كل ما تحتاج اليه . ومما يستوقف النظر بوجه خاص في كلام هذا الخطيب ما بين حب السلام والسيطرة على موارد المواد الخام من صلة . وقد كان على حق عندما قال ان الامة المبتوتة الصلة بموارد المواد الضرورية مصدر من مصادر القلق في العالم

الا ان حالة المانيا تختلف عن حالة اليابان او حالة ايطاليا . فعلى الرغم من جامعة الامم ، اكتسحت اليابان منشوريا وضمت ايطاليا بلاد الحبشة اليها . وصار في الامكان ان نقول ان اليابان وايطاليا انتقلتا من صف الامم القلقة لقلّة مواردها الى صف الامم الراضية بما تملك . اما المانيا ، فهي الدولة الكبيرة الوحيدة التي لا تزال غير راضية عن حالها . ولذلك سبقى المانيا ، على الرغم من حبّها للسلام ، مصدراً من مصادر القلق العالمي ، ما زال موضوع المستعمرات وموارد المواد الخام من دون حلٍ يرضيها

ففي سنة ١٩٢٩ عند ما كانت الدول لا تزال سخية في فتح الاعتمادات المالية لالمانيا وعقد القروض ، وعند ما كان الذهب لا يزال قاعدة للمعاملات التجارية الدولية ، انفقت المانيا في استيراد ما تحتاج اليه ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ ١٦٤٦ ر١٠٠٠٠٠٠ جنيه منها ٨٨٠ مليون جنيه انفقت في استيراد مواد الغذاء والمواد الخام وبضائع غير تامة الصنع . ولكن مبلغ وارداتها هبط في سنة ١٩٣٥ الى ٣٣٦ مليون جنيه منها ٢٨٠ مليون جنيه في استيراد مواد الغذاء والمواد الخام وبضائع غير تامة الصنع . وهذا يدل على ثقل القيود التي قيد بها انتاج المانيا الصناعي . فقد انفقت المانيا في سنة ١٩٣٥ مبلغ ١٦٠ مليون جنيه على شراء المواد الخام وبضائع غير تامة الصنع ، وهو اقل جداً مما يحتاج اليه صناعها للمحافظة على مستوى معيشة شعبها . فالفجر الوردي الذي انبلج على اثر تقرير مشروع دوز عندما انهالت الاموال على المانيا من الخارج ، قد تحول الى قتام الواقع عند ما امسك المتمولون ايدهم دونها . فمن السخرية اذاً قول من يقول ان المانيا تستطيع ان تبتاع كل ما تحتاج اليه من دون ان يكون لها مستعمرات . انها لا تستطيع ذلك لانها لا تملك من المال خارج بلادها ما يكفيها لذلك وهي لا تملك هذا المال لان الدول الاخرى لا تستهلك من مصنوعاتنا الاً قدرأ يسيراً

ففي هذه الحالة ، يزول العجب الذي يستولي على الكتاب ورجال السياسة ، عند ما يقرأون ان المانيا تحاول ان تصنع المواد الخام التي تحتاج اليها في بلادها بوسائل صناعية . اننا نعلم انه اذا اصبنا النجاح في صنع بعض المواد التي نستعاض بها المواد التي كنا نستوردها ، فذلك يكلفنا كثيراً .

واذن لابد من ان الانصراف عن مبدأ الاكتفاء الذاتي لانه يفضي الى انخفاض في مستوى المعيشة في بلادنا . ولكننا لسنا نخيرين في ذلك ، مازالت الاحوال السياسية تحول دون نشاطنا الاستعماري . ولن يستتب السلام في اوربا حتى تحل هذه المشكلة ولا يعني في هذا المقام الا ان اقول ان مبدأ الاكتفاء الذاتي لا يصح ان يكون هدفاً تحدى اليه الركائب . انه مناقض لقواعد الحضارة . فالأكتفاء الذاتي يعني العزلة . والنقص في التعامل الاقتصادي يفضي الى نقص في التعامل الذهني . وكذلك تتدثر وسائل التبادل العلمي والفني والثقافي . فالحياة الاقتصادية القائمة على مبدأ الأكتفاء الذاتي تقضي الى اكتفاء ذاتي في الحياة العقلية . والعالم لا يرتقي الا بالتبادل

وهناك فريق من الكتاب والمفكرين يذهب الى ان العودة الى التبادل الاقتصادي الحر يزيد حصة المانيا منه وتصبح كذلك قادرة على شراء ما تحتاج اليه من المواد الخام . وسيلهم الى هذه العودة خفض الحواجز الجمركية والغاء نظام الحصص وتشجيع التجارة الدولية الحرة . وكل مفكر يوافق على هذا الرأي ، ولكن العبرة في التنفيذ . والحائل الاكبر دون التنفيذ ، ان قوة البلاد الاقتصادية ، اصبحت في هذا العصر العامل الاساسي في تقرير ما لها من مقام سياسي . فامتلاك موارد المواد الخام اصبحت في عهدنا مسألة سياسية ، بعد ان كان قبلاً مسألة اقتصادية

وكذلك اصبحت تغيير قاعدة النقد وسيلة تستعمل للضغط السياسي . فالتاس تظن ان منع المواد الخام او ابحاثها يفضي الى التأثير في حالة خصم او صديق على التوالي . وقد رأينا تطبيق هذا الرأي في فرض العقوبات على ايطاليا . ورأينا كذلك ان كل امة شريفة لا تخضع غشاً لذلك إذ يستحيل عليها ان تسلم بالعيش وهي رهن رحمة الدول الاخرى

ومما يقال في هذا الصدد ان المستعمرات بوجه عام ، ومستعمرات المانيا السابقة بوجه خاص لا قيمة لها من الناحية الاقتصادية . فاذا صح ذلك فلماذا تحتفظ بها الامم الاخرى ؟ ومن الخطأ ان يشير الباحث الى ان مستعمرات المانيا السابقة لم تكن ذات شأن في حياة المانيا الاقتصادية قبل الحرب ، لان التجارة الحرة كانت واسعة النطاق حينئذٍ والمانيا كانت تستطيع ان تفوز بمعظم ما تحتاج اليه من اسواق العالم المختلفة . فلم تكن في حاجة في استقلال مستعمراتها استغلاً تاماً . ومع ان مستعمرات المانيا كانت وليدة العصر الحديث ، من العقد التاسع في القرن الماضي الى مطلع الحرب الكبرى ، الا انها انجزت فيها من الاعمال والمنشآت ، اكثر مما انجز على ايدي امم اخرى خلال قرنين من الزمان في بعض مستعمراتها

٢ — للمستعمر كبلنغ

في مجلة « الكونتمبورري »

إذا صرفنا النظر عن البواعث السياسية وجدنا أن البلدان التي تطالب بمستعمرات تبني مطالبها على حاجتها إليها من الناحية الاقتصادية لأنها تجد فيها موارد للمواد الخام واسواقاً للمصنوعات ومنافذ لازدحام السكان . وهي حجة تبدو مقنعة ولكن هل تؤيدها الحقائق ؟

أما في ما يتعلق بالمواد الخام ، فكلمة المستعمرات بوجه عام تعني المناطق المباحة للاستعمار أي المناطق التي ليست دولاً ذات سيادة أو مستقلة استقلالاً ذاتياً كبلدان الدومينيون والهند في الامبراطورية البريطانية . فالمستعمرات بهذا التحديد مصدر ضئيل جداً من مصادر المواد الخام . ولعل المواد المهمة الضرورية للصناعة ، الصادرة من مستعمرات هي المطاط (وهو يكاد يكون احتكاراً استعمارياً) والقصدير . حتى إذا أضفنا إلى ما تقدم المواد التي لا تصدر المستعمرات منها أكثر من ٢٠ في المائة من محصولها العالمي لما أضفنا الألومنيوم والفوسفات والشناد يوم والشاي وجوز النارجيل . أي أن المستعمرات لا تصدر إلا أربع مواد أو خمساً ليست كلها في مقدمة ما يحتاج إليه الأمم الصناعية . وهذا القول يصدق بوجه خاص على المستعمرات الأفريقية . فما يصدر من أفريقية كلها من المواد الخام الصناعية والغذائية أقل من ٤ في المائة من محصولها العالمي . فمستعمرات ألمانيا السابقة كانت لا تصدر إلى ألمانيا إلا مقداراً يقل عن واحد في المائة عما تستورده ألمانيا من المواد الخام أما المواد الخام الأساسية في الصناعة والغذاء كالقطن والحديد والنفط والقطن والنحاس والقمح واللحم والألبان فتصدر جميعها من بلدان مستقلة ذات سيادة لا من المستعمرات . ويمكن أن يقال بوجه عام أن المصادر الرئيسية لمواد الصناعة والغذاء الأساسية هي الولايات المتحدة الأميركية واتحاد روسيا السوفيتية والامبراطورية البريطانية . فمن الخطأ القول بأن إعادة توزيع المستعمرات يسدُّ النقص في ما يحتاج إليه البلدان المطالبة بها من المواد الخام للصناعة والغذاء ولكن إذا سلمنا جدلاً بأنه يسدُّ هذا النقص فهل للسيادة السياسية فائدة اقتصادية ؟ إن الردَّ المألوف على هذا السؤال هو أن السيادة السياسية ، ذات شأن بلا شك في أثناء الحرب . ولكن المستعمرات لا تجدي نفعاً إذا كانت الدولة صاحبة السيادة لا تملك من القوة البحرية ما يمكنها من إبقاء مسالك البحار مفتوحة لسفنها . فلنتظر في أثر السيادة السياسية من الناحية الاقتصادية في أبان السلم ، فهل للدولة المستعمرة امتياز اقتصادي على سائر الدول في البلدان الخاضعة لها ؟

ليس ثمة ريب في أن هناك بعض امتيازات . وأولها قائم على الرسوم الجمركية التفضيلية التي تفرض على الصادر من المستعمرة . فهذه الرسوم تقرر في بعض البلدان التي لم تبلغ شأواً اقتصادياً بعيداً كوسيلة لزيادة إيراداتها . ولا يجوز توجيه النقد إليها من هذه الناحية . ولكن

بعض المستعمرات تفرض « ضرائب التصدير » لا بقصد زيادة إيراد البلاد ، بل بقصد تفضيل بلاد على أخرى من البلدان التي تستورد محصولاتها . وفي مقدمة البلدان التي تعتمد الى هذه الوسيلة في مستعمراتها فرنسا والبرتغال . الا أن رسوم التصدير التفضيلية في مستعمرات البرتغال معتدلة في الغالب حالة انها في المستعمرات الفرنسية عالية جداً الا اذا كانت المواد المصدرة ذاهبة الى فرنسا نفسها . اما في الامبراطورية البريطانية فليس ثمة رسوم تفضيلية الا على ركاز القصدير . فما يفرض عليه عند تصديره من ملايا او نيجيريا عال جداً الا اذا كان مرسلًا الى انكلترا او احد اجزاء الامبراطورية

ولا ريب في ان « التفضيل » على هذا المنوال غير مرغوب فيه من الناحية العالمية وخطره حيث يكون الاحتكار . ولكنه لا يعرقل قدرة اي امة من الامم على شراء ما يريد في اسواق العالم الاخرى ، اذ لا تعرف مادة واحدة ، في البلدان التي تعتمد على هذه الوسيلة محتكرة فيها احتكاراً تاماً . حتى ركاز القصدير المشار اليه لا يستخرج منه من مناجم ملايا ونيجيريا الا ٤٠ في المائة من المحصول العالمي . والباقي يستخرج من مناجم في بلدان اخرى لا تفرض رسوم التصدير التفضيلية وهناك نوع آخر من التفضيل ينجم عن شركات المنتجين الكبيرة التي تنشئ ما يشبه احتكاراً ثم تتحكم في الاسعار على نحو ما فعلت في المطاط والنحاس ، فكانت النتيجة ، ان تحكمها ورفع الاسعار افضيا الى زراعة اشجار المطاط في بلدان اخرى ، واستغلال مناجم نحاس كانت مهمة . ويظهر ان الشركات والحكومات قد افادت عبرة من حوادث الماضي فحسنت (فيما يتعلق بالقصدير والمطاط) تمثيل البلدان المستهلكة الرئيسية في المجالس الاستشارية للشركات او الحكومات . ويتظر ان يشمل هذا النظام مواد اخرى منعاً للتحكم . وعلاوة على ذلك ان الشركات التي تتحكم بالاسعار لا تفرق بين دولة واخرى تفضيلاً وتمييزاً لجميع الدول المستهلكة في نظرها سواء

الا ان ما تقدم يؤثر فقط في ما تشتريه الدول من المواد الخام الصادرة من المستعمرات . ولكن الدول المطالبة بالمستعمرات تطالب بها لانها تريد ان تستغلها . والرد الغالب على هذا الطلب ان الدول المطالبة لا تملك من رؤوس الاموال ما يكفي لهذا الاستغلال . وهذا يصدق بوجه خاص على المانيا . لان اليابان وايطاليا صدّرتا قدرًا من المال لاستغلاله . فللبابان مال مثمر في الصين ومنشوكو وجزائر الهند الشرقية الهولندية وملايا البريطانية . ولايطاليا مصالح مالية في نفط رومانيا والعراق وفي بعض بلدان اميركا الجنوبية

ولكن لنسلم جدلاً هنا ايضاً بأن البلدان المطالبة بالمستعمرات تملك قدرًا كافيًا من المال لتصديره وتمييره . فهل ثمة عقبة ما تحول دون تمييره في المستعمرات الخاضعة لدول اخرى ؟ ليس في مستعمرات بريطانيا وهولندا على الاقل ما يعث على الشكوى . ففي ملايا البريطانية مناجم حديد ومنغنيس تملكها اليابان ، ومزارع مطاط يملكها الايطاليون ، واليابانيون ، وغيرهم .

والشركات الاميركية نصيب كبير من السيطرة على مناجم المنغنيس في الشاطئ الذهبي ومناجم البوكسيت في غانة البريطانية . والمادة الوحيدة في الامبراطورية البريطانية التي يقصر استغلالها على البريطانيين هي النفط . ولكن النفط في المستعمرات الهولندية ليس محصوراً في أحد بوجه خاص . والاميركيون يسيطرون على قسط وافر من منتجات النفط في جزائر الهند الشرقية الهولندية . والامثلة على ذلك متعددة

الا ان مشكلة المواد الخام ، هي في المقام الاول مشكلة توفية الثمن ولا سيما عندما يوفى الثمن بقداً جنبي . اذ لا ريب في الفائدة التي يجني ، عندما تكون المواد الخام في منطقة تستعمل نفس النقد الذي تستعمله الامة التي تستوردها ولذلك رमित الدول المستعمرة بسيطرة غير مباشرة على المواد الخام بواسطة اقامة الحواجز الجمركية حول المستعمرات . فيمنع ذلك ابيع هذه المستعمرات لبضائع أهم أخرى ، فتعجز هذه الامة عن توفية ثمن ما تشتريه منها بثمن ما تصدره اليها . وكذلك يقع التفضيل من طريقة عرقلة أساليب التسديد

وهذه عقبة كبيرة اذا ثبت ان المستعمرات اسواق كبيرة ، وان هذا التفضيل واقع حقاً . والواقع ان سياسة الباب المفتوح في نصف مستعمرات العالم مضمونة بمعاهدات دولية أي ان المستعمرات التي تشملها هذه المعاهدات لا يسعها ان تقيم حواجز جمركية تفضل بها دولة على أخرى من دول الجامعة . ولم تستثن اليابان ولا المانيا من ذلك . وهذه المعاهدات تشمل جميع بلدان الانتداب من طبقة A و B وكل حوض الكونغو بما فيه شرق افريقية البريطاني و افريقية الاستوائية الفرنسية ، وغرب افريقية البرتوغالية والسودان وروديزيا الشمالية . اما في مراكش فسياسة الباب المفتوح كانت جزءاً من التسوية الدولية التي عقدت بعد ازمة ١٩٠٦ في مؤتمر الجزيرة . الا ان سياسة الباب المفتوح ألغيت خارج هذه المناطق . حتى هولندا وبريطانيا المشهورتين بنفورهما من سياسة الحواجز والتفضيل التجاري ، عمدتا اليها خارج المناطق التي لا تشملها معاهدات الباب المفتوح . ومع ذلك فان جميع المستعمرات في العالم لا يتبع اكثر من ١٠ في المائة من مجموع الصادرات العالمية

فمشكلة «النقد الاجنبي» الذي لا بد منه للدول المتبرمة في شرائها ما تحتاج اليه من المواد الخام ليست مسألة استعمارية ، تحل بتوزيع المستعمرات من جديد . انها مسألة تمت الى انتعاش التجارة العالمية ، اولاً ، وإلى بعض العوامل السياسية ثانياً . حتى انتعاش التجارة العالمية وحده لا يكفي ، ما زالت الصين تقاطع اليابان ، واليهود في مختلف بلدان العالم يقاطعون صادرات المانيا ، ومصانع السلاح والذخيرة تلج في الحصول على مقادير كبيرة بل استثنائية من المواد اللازمة لها . اما موضوع المستعمرات من حيث هي منافذ للسكان فله بحث آخر

لواء الاسكندرونة

للكنور عبر الرسمه شريف

خليج الاسكندرونة هو الخليج الوحيد على الساحل السوري ذو القيمة الاقتصادية والحريية البارزة ، ويبلغ طوله نحو ستين كيلومتراً وعرضه دون الاربعين وعمقه ٣٧ متراً ، والمسافة بينه من مدينة الاسكندرونة وبين مدينة جرابلس على نهر الفرات لا تتجاوز مائة ميل في حين ان المسافة بين بيروت وبين مدينة (ابو كمال) على الفرات ايضاً ترتب على ثلاثمائة وخمسين ميلاً وهذا يدلنا على ما لهذا الخليج من الشأن الاقتصادي في مستقبل الايام بالنظر الى انه يحوي الميناء الطبيعي على البحر المتوسط الايض ليس لشمال سورية فقط بل له وللقسم الشمالي من العراق ايضاً . وان نظرة واحدة على المصور الجغرافي تقع المرء بان هذا الخليج هو الملمح الطبيعي للاساطيل يحميها من عواصف البحر واخطار الغواصات ويزودها بمعظم ما تحتاج اليه

﴿لواء الاسكندرونة﴾ يتألف لواء الاسكندرونة من الاقضية الثلاثة الآتية (١) الاسكندرونة (٢) قرق خان (٣) انطاكية . ويهمني ان اوجه نظركم الى ان الكتب والاحصائيات التي وضعت قبل هذه الازمة وما فيها من اغراض في التحريف والتبديل ومخالفة الواقع نصت على ان الترك في اللواء هم اقلية . فقد جاء « في الجولة الآثرية » للاستاذ وصفي زكريا ص ٥٦ وقد طبعت سنة ١٩٣٤ ان الترك مع التركمان يؤلفون من خمسة وثلاثين الى اربعين في المائة من مجموع السكان ، وفي الاحصاء الرسمي الذي صدر في حلب سنة ١٩٣٢ كان عدد السكان في اللواء كما يأتي بالتقريب ٢٠٠٠٠ من العرب السنيين و ٥٥٠٠٠ من العرب النصيرية و ٣٥٠٠٠ من العرب المسيحيين و ٤٤٠ من اليهود و ١٣٥٥٠ من الارمن و ٢٠٠٠ من الكرد و ١٠٠٠ من الشركس و ٧٠ ، ٠٠٠ من الترك . وجاء في الملحق رقم ٣ من البيان الذي اصدرته اخيراً لجنة الدفاع عن الاسكندرونة ان مجموع عدد السكان في اللواء ٢١٩ ، ٠٨٠ منهم ٣٤٢ ، ٨٥ من الترك و ١٠٣ ، ١١٠ من العرب و ٩١١ ، ٢٤ من الارمن و ٥٨١٧ من سائر العناصر فيكون الترك بنسبة ٣٨ ، ٩٠ في المائة والعرب ٥٧ ، ٠٧ والارمن ١١ ، ٣٧ وسائر العناصر ٦٦ ، ٢

وقد طبقت السلطة الفرنسية على هذا اللواء المعاهدة التي عقدها مع الترك في اليوم العشرين

(١) نص المحاضرة التي القاها في جمعية اشباب المسلمين في القاهرة في مساء يوم ٢٣ يناير سنة ١٩٣٧

من أكتوبر — تشرين الاول — سنة ١٩٢١ وهي معاهدة انقره فكان مستقلاً في معارفه وزراعه واشغاله العامة وكان المتصرف فيه مربوطاً بمندوب المفوض السامي وكانت اللغات الرسمية فيه العربية والتركية والفرنسية . وبما هو حري بالندوين ان الدولة المنتدبة غيرت في حدوده الجغرافية وتقاسيمه السياسية بالنسبة الى منطقة حلب تغييراً يضم اليه اكبر عدد من الترك ممكن ويخرج منه اكبر عدد من العرب ومع ذلك فقد آتت النسبة المئوية كما تقدم ، وفي (الجولة الازرية) ان النصيرية يقطعون في الاسكندرونة والساحل الممتد منها الى بليدة عرسوس وفي نفس انطاكية والجبال الممتدة منها غرباً نحو ميناء السويدية ، ويقطن الارمن في جبل موسى واعضاده الممتدة حتى ساحل البحر وفي ناحية كسب وفي بليدة قرق خان ، ويقطن الشركس في قرى حران والريحانية وهم من سهل العمق ويقطن الترك وكذلك التركمان — وهم الذين نزلوا تلك الاحياء في زمن الدولتين النورية والصلاحية — في جبل اللكام واعضاده الممتدة شمال الاسكندرونة وشرقها وفي بعض سهل الصق وفي الجبل الاحمر واعضاده الممتدة الى جنوب عرسوس وكسريك ويقطن الكرد في حرة اللجة شمال السهل المذكور

ووجد ان الامية في لواء الاسكندرونة ٥١ في المائة ينماهي في لبنان ٤٢ وفي دمشق ٥٥ وفي حلب ٦٣ وربما استفادت هذه المنطقة من نهر العاصي قائدة كلية من مائه لاجل الري ومن قوته لاجل تحريك الآلات وتوليد الكهرباء . فقد وجد ان تفرغه الادنى بالقرب من انطاكية في سنة ١٩٣٢ ثلاثين متراً مكعباً في الثانية في حين لا يتجاوز هذا التفرغ في نهر بردى اكثر من اربعة امتار ، ووجد انه ينحدر انحداراً كلياً بالقرب من انطاكية قد يزود البلاد بقوة تبلغ الوف الا حصنة ، ويوجد معدن الكروم في الاسكندرونة والذهب بمقادير ضئيلة في مسيل نهر بالقرب من انطاكية ، والنحاس بمقادير قليلة وفلز المنغنيز الجيد في جبل اللكام او امانوس الشهادة بسورية هذا اللواء قبل ان تخلق قضية الاختلاف عليه بين الترك والعرب : قال نابليون ان الصخور التي تفصل الشام عن اسيا الصغرى ليس لها مثيل في الصخور الطبيعية ، وقال شيخ الربوة وهو من علماء القرون الوسطى حد الشام من ملطية الى العريش وعرضه الاعرض من فيج الى طرسوس . وعدت ياقوت الحموي من الشام الثغور وهي المصيصة وطرسوس وآذنه (اضنه) وجميع العواصم من مرعش والحدث وغير ذلك ، وقال ابن حوقل المتوفى في القرن الرابع للهجرة في كتابه (المسالك والممالك) « ان انطاكية ائز به بلد الشام بعد دمشق » وجاء في العلة البريطانية في طبعتها التاسعة « ان الاسكندرونة تقع على اقصى الساحل السوري الشمالي حيث يؤلف هذا الساحل مع ساحل اسيا الصغرى او الاناضول زاوية وهذه المدينة هي ميناء حلب وتكون بطبيعة الحال ميناء سكة حديد تمتد على نهر الفرات » . وجاء في دائرة

المعارف الاسلامية « ان الاسكندرونة او اسكندرية العرب — كما جاء في مخطوطات الاصطخري وابن حوقل — هي ميناء حلب على البحر الابيض المتوسط وانها كانت في عهد العرب تابعة لجند قنسرين — حلب (اي منطقتيها الحربية بحسب تقاسيم تلك الايام العسكرية) وانها هجرت في زمن ابي الفداء ولكنها استعادت بعد ذلك شأنها باعتبارها ميناء لمدينة حلب التي كانت آخذة في الاتعاش ». وقال استاذنا المرحوم هارثي پورتر ان سورية يحدها شمالاً اسيا الصغرى . وقال (بيدكر) ان حد الشام من طورس الى مصر . وجعل (اليزه ركلو) العالم الفرنسي الجغرافي المشهور حد الشام من جبال اللكام الى طورسينا . وقال (فينال غينه) ان الفرمانات السلطانية والوثائق الرسمية على عهد الدولة العثمانية كانت تسمى البلاد التي تحدها جبال طورس شمالاً وصحراء سيناء جنوباً « عربستان » او بلاد العرب . وجاء في بيان لجنة الدفاع عن الاسكندرونة ان صديقنا العلامة المرحوم الاستاذ هو جارت عميد جامعة اكسفورد قال « اذا اخذنا سورية كقطر يحده البحر وصحراء الحماة وجبال طورس وصحراء سيناء تكون لدينا منبسط جغرافي مناسب بحدود طبيعية صريحة وهي وحدة في مظهرها الخارجي وان مكانة الاسكندرونة ناشئة عن علاقتها مع بحر ييلان ، وهو باب سورية في عهد التواريخ — الذي هو عبارة عن مدخل هين الى سهول سورية الشمالية التي كانت انطاكية وحلب عاصمة لها منذ القدم وكذلك فان الاسكندرونة هي المرفأ المهم لسورية الشمالية وان الخصائص الجغرافية التي تتمتع بها انطاكية تجعل منها عاصمة سورية فاليها يتجه الطريقتان المباشران من البحر الابيض المتوسط الى الداخل الخ »

﴿ الشعوب السامية ولواء الاسكندرونة ﴾ ذكر المؤرخان اليونانيان (هيرودتس) و (زينوفون) ان (ميرياندروس) وهي مدينة كانت قريبة من الاسكندرونة كان يقطنها فريق من الفينيقيين ابناء عم العرب ، وجاء في كتاب « سجل التاريخ » للاستاذ (كوك) ان السلالة السامية — وهي تشمل الارمن والبالين والاشوريين والعرب والفينيقيين والعبرانيين والموآبيين تسكن المنطقة التي تحدها فيما يحدها من الشمال جبال طورس . وفي بيان لجنة الدفاع عن الاسكندرونة ان مباحث علم اصل البشر التي قامت بها مخبر الجامعة الاميركية في بيروت والتي اجريت في امستردام واكسفورد دللت على ان سكان الجبال في مناطق الاسكندرونة وانطاكية لا يختلفون في شيء عن سكان جبال سورية ولبنان وبلاد العرب الجنوبية ، ولدينا نص تاريخي على ان الملكة زنوبيا التدمرية (الزباء) دخلت انطاكية فاتحة في سنة ٢٦٦ للمسيح وان صورتها نقشت على سكة هذه المدينة ولدينا نصوص اخرى على اتصال العرب بتلك الاحياء منذ القدم . فقد جاء في التاريخ ان عربان البادية هاجموا ضاحية انطاكية في سنة ٤٩٤ للمسيح ، وفي مدينة (الرها) في الشمال كان بيت

(الاعبر) يسيطر على القبائل العربية في شمال سورية، وبعد ما فتح ابو عبيدة حمص بعث خالد بن الوليد الى قنسرين فلما نزل بالحاضر زحف عليه الروم بقيادة ميناس اعظم رجالهم بعد هرقل فالتقى الجيوشان في الحاضر فقتل ميناس ومن معه قاما الروم فقاتوا على دمه حتى لم يبق منهم احد. واما اهل الحاضر فارسلوا الى خالد انهم «عرب» وانهم انما حشروا ولم يكن من رايهم حربه فقبل منهم وتركهم

ومما هو حري بالتدوين ويدل على نوع الشعوب التي كانت تقطن تلك الاتجاه وانها سلالات سامية ان ابا عبيدة ابن الجراح لما وصل الى جبل اللكام (امنوس) وهو الجبل الذي يبتدىء من البحر في منطقة الاسكندرونة صالح سكانه (الجراجمة) وهم اصل الموارنة في لبنان—وكانوا يومئذ بين نياس وبوقا—على ان يكونوا اعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام—والمسالح جمع مسلحة وهي الحامية المسلحة

ومن النصوص الدالة على ارتباط هذه المنطقة بسورية ارتباطاً وثيقاً خاصاً ان السلوقيين كانوا يسمون انطاكية (انطاكية سورية) ليفرقوا بينها وبين المدن اليونانية الاخرى التي تشاطرها هذا الاسم، ودُعي عمر (ميلان) او عمر (ايسوس) في الوثائق التاريخية (باب سورية)

ولهذه المنطقة شأن عظيم في تاريخ النصرانية فقد دخل هذا الدين انطاكية في سنة ٢٣ للميلاد ومن هذه المدينة انتشر التبشير به في الانحاء وفيها نشأت الخلافات الدينية المذهبية. وفي العهد الروماني ظهر فيها رجل من رجال النصرانية كان له شأن كبير وهو يوحنا فم الذهب الذي اشتهر بصلاحه وطلاقة لسانه ومواعظه التي كان يلقيها على اهل انطاكية الى ان نفى ومات في طريقه الى المنفى، وكانت انطاكية في سالف العصور مقراً لجميع البطاركة وهي لا تزال الى الآن مقراً لبطارك الشرقيين ويطلق عليهم اسم بطارق انطاكية وسائر المشرق والنصرانية هي ابنة سورية والنصارى فيها من صميم السوريين

«الوجهة الاقتصادية» تجلب الوحدة الاقتصادية بين هذا اللواء وحلب بان عاصمة الحمدانيين هي السوق الطبيعية لمنتجات هذا اللواء من خضر واثمار وحرير وفحم نباتي واسماك، وقرى هذا اللواء وما لها من مناظر خلابة ومياه عذبة وهواء نقي هي المصطاف الطبيعي للحلبيين، والقسم الاعظم من التجارة الخارجية التي تمر بالاسكندرونة هي اما ان تكون واردة من حلب او صادرة اليها. ودلت الاحصائيات بين عامي ١٩٢٢ و ١٩٣٣ على ان ٢١ في المائة من مجموع ما دخل مرافئ سورية الاربعة — وهي بيروت وطرابلس واللاذقية والاسكندرونة — من صادرات وواردات (وبضائع النقل «ترازيت» داخلة في ذلك) هو من اسكلة الاسكندرونة

﴿النصيرية﴾ هي طائفة العلويين المنتشرة في هذا اللواء وفي الجهات المجاورة له وتسمى النصيرية نسبةً لنصير غلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وقد انتشر في الكتب التي كتبت عنهم قديماً أنهم يؤطون علي بن أبي طالب ويعتقدون أن مسكنه السجاب حتى إذا مرت بهم سجدوا قائلوا السلام عليك يا أبا الحسن. ويقولون إن الرعد صوته والبرق ضحكته ، وإن سلمان الفارسي رسوله ويحيون ابن ملجم قاتله ويقولون أنه خاص اللاهوت من الناسوت . وفي بعض الكتب أن كلمة «عمس» المختلة من علي ومحمد وسلمان هي كلمة المرور بينهم ، وهم يخفون عقائدهم عن غيرهم ويعظمون الحجر ويرون أنها من الثور. لاجرم أنهم يعظمون شجرة الغب ويتجنبون قطعها ، ولكن جاء في المجلد السادس من خطط الشام للاستاذ كرد علي أن صاحب « تاريخ العلويين » قال أنهم ليس لهم ديانة خاصة بل هم مسلمون شيعيون جعفريون يعتقدون أن الأئمة الاثني عشر معصومون من الخطأ وأن قول الامام دلالة قطعية وهو لا يمكنه أن يخالف القرآن أو الحديث ولا يحق لأحد أن يؤول القرآن سوى أهل البيت ، وهم ينسبون إلى طريقة تدعى الجبلانية وهذه الطريقة هي التي أدت إلى افتراقهم عن بقية الاثني عشرية . وهم فيما بينهم قد تفرقوا إلى عشائر وأخذوا ترجع كلها إلى أربعة أصول كبيرة هي الخياطون والحدادون والكلبية والناورة وقد اختلف غير واحد من رجال الدين المتأخرين بصحة اسلامهم استناداً إلى ما جاء في الحديث « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا فهو منا » وإلى آيات واحاديث أخرى وفتاوى وردت في كتب الفقهاء المتقدمين

﴿الاسكندرونة﴾ وتقع الاسكندرونة على الطرف الشرقي من الساحل الجنوبي وعلى القرب منها وإلى الشمال تقع (بياس) حيث تتبدى الحدود بين تركيا وسورية ، وقدر لي أن زرت الاسكندرونة في سنة ١٩١٢ لما كنت ذاهباً في الجيش العثماني إلى حرب البلقان فألفيتها مدينة ذات مناظر خلابة تحيط بها روابٍ زهردية من جبال الاسكام وهي واقعة في منبسط من الأرض ويبلغ عدد سكانها في الاحصاء الحديث زهاء خمسة عشر ألفاً فيهم العرب والترك والارمن ، وهؤلاء لجأوا إليها بعد الاضطهادات التي ذاقوها في بلاد الترك ، والعرب سنيون وعلويون ومسيحيون من الروم الارثوذكس غالباً . وذكر الذين زاروها في الآونة الاخيرة أن مبانها مثل سائر مباني المدن الشرقية الناهضة المصطدمة بالمدينة الحديثة منها القديم المرفع والبتداعي والأكواخ التي يقطعها الفلاحون في الجهة الغربية . ومنها الجديد الذي لا يختلف عن مباني بيروت لا بحجره ولا بالأجر الأحمر — القرميد — الذي يكسو سطوحه . وكذلك الحال في طرقاتها وشوارعها فمنها الضيق المروج ومنها المستقيم المعبد العريض ولها مرفأ صغير في جهتها الشرقية وبالقرب منه المكس والمعامل والمستودعات التي بنتها شركتا النفط وعرق السوس

ولما زرتها لم يكن قد تمَّ بعد فرع سكة الحديد الذي ربطها بحلب وهو فرع يمتد منها الى قلعة عجبية على رأس هضبة تدعى (طوبراق قلعة)

أطلنا على المدينة من ممر (بيلان) او ممر ايسوس وهو الذي دعاه الاقدمون (باب سورية) ومشيئنا في طريق منحدره فوجدنا المستنقعات تحيط بهذه المدينة وهذا سر وباء الملاريا او البرداء التي تقتك بأهلها في أيام الفيض والحريف ، ويبلغ الحر فيها مع الرطوبة في الصيف درجة الاشباع لوقوف جبل اللكام سداً من ورائها حتى اذا اصطدم هواء البحر بهذه الجبال تجمعت فيه الابخرة وتكثفت بحيث تحجب قرص الشمس واذا ذكر أنني أكلت فيها سمكاً من المرجان مقلوّاً لم أستطع شمكاً مثله وقد اشتريته من طاهر يحمل مقالاته ويبيعه في الشوارع

بنا هذه المدينة (انتيغون) أحد خلفاء الاسكندر في سنة ٣٣٣ قبل المسيح تخليداً للنصر العظيم الذي أحرزه هذا الملك الحيار على دارا ملك الفرس في معركة (ايموس) ، ولما فتحها المسلمون في زمن ابي عبيدة بن الجراح وجدوها خراباً يباباً فلم يرد لها ذكر في فتوحاتهم لكنها استعادت سؤددها بالتدريج حتى ان السيدة زبيدة زوج هرون الرشيد بنت فيها حصناً او صرحاً ربما كان نفس الصرح الذي رُممه ووسعه احمد بن ابي داود الايادي في زمن الخليفة الواثق وظلّت هذه المدينة ممراً للغزاة من المسلمين والروم الى ان استولى عليها الصليبيون فعادت الى الخراب وأصبحت ملجأ للصوف من البر والبحر الى ان طلب التجار الافرنج المقيمون في حلب من الدولة العثمانية في القرن العاشر للهجرة ان تجعلها فرضة حلب فأجابتهم الى طلبهم ، وكان لها شأن قبل فتح قنال السويس لان الانكليز اتخذوها اقرب محطة للهند بطريق البحر المتوسط وقد تسعّد هذا الشأن اذا كثرت وتنوعت الطرق التي توصلها بالداخل وفي سنة ١٢٤٨ جاءها ابراهيم باشا المصري بجيوشه وأنشأ فيها مصنعاً للسفن يأتيه بالأخشاب اللازمة له من جبل اللكام. وفي سنة ١٢٩٥ جعلتها الدولة العثمانية قضاء تابعا لولاية حلب

﴿انطاكيا﴾ : شادها سلوقوس نيكاتور احد خلفاء الاسكندر الثلاثة في سنة ثلاثمائة قبل المسيح ودعاها باسم والده . ثم استولى عليها الرومانيون فابتدأ حكمهم فيها في سنة ٦٤ ق . م . وترجع على كرسي الولاية فيها اكابرهم « الجولة الاثرية ص ٥٢ » امثال بومبيوس ويوليوس قيصر وانطونيوس : جاء هذا اليها في سنة ٣٨ ق . م . ومعه زوجته كليوباترة ، وفي التاريخ ان جوليا دومنا السيدة السورية الحمصية زوجة الامبراطور سيبتيموس سيفروس كان لها فضل عظيم على

مدينة انطاكية حين اجبرت انها كرا كلا المولود في حمص على ان يرد الى هذه المدينة ما سلبه والده الامبراطور عنها من الامتيازات . وفي اواخر القرن الرابع للمسيح دخلت انطاكية في قبضة البيزنطيين . وفي سنة ٦٣٨ فتحها المسلمون على يد ابي عبيدة بن الجراح ، وفي كتاب « الاعلام » للاستاذ خير الدين الزركلي « ان حبيباً الفهري وهو ابو عبد الرحمن حبيب بن مسعدة بن مالك الفهري القرشي دخل دمشق مع ابي عبيدة فولاه ابو عبيدة انطاكية وقد توفي سنة ٤٢ هـ » . ورأت انطاكية الرخاء وتقدمت تقدماً كبيراً في زمن الامويين وفي اواخر القرن الخامس للهجرة فتحها الصليبيون . ولكن في سنة ٦٦٦ هـ افتتحها غنوة الملك الظاهر بيبرس بعد معركة من اشد المعارك هولاً على السكان ، ثم جاء الفتح العثماني فبقيت في قبضة العثمانيين الى اواخر الحرب العالمية ، ومن الميم ان يذكر القراء ان الاهلين فيها وفي سائر انحاء اللواء استقبلوا الجيش العربي استقبال الفاح المنقذ وايدوه في اعماله . وانطاكية مذكورة في التاريخ دائماً بالزلازل التي كانت تنبأها كالزلزلة العظيمة التي اصابتها سنة ١٨٢٢ . وكان عدد سكانها في زمن ثيودوسيوس مائتي الف ولكنهم كانوا في سنة ١٨٣٥ خمسة آلاف وستمائة يضاف اليهم ستة آلاف جندي مصري بقيادة ابراهيم باشا ويبلغ عددهم اليوم خمسة وثلاثين الفا . وقد جلب الى هذه المدينة ماء (دفنة) في انايب حديدية وانيرت بالكهرباء وفيها اربعة وعشرون مسجداً واربع كنائس وكنيس واحد لليهود . وصادراتها الصابون وفيالج الحرير والصوف والحبوب وزيت الزيتون والسك والقطن والقطران . وفيها صناعات متنوعة للغزل والدباغة والنسيج والخشب وفاكهتها من اجود فاكهة . وذكر لي صديق من اهلها ان اربع خوخت — دراقات — من خوختا زن افة كاملة ، وهذه المحصولات لا تباع في اسواق حلب فقط بل ان فاكهة انطاكية تراحم فاكهة الشام في اسواق بيروت ايضاً . واذا صحت الاخبار التي تناقلها البرق اخيراً وأفاضت في ذكرها الصحف من ان في هذا اللواء ينابيع للنفط بالقرب من الاسكندرونة متصلة في جوف الارض بينابيع الموصل فسيكون لهذه الينابيع شأن خطير في مصير هذا الجزء من بلادنا العزيزة

لقد آمنت بالحق قبل ان أومن بالوطن ولو لم اعلم ان هذا اللواء جزء من سورية العربية لا يتجزأ ما تنزلت للوقوف هنا أرهق أسماعكم الحساسة وأضع أوقاتكم الثمينة بالدفاع عنه فالحق أولاً ، والوطن ثانياً ، ومن لا يؤمن بالحق لا يؤمن بالوطن

حَدِيثُ نَقَّةِ الْمُقْتَطِفِ

يونانين

أمير شعراء روسيا

الحليم ميري

أوجين أونيل

من مسرحياته « فصل معترض »

لفؤاد عينتابي





قبر صادر

صاحب الرسالة النفيسة في «الحضارة الحثية» التي نشرنا خاتمتها في هذا الجزء



پوشكين

« أمير شعراء روسيا »

لمحليم مري

عصر الشاعر

غزا نابليون روسيا عام ١٨١٢ واعتبر المؤرخون غزوتها كبر ظاهرة في تاريخ روسيا الحديث الى ان وقع الانقلاب الشيوعي . ولقد أثار توغل الجيش الفرنسي في روسيا الشعور القومي بل كان سبباً مباشراً للثورة النفسية الفكرية بل لتلك الزوبعة السياسية الخطيرة التي غامت فيها سحائب الخصومة واتقدت في نفس الشعب السلافي المجيد الحمية الوطنية . فاشترك الفرد والجماعة في غاية واحدة نبيلة هي دفع المعتدي للاحتفاظ باستقلال الوطن . ولقد أتيح لقادة الجيش كما أتيح لقادة الجماهير ان يضطروا المعاهل العظيم « نابليون » الى الارتداد عن روسيا بعدما عانت جيوشه شقى المصاعب وبعد ان احتمل الجندي الفرنسي ألم الجوع في شتاء قارس البرد شديد الزوابع الثلجية . أما « موسكو » فقد أحرقها أهلها وأما نابليون فقد رجع الى باريس لا يلوي على شيء . . .

ولقد كان الشباب في روسيا يتطلع الى « باريس » حيث انبثق فجر الفلسفة الحديثة والافكار الاجتماعية الجديدة . ولقد كان الشباب يميل بحكم مظهره آنذ الى تلك الارستوقراطية المحافظة بل الى تلك المظاهر الخاصة بالبلاط الروسي استطاع الأدب ان يكون مظهراً عظيماً من مظاهر الحياة الاجتماعية بل كان الأدب خصباً منتجاً ووديعاً مقدسة بين أيدي الشباب . ولقد نشأت في هذا العصر تلك الخصومة الخالدة بين المحافظين على آداب القرون الوسطى وزعمائها المختلفة وبين اصحاب الجديد ممن يرون الحياة كما هي لا يعيشون على الماضي ولا يتخذون من القديم معبوداً . ولعل الشاعر « جريوميروف » يتحدث في شيء من السخرية في قصته الرائعة التي عنوانها « الهم من الذكاء » « Woe from Wit » عن هذه الخصومة الادبية

ولقد تألفت جماعة من شباب روسيا وبعضهم من الحرس القيصري ينادون بحرية الفلاح والدستور . على أنه لم يمضِ ديسمبر سنة ١٨٢٥ حتى شنق منهم خمسة من بينهم الشاعر المعروف «ريليف» وعرفوا بالديسمبريين فكان ذلك صدمة قوية هزت الأدب واصابته في الصميم سدّها الى الديمقراطية القيصر « نيقولا الاول »

كان الأدب في اوربا إبان تلك الثورة الاجتماعية في روسيا بالغاً شأواً عظيماً بل كان نبراساً يضيء ظلمات ذلك العهد الذي تمثل فيه الطغيان بصورة من هذه الصور « الاقطاعية » البالية . وطبيعي ان تنتقل الفلسفة في شتى مناحيها والأدب في مختلف صورته الى روسيا حيث هذا الروح الأدبي الناشئ في ساحة الجهاد . وهناك نشطت الدعاية للتفكير الحديث وللاخذ بأسباب الرقي العقلي . وبلغ الشعر في هذا العهد مكانة رفيعة بل قد بلغ كماله المرموق في أمير شعراء روسيا الشاعر العبقري «الكسندر سيرجفتش پوشكين» الموصوف بالمتنبئ

وُلد «پوشكين» في موسكو في ٧ يونيو وفي رواية أخرى في ٢٥ مايو سنة ١٧٩٩ وكان أبوه نبيلاً وأمه تمت الى ابراهيم هاننيل الزنجي الأفريقي الذي قرّبه بطرس الأكبر فورث منه شعره الجعد ومزاجه الحاد . تلقى علومه في مدرسة تساركو سيلو على مقربة من بطرسبرج وكان يكثر من الاطلاع في مكتبة أبيه الزاخرة بالمؤلفات الفرنسية . كان يجيد عدة لغات يطلع على آثارها ويكلف بما احتوتها من آثار علمية وأدبية . وعرف عن اخلاقه الاستهتار والسخرية والاسراف . ولقد حوى شعره كثيراً من هذه السخرية التي تتميز بها طبيعة بعض الشعراء

نشرت قصائده الاولى عند ما بلغ الخامسة عشرة من عمره . وفي عام ١٨٢٠ نشرت قصته الشعرية البليغة « رسلان ولودميلا » وفي السنة نفسها عين في منصب في «يسرايا» بمجنوب روسيا انقاداً له من النفي الى سيبيريا وكان الباعث على نفيه قصيدة في « الحرية » اذاعها مخطوطة . ولقد أتيح له وهو في القوقاز ان يستوحى روعة تلك البلاد . فكتب « سجين القوقاز » وهي قصة شعرية تصف غرام فتاة شركسية بضابط روسي . وفي عام ١٨٢٤ عاد الى قرية أبيه في « بوسكوف » بعد ان نظم قصيدة رائعة في البحر عند مغادرته اودسا . وهناك قضى سنتين كتب فيهما ادعى مخلفاته الادبية للخلود ومن بينها ذكريات حياته التي اودعها الشعر كما كتب قصته الطريفة « أوجين

أوينجين» وانك تلمس في بداءة هذه القصة الروح الشعري الذي تأثره پوشكين كما تستطيع ان تلمس في يسر وسهولة «روح» الشاعر الانجليزي بيرون. ولقد كان «بيرون» نموذجاً رفيعاً تمثله الشاعر في مناحي شعره بل كان الصخرة البارزة التي قام عليها نبوغ الشاعر «پوشكين». لم يتأثر پوشكين في بيرون بزعمه الرومانطيقية بل كانت «الواقعية» هدفه الأسمى. ولعلك واجد أثر هذا في «كونت نولين» بل في «أوجين أوينجين» فهي وحي روسيا في نفس الشاعر وما استطاع ان يعثر عليه فيها من مثل صادقة هي الحياة الواقعة نفسها. بل انها لتشبه في كثير تلك الحياة التي كان الشاعر نفسه يحياها والتي يصور فيها الاجتماع الروسي بأجلى بيان. ولقد كتب مأساته الكبيرة «بوريس جودينوف» عام ١٨٢٥ وبعدها بعام واحد انعم عليه القيصر بالعمو العام. وعين مؤرخاً للقصر عقب ان تزوج «تاليا جونشاروفا» عام ١٨٣١. ولقد كتب يومئذ تاريخاً لثورة «پوكاشيف». كما كتب قصة «ملكة البستوني» عام ١٨٣٣ وقد نشرنا ملخصها في مقتطف فبراير الماضي. وكذلك كتب «ابنة القبطان» عام ١٨٣٦. ثم بارز «هيكين داتيس» في ٢٧ فبراير سنة ١٨٣٧ وكان هذا الرجل عديله ولكنهُ أثار غيرة پوشكين بما وجههُ الى زوجته من العناية. إلا أن دائرة المعارف البريطانية تذكر ان بواعث هذه الغيرة كان لها ما يؤيدها. وأسفرت المباراة عن جرح پوشكين جرحاً بالغاً قتل في بعد يومين متأثراً به.

الشاعر

كان پوشكين محباً للجماعة لا ينقطع عن المجالس الأدبية يكلف كلفاً شديداً بالمرأة وقصص حب قبل زواجه اشبه ما تكون بالاساطير الآن. والمرأة ما برحت صورة من صور تفكيره وخياله لا يبرح مخيلة الشاعر. بل هي ما برحت مصدراً من مصادر الوحي الفني الذي لا ينضب له معين.

جهد پوشكين في ان يجعل شعره مثلاً رفيعاً لطبيعة التأليف بين الحقائق. كان رجلاً بعيد النظر تتصل شاعريته بهذه المعاني العميقة التي يوحى بها الأدب ولا عجب فقد قال عنه «جوجل» «ان پوشكين لظاهرة غريبة بل انه تلك الظاهرة الفريدة للروح الروسي». وقال عنه دوستويفسكي «ان النبوة تتمثل في شاعريته». وحققا لقد

عرف ان ينفذ الى الوجدان الانساني . وان كان قد استلهم الفن الاوروبي الشعري الا ان طابعه الروسي لم يفارق خواطره التي تتصل بقلبه الكبير . كل شيء في حياة الشاعر له منجاه الشعري ولعل الشاعر نفسه وحدة تلك القصيدة الكبيرة . قصيدة الكون والحياة . وشعر پوشكين نسيجه العاطفة الانسانية بل العاطفة الالهية والخيال والذوق . ان بطرس الاكبر قد اضطلع بمجهود مضيئة في سبيل الاصلاح الاجتماعي واما پوشكين فقد وصل الينا في هذا الجليل لتقرير الوجدان واثبات الروح الانساني . وان قصائده لمصباح قوي ينير ظلمات النفس ويحمل للحياة الاجتماعية والعقلية رسالة الفكر الموهوب واذن پوشكين نبي مكرم . . . »

استمد پوشكين شاعريته من معينين . الأول اقطاب الأدب الاوروبي لا سيما الكتّاب الفرنسيين الذين هيمنوا على الحياة العقلية في القرن الثامن عشر . والثاني الثقافة الانجليزية التي قامت على « بيرون » « وشاكسبير » « وسكوت » . واما وحي « شاكسبير » فأنت تستطيع ان تجده في قصة « بوريس جودينوف » تلك الدرة الثمينة في الشعر المرسل . ولعل ما فيها يشبه من وجوه كثيرة قصة شاكسبير « الاوقات العسيرة » . ففي « بوريس جودينوف » تحس تهديد ديمتريوس لموسكو وعلى رأسها بوريس المظنون انه قاتل « تسارنتش » . ولقد عالج پوشكين تلك القصة لنطابق تاريخ « كارامزين » وهي تبين مدى العذاب النفسي الذي يثقل حياة المغتصب الظالم وخطر يوم الدينونة الذي يقترب منه . أما قصته « العجر » « The Gipsies » فيتمثل في بطلها اليكو « Aleko » جماع النظرة الاجتماعية في النفوس الانسانية المسكينة التي يضمها الشعب الروسي . وان هؤلاء الفقراء الذين ينتقلون من بلد ليرتحلوا الى آخر نشأوا أحراراً لا يتقيدون بهذه القيود المدنية ولا يعرفون شيئاً عن اوضاع الحياة التي تفرض على المجموع . انهم بعيدون عن كل تهذيب أو تعليم الا تلك الثقافة البدائية التي يتوارثونها . وهذا پوشكين بلسان « اليكو » ينادي الكبرياء ليسخر منها فيقول ألا فلتشيجي وجهك عنا ايها المتطرسة . فقد خلقنا ابطالا لا نخفل بقانون . وانما لا نبتغي ان نمذب أو نعاقب انساناً . ولعل المعنى المقصود انهم كالنهر السيل يصادف السهل الدھاس فيجري ويجيء على المكان الصخري ليرطم به وانهم اصحاب دماثة خلق وعزة نفس لا ينزعون الى مهانة

أو يقبلون ضيماً . ولقد رعى « بوشكين » طبقة الاشراف بهذا التنديد الذي نطق به « اليكو » ويقول بوشكين عنهم « ما أسخف هذه النفوس التي تخرج الى هذا الوجود لتقضي بضعة اعوام فتضيع نصفها في تقدير منازلهم من نفوس الغير . انها لحسة الرياء . » وليس « اليكو » الا فتى ترك حياة المدن ونزح الى طائفة من هؤلاء « العجبر » فكان ضيف الشؤم عليهم — وهو على حد تعبير « دوستويفسكي » ممن تزيد بهم الحاجة واختتمت حياتهم بالاخفاق واستوعبهم الادب الروسي الحديث

كان بوشكين من دعاة الاشتراكية وهذه خواطره تنساب فيها صوفيته الانسانية وعطفه الكريم بل تلك هي هوايته الخالدة التي تنادي بتحقيق « النفسية الروسية » التي تضمن للفرد حريته وامتعه امام ما يمكنه ان يأتيه من خير للجماعة . والنفسية الروسية قائمة على التجديد في أساليب الاجتماع حتى تمهد الحياة للانسان فرصة من السعادة المنشودة . هي تسعى جهدها نحو الحرية في اقصى حدودها واعمق معانيها . لا يجب ان يحتمل الشعب « الكبرياء المزيفة » التي يتصف بها رجال الدين أو اصحاب السلطة انما يجب ان يأخذ بلباب الدين وهو التسامح والتقوى وان يعمل الحكام لخير الشعوب . ولقد كان بوشكين قطباً من اقطاب الشعر الغنائي وقد اعترف ملحق التمس الأدبي ان ترجمته متعذرة لان الوحدة بين معانيه وشعوره وأسلوبه لا تنقسم الا ويضيع سرُّ الجو الذي تخلقه نيرانه المتناسقة

وهاك مقطوعته الصغيرة « احبتك » ففيها يقول

« انني أغرمت بك وهاك اعترافي القيه بين يديك الآن . ان ذكريات حبك لما تزل تلهيني ولست احب ان تنتهي بك الى شيء من الألم . فأنا لن أرجو لك مفاجأة أخرى . لقد انطفأ سراج املي وعقد لساني ولكن قلبي يفيض بهذا الحب الذي تعز به نفسي . فيه استوى رأي الحسود والطيب . انني لاستمد حبك من فيض القلب فياحبدا لو تسعين بعاطفة كعاطفتي »

ولقد اكبر العالم شاعرية بوشكين لما فيها من روعة وروح . انها عيون ثرة للقلوب المتعطشة للجمال والحق ، بل هي انجيل الرحمة . وان خواطره لتصدر عن قلبه الغني الى المجتمع الروسي كالورد النضير يجلو الندى في بهجة الصباح او كالنرجس الغض اذ يبكي في ظلال المساء

فصل معترض

Strange Interlude

« اما الانسان ضعيف بائس ، وألعوبة
في ايدي القدر ، ولكنه يشقى ويتألم بمهابة
وجلل ! »
سدني دارك

يقول « تشارلز لام » : « الملهى الذ تسليه » ، ولا بأس ان يضحك الانسان ويسر ويمتع نفسه بمسرات الحياة ولهوها ، على أن يكون في ذلك معتدلاً حكماً . ويرى « برنارد شو » أن الملهى يجب ان يكون « معملاً للتفكير وحائناً ومنبهاً للوجدان ، ومظهراً للسلوك الاجتماعى ودرعاً واقية من البلاءه واليأس ، ومعبدأ لارتقاء الانسان » ويقول في موضع آخر : « إن الملهى مكان لا يرتاده الانسان إلا لينسى نفسه ، حيث يكون قد جذب اهتمامه وأثيرت عواطفه الى أقصى درجات الاستعداد والنشاط ، وتلاشى وعيه »

ولقد كانت المسرحيات عند قدماء الاغريق من اسمى انواع الادب وفنونه ، تعنى بالمسائل الاساسية الهامة التى تشغل حياة الانسان ، فكانت صوراً لفلسفتهم ومظهرأ لأرائهم في الحياة ، وهى التراث الخالد الذى أبقوه اثرأ حياً في الادب العالمى ، كمسرحيات صوفلس واسكيلس ويوريبيديس . وما تبقى منه ليس الا جزءاً ضئيلاً من تفكير ذلك الشعب العريق واثراً نفيساً من عبقرية التى بقيت على مر العصور ، فكانت أساساً لمدينة اوربا وثقافتها العقلية

ولعل أروع مظهر من مظاهر الدراما الحديثة ان المؤلفين المسرحيين يعملون ما في استطاعتهم للتعبير عن خفايا النفس الانسانية ومرايمها ، واظهار الافكار على ملامح الوجه قبل النطق بها . وهم يسعون بواسطة « الملهى » — المسرح — ليس للتعبير عن حقائق الحياة الظاهرية فحسب ، بل وليبان المشاعر والافكار الخفية التى هي العامل القوي في حياتنا

العملية . وهم يبنون بذلك النفوذ الى ما وراء هذه الحياة العادية التي نحيها للوصول الى اعماق النفس الانسانية والارتشاف من مصادر الفكر الصافي والينابيع المجهولة المتدفقة نوراً وفكراً سامياً . وبعد فهذه رسالة « اونيل » التي يعمل من اجلها — بواسطة شخصيات مسرحياته — لاطهار العالمين المختلفين اللذين يحيا بهما الانسان — العالم الظاهر ، عالم الحقيقة والواقع ، و — العالم الخفي — الذي يتستر وراءه الانسان ، عالم الاحلام والافكار المنبعثة كما يبدو ذلك في مسرحيته Strange Interlude فكيف اذن حاز « اونيل » هذه الشهرة العالمية وامتاز على اقرانه وزملائه بمسرحياته الرائعة ؟

ألم يكن — كما قال (كلود برتون) : — « فريداً ممتازاً بقصصه حين رسم لمعاصريه صوراً حقيقية متنوعة لحياة الشعب الاميركي ، وصفحات ملونة من آماله وامانيه ، واذواقه وعاداته ، وآلامه وشقائه ، مما لم يتسن لمؤلف مسرحي قبله عرض هذه الصور المختلفة على المسرح بقوة وصدق وجاذبية ؟ ! »

نصل الآن الى نقطة هامة في تطور شخصية اونيل الادبية ، بعد تنقله بين المذاهب الفنية المختلفة ، فاذا بنا عند مسرحيته الفريدة (فصل معترض) Strange Interlude . وهي قصة « امرأة واربعة رجال » وتطورها في نواحي الحياة المتقلبة ، وهي مسرحية طويلة ذات تسعة فصول ويستغرق تمثيلها خمس ساعات . جرت وقائعها في اميركا وتمتد خمساً وعشرين سنة . وتظهر هذه المسرحية مُعَبَّرَةً بالاحاديث النفسية الداخلية لكل شخص من اشخاص القصة على حدة ، وذلك بعد ان يقول كل شخص دوره في القصة بصوت عال ، يلتفت جانباً ويقول وكأنه يناجي نفسه ما يدور في نفسه . ومن ميزاتها انها تزخر بالقوة والحياة ، فشعر بها كاتبها امام امر واقع . فهي تؤثر في المشاهدين والمستمعين تأثيراً قوياً ، حتى يشعر هؤلاء حين انتهائها انهم امام قصة حقيقية تمثل وتجري وقائعها في الحياة وليس على المسرح تحلل لنا هذه المسرحية ، وهي مأساة متشابكة الحلقات ، نفسية امرأة معذبة بائسة . فهي قصة حياتها وحبها ومغامراتها . وخلاصتها : ان (نينا) Nina وهي ابنة

أستاذ من (نيو اكند) في اميركا، خُطِبَت الى طيار اميركي اسمه (غوردون) Gordon قُتيل في الحرب الكبرى. وكان قد نصحه ابوها ان لا يتزوج من (نينا) قبل عودته سالماً من ساحة الحرب، خوفاً على ابنته ان تبقى ارملة فيما اذا لم يعد زوجها. وكذلك ذهب (غوردون) وحارب في فرنسا، ولكنه لم يعد كالوف مثله، فحنقت الفتاة على ابها حنقاً عظيماً، لانه مانع من زواجها بمن تحب، وقضى على آمالها وهي تحلم بحبيبها وخطيبها المفقود!

يرفع الستار في الفصل الاول عن بيت الاستاذ حيث نجد (تشارلز مارسدن) Charles Marsden وهو قصصي مشهور وصديق للعائلة من زمن طويل. عاد من اوربا، وهو أعزب متعلق بأمه ومخلص لها الاخلاص كله، وهو يحب (نينا) ويتودد اليها بيد انه لأسباب نفسية، لم يصريح لها بحبه، فهو حيٌ خجول، ذو شخصية عجيبة، نكاد نراه في كل فصل من فصول المسرحية، يحوم حول المأسة، وكأنه يشعر بها، ولكنه يحجم عن الولوج في هذا المأزق. فهو في بيئة مشبعة بالمؤامرات والحقد والشحناء

ثم ان (نينا) تصاب بحالات عصبية شديدة وعلى وشك ان تفقد هاعقلها. وهي تعان حنقها الشديد وتقرر من أبيها الذي قضى على احلامها فتقرر الانتظام ممرضة في احد المستشفيات لمواساة الجنود العائدين من ساحات القتال، وتوقف نفسها على خدمة الجرحى ذكرى لحبيبها المفقود (غوردون)!

وأما في (الفصل الثاني) فاننا لا نزال في بيت الاستاذ، وهو الآن مريض ينازع سكرات الموت، وحوله (تشارلز مارسدن) صديق العائلة يعتني به بانتظار (نينا). تدخل (نينا) بيت أبيها ومعها الدكتور (ند دارل) Ned Darrell احد أطباء المستشفى، و (سام ايترز) Sam Evans، وهو شاب معجب بها ويحوم حولها اما الدكتور (دارل) فهو بعيد عن تأثير العاطفة الجنسية، ولا يهتم بالنساء كثيراً، ولكنه شديد الكراهية لتشارلز مارسدن ويغضه بغضاً شديداً. فهل تكون (نينا) سبباً لذلك؟ ...!

(نينا) مريضة النفس واهنة، منهوكة القوى، حزينة بأسة. تلتابها أوجاع مقلقة، فيشير عليها الدكتور (دارل) بالزواج لتضع حداً لآلامها النفسية المبرحة.

وحينما تسأله (نينا) ممن تزوج ، يوصيها بصديقتها الشاب (سام ايثنز) فتقبل نصيحته ويتزوجا
تمر على هذه الحادثة سنة ، تزور بعدها (نينا) وزوجها بيت حماتها (ام سام ايثنز) ، فتقضي هذه لها سراً عائلياً ، وهو ان في العائلة مرضاً وراثياً عضالاً ، قضى على ابي سام وجده وأبيه بالموت في مستشفى المجانين ، وتطلب الى نينا ان لا يكون لها أولاد . ولكن هذا الانذار يأتي متأخراً ، وأم (سام) قاسية القلب وتريد ان لا يكون لابنها أولاد ! وأمانينا فهي على العكس من ذلك ، تحب ان تكون سعيدة وان يكون زوجها مغتبطاً بها ، فاذن يجب ان يكون لها ولد ولو كان من شخص آخر ! ؟

يمضي الزمن ، والوقت يمر بسرعة . خرجت (نينا) من المستشفى والولد لم يولد بعد ، وزوجها (سام) قلق الخاطر مضطرب البال ، يشعر بالكآبة واليأس ، فقد تغيرت طباعه واضطربت حياته ، وخبث من نفسه جذوة النشاط ، فلم يعد قادراً على العمل وكتابة الاعلانات (في المحل الذي يعمل فيه) فينذره اصحاب المحل ويهددونه بالطرد اذا لم يعد الى الاهتمام بعمله . ومع ان (نينا) بدأت تشعر الآن بنفور من زوجها (سام) ، الا انه لا يزال له في قلبها بعض الحب ، فهي تريده (ان يكون سعيداً) ، وتشعر انها بعملها هذا انها ترضي روح خطيبها الاول (غوردون) وهي مازالت عالقة بحبه ، وان كان هو قد صار رميماً تحت التراب ! . . .

فكيف العمل اذن ؟ .. واخيراً تتفق لها الحيلة مخرجاً صعباً من هذا المأزق . فهي تصرح بكل شيء للدكتور (دارل) وتقنعه ان يكون هو اباً لولدها الذي تريده وتحلم به ! اما الدكتور فيقبل اقتراحها بطيبة خاطر — ولكن كعالم فقط ، لاهمه الا حقائق العلم المجردة ! — اما انه يشعر حقيقة بحب وجاذبية نحو (نينا) فهذا مما لا شك فيه ! !

ثم ترجوه (نينا) ان يطلع سام على القصة كما هي وان يشدد عليه بطلب الطلاق منها ، بيد ان (دارل) وهو على وشك ان يعمل بما طلبت منه (نينا) يترث قليلاً ، اذ تراعى له مقبة هذا الامر وما سيؤول اليه حال سام فيما اذا عرف الحقيقة ، ولذا يفتنم فرصة غياب (نينا) وخروجها من الغرفة فيخبر سام انه سيكون أباً عن قريب ،

ويترك رسالة (نينا) يعلمها بعزمه على السفر الى اوربا
تمر سنة على هذه الحادثة ، فيجد سام عملاً ويصبح رجلاً نشيطاً مجدداً عاملاً
ولا سيما بعد ان رزق ولداً ، فأصبح يفخر بحياته العائلية وعمله النافع ، قليل الاهتمام
بالحوادث العامة . ولكن (دارل) يعود فجأة ، فيخبرها (تشارلز) عن (دارل)
ويعلمها بشؤونيه واعماله ، و (نينا) لا تزال تحبه ، واما هو فقد خدت عاطفته نحوها
وبلي ذلك مشهد رائع مؤثر ، ربما كان اجل ما في القصة ، حيث تجتمع (نينا)
واصدقائها الثلاثة ، يتحدثون بصراحة والطفل (غوردون) في الطبقة العليا من
المنزل يشرف عليهم . ويتحتم على (دارل) أن لا يعترف بأن (غوردون) ابنه ،
لذلك نراه يتعد عن هؤلاء ويذهب في مهمة الى (پورتوريكو) للاشتغال ببعض المسائل
العلمية هناك

وتمضي عشر سنوات يتقدم خلالها (سام) ويتخذ له مقراً في (بارك اثنيو) وهو
لا يتميز عن غيره من رجال الاعمال في اميركا ، بوجهه الاحمر المورده ، واعتداده
بنفسه وشموخ انفه !

ثم يعود دارل ويجمع بنينا والولد (غوردون) الذي يكره عمه (!) الدكتور
(ند دارل) كرهاً شديداً ، ولكنه لا يعرف سبب ذلك بغض والنفور ، وفي
الوقت نفسه يحب أباه (!) سام . . . وأما (نينا) الشقية البائسة ، المعذبة المثلثة ،
فتعيش في جو حافل بالأكاذيب والدسائس والخداع ، وتسعى لاكتساب
ود (دارل) ليعود اليها . وفي خلال ذلك يرى (غوردون) الصغير أمه تعانق (دارل)
فتشور العواطف في نفسه ويأتي بالسفينة الصغيرة التي أهداها اليه دارل ويلقيها على قدميه
فتتخطم ، ويخلم الاثنين انه سيخبر أباه (!) سام بما شاهد منهما

نصل الآن الى الفصل الذي قبل الاخير وقد جرت حوادثه بعد بضع سنوات ،
على اليخت الذي يخص (سام) فترى (غوردون) وهو يقوم بدور في المسابقات
المائية مختاراً من قبل (الجامعة) التي يدرس فيها ، وهو خطيب الانسة (مادلين)
وهي الآن في اليخت مع (سام) و (نينا) و (دارل) و (تشارلز) يشاهدون
المسابقات التي يشترك فيها (غوردون) . (دارل) و (تشارلز) يلاحظان بدقة كل
حركة تصدر من (نينا) . انها تفكر في (مادلين) — خطيبة ابها غوردون —

لأنها ستزوج منه وتحرمها من ابنها ، وهو رمز لحبها وإخلاصها لحبيبها الأول الطيار (غوردون) . ولذلك فهي تعزم على أن تُعَلِّمَ الفتاة (مادلين) بالمرض الوراثي المتأصل في أسرة (ايفنز) لتحول بينها وبين الزواج من ابنها ، بيد أن (تشارلز) وقد لاحظ عليها ذلك ، وفهم ما عزمت على عمله وقوله ، يتدخل في الوقت اللازم ويمنعها من الكلام

انتهى السباق ، وإذا بغوردون هو السابق ، فتستولى عندئذ على سام غمرة شديدة من الهياج والفرح فيقع مغشياً عليه ، وتنسى (نينا) في تلك اللحظة نفسها وهمومها ، فتبكي متسجبة فوق سام

وأخيراً فتحن في حديقة منزل (ايفنز) في (لونغ ايلند) ، وإذا بسام قد مات وجاءت (مادلين) وخطيبها (غوردون) بالطيارة لمشاهدة (نينا) . ويشاء القدر أن يعود (دارل) فجأة من مقر عمله في (پورتوريكو) ، و (تشارلز) موجود كالعتاد (في هيجة الزحام !)

نشاهد الآن منظرًا مؤثراً حيث يعلن (غوردون) كل ما بنفسه من حقد وضغينة نحو (دارل) — ابيه — ثم يهجم عليه فيلطمه . عندئذ تصرخ (نينا) وتقول — غوردون ! ... ماذا فعلت ؟ انك تضرب اباك ...

فيلتفت غوردون الى امه متعجباً ويقول

— هذا ما كان يشعر به ابي لو كان حياً . أو ليس العم دارل خيراً صدقائه ؟ !
اما السر فلا يزال خفياً مكتوماً . . .

ويسافر بعد ذلك بالطيارة (غوردون) وخطيبته (مادلين) . وتمر الطيارة محلقة فوق الحديقة فتتذكر (نينا) حبيبها الأول (غوردون) الطيار . الذي كان له في نفسها اعماق الأثر ، وكانت له دائماً مخلصه وفية ، فيصرخ (دارل) ويتمرج صراخه بهدير الطيارة قائلاً : « إِنَّكَ ابني يا غوردون ! » ثم يتوارى عن الأنظار وتبقى (نينا) مع (تشارلز) وقدمات عاطفتها وخبث الى الأبد جذوة حبها ! اما تشارلز فلم يخفق قلبه يوماً للحب . وتسمى (نينا) من (تشارلز) وهو الوحيد الذي بإمكانه الآن ، أن يُسبِغَ عليها نعمة الحياة الهنية والعيشة الرضية !

تلخيص وتعليق : فؤاد عنتابي

مكتبة المقتطف

مع المتنبي

بحث للدكتور طه حسين بك في جزئين عدد صفحاتهما ٧١٦ من القطع المتوسط
نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر

كانت الذكرى الألفية لوفاة المتنبي حافزاً قوياً لدراسة هذا الشاعر دراسات جديدة تتفق وروح هذا العصر فهب أبناء العربية في مختلف البقاع والامصار يحيون هذه الذكرى ويميطون اللثام عن سر عظمة المتنبي . وكان ان أرصدت هذه المجلة لأول مرة في تاريخها عدداً خاصاً تولى اخراجه كاتب واحد هو الاستاذ محمود شاكر . وقام على أثره كتاب آخرون يحلون هذه الشخصية الفذة . وكان آخرها صدر كتاب الدكتور طه حسين بك . وقد قسم بحثه الى خمسة كتب . فأما الكتاب الأول فقد تناول فيه حداثه المتنبي وشبابه وبدأه بالكلام في نسب الشاعر غير انه لم ينته الى قرار في هذا الموضوع كما خالص الأستاذ شاكر من بحثه الى قرار في صلة نسب المتنبي بالعلويين . ثم تكلم الدكتور عن الحياة الاسلامية عند مولد الشاعر فإلخص ذلك البحث النفيس الذي عقده عن هذا العصر في كتابه « ذكرى أبي العلاء » ثم انتهى منه الى الكلام في طفولة المتنبي فخالف فيه مفسري دخول المتنبي مدرسة من مدارس العلويين في ما فسروا به ذلك . وعنده « ان الارستقراطيين الممتازين من الشيعة العلوية ومن أهل السنة لم يكونوا يرسلون أبناءهم في طور الصبا الى المدارس العامة وانما كانوا يتخذون لهم الأساتذة والمؤدبين فاذا شبوا خلسوا بينهم وبين الاختلاف الى مجالس العلم في الاندية والمساجد الجامعة . انما كان أوساط الناس وعامتهم هم الذين يرسلون أبناءهم الى هذه المسكاتب والمدارس » . وان اختلاف المتنبي الى مدرسة من هذه المدارس لا يدل عنده على امتياز خاص وانما يدل على الاتجاه الديني الذي وجه اليه الصبي . وقد تناول بالتحقيق الحصال الثلاث التي ظهرت في شعر المتنبي الذي قاله في صباه وهو يختلف الى المكتب كما تناول بالدرس والتحليل شعر المتنبي في طرابلس وفي اللاذقية واستعرض ما قاله من الشعر الحاد الغنيف الذي انتهى به الى السجن في حمص وما قاله بعد خروجه منه .

واما الكتاب الثاني فتناول فيه حياة المتنبي من خلال شعره في ظل الامراء من الاوراجي حتى ابي العشائر كما تناول في الكتاب الثالث حياة هذا الشاعر في ظل سيف الدولة . وهذه الفترة من حياة المتنبي هي « خير أعوامه وأخصبها وأغناها وأكثرها حظاً من الانتاج المختلف المتنوع » وقد وجد الشاعر في سيف الدولة ومملكه تأييداً لنزعته القومية وما كان يشتهي من نفوذ عربي قوي وصادف عنده بيئة خصبة مثقفة ذكية ناقدة فلاعم بين نفسه وبين هذه البيئة وقد حلل الدكتور شعر المتنبي في سيف الدولة ومرثياته لاقاربه وخاصته ووصف حروب

خالف صديقنا شاكراً فيما استنبطه من غرام الشاعر بخولة اخت سيف الدولة من خلال مرثيته فيها ورد الدكتور قوة هذه القصيدة الى الحنين المتصل بين الشاعر وسيف الدولة بعد ان فارقه وأنه لا يفهم من هذه القصيدة الا ان الفريدة كانت تبر بالشاعر وتحسن اليه عن بعد كما كانت تحسن الى غيره من القصاد وأهل الادب . وقد انتهى في هذا الكتاب الى آخر حياة المتنبي في ظل أميره فصور لنا مالا قاه الشاعر أخيراً في هذه البيئة من مكائد ودسائس فرحل عنها ليبدأ حياة جديدة في ظل كافور ولم يكن الشاعر يقدر خدعة كافور حين استدعاه اليه فاستجاب لدعوته تحته اطماع واماني ما لبثت ان ذهبت مع الرياح وكان لما لقيه من خيبة الأمل اثر قوي في شعره ظهر فيما تناول به كافوراً ويشتته المصرية بلاذع القول ومرر السخرية . وقد تناول المؤلف كل ذلك بالبحث والتحقيق في كتابه الرابع

اما الكتاب الخامس فقد مثل فيه حياة المتنبي الاخيرة بعد فراره من كافور حتى لقي حتفه وقد انتهى فيه المؤلف الى رأي خاص او خاطر ألح عليه — كما يقول — هو ان المتنبي لم يذهب ضحية القصيدة البائسة الفاحشة ولا ضحية جشع في ماله او متاعه وانما أدى موته الى القرامطة والى العرب ثمن حياته التي اقترفها في الكوفة وسجلها في نفسه في شيراز وعاد وفي نفسه ان يمن فيها ويباهي بها ويملاء الارض اذا انتهى الى بغداد
هذه نظرة سريعة في هذا الكتاب النفيس ولولا علمنا انه ألف والدكتور مصطفى في اوربا وهو بعيد عن المراجع لكننا طالبناه بذكر المؤلفين المحدثين والمتقدمين عند نقد آرائهم بدلاً من اسنادها اليهم اجمالاً وتعميماً ولعله يفعل ذلك في طبعة تالية ان شاء الله ...

مجلة الشرق

الشرق تبدأ عامها العاشر فما أجمل هذه الذكرى !

قبل عشرة أعوام كانت الشعلة الادبية المتقدة في اميركا الشمالية توشك ان تخبث ولم تكن لتجد لازهارها طاقة تجمعها ولا لانفاسها نافخ بردها الى التوهج . ولكن مشيئة الله التي أبت الا ان تتم نور هذه الشعلة قيضت لها الاستاذ موسى كريم صاحب « مجلة الشرق » فحملها بيديه الى اميركا الجنوبية والتف حوله ادباء العربية هناك — في البرازيل — ففتح واياهم افقاً جديداً تطلع اليه العالم العربي وما لبثنا ان سمعنا في حديقته هذه الانغام القدسية التي ما تزال ترخ الشرق بعذب غنائها وخرجت لنا من آثار الشرق ملحمة فوزي ، وأعاصير القروي ، وعبقر شفيق ، ونفثات فرحات ، واغاريد العصابة التي تنشر لواء العربية هناك

وانا تنتهز هذه الفرصة السعيدة فتهنيء هذه المجلة الراقية الحانية على الأدب بعامها العاشر الذي درجت اليه في ثوبها القشيب المتجدد ، وأنا لارجو أن نعود الى درس أثر هذه المجلة في الصحافة العربية التي انشئت بعد ذلك في ربوع المهجر الصيرفي

شعراء مصر

وحياتهم في الجيل الماضي

تأليف الأستاذ العقاد — صفحاته ٢٠٢ قطع وسط — يطلب من مكتبة النهضة المصرية

من أظهر سمات أدبنا الحديث تلك الدراسات الحافلة المستفيضة التي تتناول الشعر والنثر في العصور المختلفة والرجوع بفنونها إلى البعثات التي نبتت فيها وقرعت عنها واستمدت ألوانها وصورها من ثقافتها الموروثة والمكتسبة

ولم تعد الكتابة مقتصرة على ترجمات متضاربة حياة هؤلاء الشعراء والكتاب ولم يعد النقد الأدبي محصوراً في عرض شامل لا نتاجهم الفني ومقابلته بمن سبقوهم والرجوع بالمعاني والأخيلة إلى معاني القدماء وأخيلة المعاصرين لهم بالطريقة التي سلكوها في شعر المتنبي وأبي العلاء والبحتري. ولكن النقد الأدبي قد سما إلى أفق آخر من التحليل الدقيق والاستقراء العميق وفيما أخرجت المطابع أخيراً من الدراسات الأدبية شواهد على الاحاطة الواسعة بكل ما يتصل بالأدب من الزمان والمكان وما يحيط بحياته من احوال اجتماعية وملاسات سياسية وأثر انعكاس كل عصر في نفس شاعره وانعكاس حياة الشاعر في العصر الذي عاش فيه. ومن أجل ذلك قرأنا عن ابن الرومي والمتنبي وغيرها شيئاً جديداً لم يعن القدماء به ولم يشغلوا بالإشارة إليه أو التحدث عنه على بعد أثره في تكوين مذاهبهم الأدبية وتحديد اتجاهاتهم وخلق صورهم واستلهم معانيهم

على أنك لا تقع في الدراسات الجديدة على ما يتناول شعراء عصر واحد كما تقرأ في الأدب الانكليزي مثلاً عن العصر الفكتوري أو شعراء القرن التاسع في فرنسا. لهذا كان كتاب الأستاذ العقاد عن شعراء مصر وحياتهم في الجيل الماضي عملاً أدبياً لا بد منه ولا غنى عنه لأدبنا الجديد، ومن الواضح أن أدباً كبيراً كالأستاذ العقاد توفر على دراسة الأدب العربي في عصوره المختلفة وأحاط بمذاهب النقد الغربية لا بد وأن يكون له رأي ناضج في الشعر مستمدة نتائجها من مقدمات صحيحة، محصها التأمل الطويل وصقلها الدرس العميق، وهذبها الذوق العالي، وأملأها الحس المرهف، وهي صفات احلست الأستاذ العقاد مكانة مرموقة في أدبنا الحديث كشاعر وناقد. على أن هذه الخصائص وإن اجتمعت لا ديب فأنها لا تصرفه عن النظرة من خلال مزاجه الخاص إلى كل لون من ألوان الفن والأدب وإن هيأت له ما لا يتاح لغيره من نقاد النظرة وعمقها واتساعها. وانك لتقرأ في كتابه عن شوقي فتلهس شواهد ذلك كله. ولعل فصوله في حافظ إبراهيم والبكري وعبد المطلب واسماعيل صبري وعبد الله فكري وعلي البهي وعثمان جلال والبارودي والتميمورية من أعلى الفصول الأدبية قيمة واقوعها بحملاً واسلوباً

المحفوظات الملكية في مصر

وأسابح الحملة المصرية في سوريا (١٨٣١ — ١٨٤١) للدكتور أسد رستم

عصر محمد علي زاهر بالفتوح والحوادث والانقلابات والمؤامرات التي لا يخلو منها عصر زاهر في تاريخ أية أمة . وليس هناك شك في ان يكون المرجع الوحيد لكل هذه الامور الى تلك الشخصية النادرة العبقريّة العظيمة — شخصية محمد علي

في النصف الثاني من القرن الماضي عن الكتاب والمؤرخون الاوربيون بدراسة التاريخ المصري والعثماني المعاصر ، لكن في معظم الاحوال كانت كتاباتهم لا تخلو من روح التحيز التي تعاون مع ما رب الدول التي ينتمون اليها لتحقيق اغراضها السياسية . ويخيل اليّ انه باستثناء كتاب « الامبراطورية المصرية تحت حكم محمد علي » للاستاذ المؤرخ محمد صبري وكتاب « المسألة المصرية منذ حكم محمد علي » للاستاذ شفيق غربال فاتنا لانجد ابحاثاً اخرى في هذا الموضوع الهام للمؤلفين المصريين او السوريين

أخيراً كان الدكتور أسد رستم « استاذ التاريخ الشرقي في الجامعة الاميركية بيروت » موفقاً كل التوفيق في دراساته العميقة التي بدأها منذ أعوام باحثاً منقّباً عن كل ما يتعلق بالحكم المصري في سوريا (١٨٣١ — ١٨٤١) وذلك بعد انتهائه من مؤلفاته النفيسة « فتوح ابراهيم باشا في سوريا وآسيا الصغرى » وعمله الفاخر « مجموعة الوثائق العربية الخاصة بتاريخ الشام تحت حكم محمد علي » . وكان طبيعياً للاستاذ ان يعتمد في تحقيق ابحاثه التاريخية على مجموعة المحفوظات المصرية في قصر عابدين التي تمّ تنسيقها وتنظيمها بعناية الراحل العظيم المغفور له الملك فؤاد الاول . وأصبحت اليوم أهم مرجع يأخذ عنه مؤرخ العصر الحديث لان هذه الذخيرة التاريخية الثمينة كانت الى عهد غير بعيد مبعثرة او مكدسة في زكائب ملقاة بين جدران الدفترخانه

والغرض الرئيسي الذي من أجله وضع الدكتور أسد رستم رسالته النفيسة عن « المحفوظات الملكية لمصر وأسباب الحملة المصرية في سوريا (١٨٣١ — ١٨٤١) » هو ان يجعل في متناول من يدرس التاريخ المصري المعاصر فكرة وقيمة عن وجهة النظر المصرية لاهم الحوادث فيها بين العامين ١٨٣١ و ١٨٣٣ في الشرق الادنى ومن المحتمل ان يكون من نتائجها ان تثير بعض النقد العلمي والجدل المفيد فيكشف الستار عن الحقيقة وبذلك تكون هذه الرسالة قد أدت واجبها تناول المؤلف الناضل في رسالته وبعبارة أوفى في كتابه النفيس الكلام على المحفوظات الملكية ومختلف مشتقاتها في الشؤون العسكرية والبحرية والادارية وأوامر الجيش وخطط المعارك والتقارير السياسية وأعمال الجاسوسية واوراق الاعداء المصادرة وأهم الحوادث اليومية

ثم يلي البحث الاصيلي للمؤلف وهو الحملة المصرية في سوريا واسبابها « الرسمية » كوقف عبد الله باشا والي عكا ومجديد الامبراطورية العثمانية واسبابها غير الرئيسية (غير المباشرة) التي خصها المؤلف في المقاصد غير الطيبة للباب العالي واستقلال مصر ونقص موارد (عدم كفايتها) وادي النيل وطبيعة مصر وسوريا كوحدة جغرافية مستقلة النواحي الوطنية للنزاع وقد تناول المؤلف ايضاً تحليل جميع هذه الاسباب على ضوء الوثائق الرسمية فوصل الى عدة نتائج منها ان محمد علي في نزاعه مع السلطان محمود كان يحارب للمحافظة على روثه ومنصبه ومقامه كما حاربه ايضاً للمحافظة على حياته

وذكر الدكتور رستم انه كان من اسباب النزاع بين مصر وتركيا عوامل جغرافية ومثلها اقتصادية تلك العوامل التي جعلت سوريا ميداناً للخصومة بين محمد علي والسلطان محمود . فان مصر على الرغم من خصبتها لم تسد حاجة محمد علي الى الخشب فكان عليه ان يستورد معظم ما يحتاج اليه من الوقود والاشخاب التي يحتاج اليها في اعمال الحرب والسلم فاضطر ان يحدو حدو نحو خمس الثالث ورمسيس الثاني في العصور القديمة وابن طولون في العصور المتوسطة اي ان يبحث عن الاشخاب التي يحتاج اليها في سوريا وبلاد القرم . وخير مقياس نقيس به ما كان لحشب سوريا وكيليكيا من المقام لدى محمد علي هو مقدار ما قطعه الجنود من اشجار الحراج المختلفة بين ١٨٣١ و ١٨٤٠ فما كاد ابراهيم باشا يصل الى اطفة حتى اُصدر اوامر مشددة لبناء طرق تصل بين الحراج والبحر حتى يسهل نقل الاشجار منها الى مصر . كذلك قطعت اشجار اخرى من غابة ارز لبنان وارسلت الى معامل الذخيرة والسلاح في مصر . اما المعادن فلم يكن رجال محمد علي موفقين في البحث عنها كذلك كان محمد علي في حاجة شديدة الى الرجال الذين يعتمد عليهم في حروبه . فان مصر التي لم يزد عدد سكانها عن الاربعة الملايين حينئذ لم تستطع ان تقدم له الجند الا شداء وهو في حاجة الى جحافلهم سواء لزراع الارض او لحوض غمار المعارك . فان الجيوش العديدة التي جندها من رجال مصر وخسائره في حروبه في بلاد العرب والسودان والمورة قلل من اليد العاملة في مختلف اعماله الزراعية والصناعية كذلك عدم فلاحه في التجنيد السوداني جعله يتطلع الى سوريا وسكانها الشديدي المراس الكثيري العدد . ونحن لانهش اذا رأينا محمد علي يعتمد عليهم في جيوشه وهو القائل : « من جبال لبنان أجند جنودي فأدرب منهم جيشاً كبيراً ولا أقف به إلا على ضفاف دجلة والفرات »

الواقع ان المؤرخ العالم الدكتور رستم يستحق منا كل شكر وزجوا له التوفيق المتواصل وحبذا الحال لو ظهرت هذه الرسالة النفيسة باللغة العربية

عبد الرحمن زكي

قواعد النقد الادبي

تأليف لاسل أبركرومي أستاذ الادب الانكليزي بجامعة لندن وتعريب الدكتور محمد عوض محمد
الاستاذ المساعد بكلية الآداب بالجامعة المصرية . نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر

لهذا الكتاب مكانة خاصة يحتلها في تاريخ أدبنا الحديث فهو أول حجر في أساس نقده ،
وما أحوج أدبنا الى قواعد جديدة في النقد

وقد بدأ المؤلف مقدمته بالحديث عن الخطوة الأولى في تاريخ النقد وهي التي بدأها سقراط
عند ما دعا الشعراء أن يخبروه عما عَنَسُوهُ بشعرهم ، ثم بين أن دولة الأدب تحتلها ملكات
ثلاث : الاتناج ، والتذوق ، والنقد . وان من فوائد هذه الملكة الأخيرة تمكين من رزق
القدرة على الاتناج الأدبي من استخدام مقدرته بذكاء واستغلالها على أحسن وجه وأكمله .
وكذلك من رزق القدرة على تذوق الأدب فان استمتاعه يصبح مبدئياً على أساس من
الفهم وحسن التخير

أما الفصل الثاني فقد تناول فيه المؤلف بشيء من البحث العقلي فن الأدب انتهى به الى
سرد أهم قواعد نظرية الأدب ، وأنه فن يرمي بواسطة اللغة الى إيصال التجارب التي لها قيمة
في ذاتها والتي يمكن تذوقها لذاتها وان وظيفته هي ان يكسبنا قوة الخيال التي تصوّر بها التجارب
ذات المغزى العميق

وأما الفصل الثالث فقد أفردهُ المؤلف لكتاب أرسطو في الشعر شارحاً فيه نظريته في
الشعر عامة لأن أرسطو كاد يلم فيها بجميع المسائل التي تولدت منها القواعد التي لا بدّ للنقد
منها مع تبيان أوجه الخلاف بينه وبين أفلاطون . ثم تكلم في الفصل الرابع عن اصحاب
النظريات الذين ثبت ان قضاياهم ذات فائدة في النقد بادئاً بهوراس الذي يعتبره أكبر اسم في
تاريخ النقد بعد أرسطو وقد كانت قصيدته « فن الشعر » سبباً في نشر آراء أرسطو في كل
أدب أوروبي . وانتهى من ذلك بعد عرض لبعض رجال النقد وبعض المذاهب المختلفة في الادب
الى رأي « منزوني » المعبر باقواله عن المثل العليا للنقد الحر والهادي الى الطريق القويم للنقد
الصحيح بكافة أنواعه . ثم ختم المؤلف كتابه بالنظر في رأي منزوني

هذه نظرة سريعة أقيمتها على هذا الأثر الطيب الذي أتحف به الدكتور عوض لغته
وأبناءها وهو دائماً لا يرضى عليها بنقل نقائس الآثار اليها . فقاوست وهرمن ودوروثيه درتان
في تاج الأدب العربي الحديث . ولعله يتحفنا بعد ذلك بنقل كتاب الاستاذ لاسل « الشعر :
موسيقاه ومعناه » بعد تطبيق نظرياته على الشعر العربي وهو خير من يستطيع ذلك

حسن كامل الصيرفي

ديا طاسرون طيطيانوس

لحضره الاب ا. س. مرمجي الدومنيكاني

Diatessaron de Tatien

ان كل من عني بدرس كتب الانجيل المقدسة، وبنقد ترجماتها واطاها، وبجمع الانجيل الاربعة لتكمل بعضها بعضاً ويتكوّن منها انجيل واحد يبين سياق الحوادث بأجلى مظاهرها، يعرف ما هو «الديا طاسرون» ومن هو طيطيانوس

فالديا طاسرون هي كلمة يونانية معناها «اخذاً عن الانجيل الاربعة» اعني مجموعة الانجيل الاربعة. وهذه المجموعة اصلها يوناني - سرياني كتبها طيطيانوس اولاً باللغة اليونانية التي كان يجيدها ثم ترجمها الى السريانية وذلك في اواسط الحيل الثاني للمسيح. ومن بعده نقلها الى العربية ابو الفرج عبد الله ابن الطيب في الحيل الحادي عشر

اما طيطيانوس فهو رجل اشوري من شمالي العراق ومن اصل رفيع، درس الآداب اليونانية والرومانية وطاف في بلاد اليونان وايطاليا، وساعد القديس يوستينوس الفيلسوف السوري في عمله، وخلفه في تعليمه، ثم عاد الى بلاد اشور حيث كانت اللغة السريانية هي السائدة فجمع الانجيل الاربعة في واحد وكتبها باللغة اليونانية اولاً ثم ترجم ذلك الى السريانية خدمة لاهل وطنه. فان البلاد العراقية لم تكن تعرف اللغة اليونانية ولم يكن لدى المسيحيين فيها انجيل مترجمة الى السريانية. فيكون طيطيانوس قد خدم بلاده ومواطنيه خدمة جليلة

وانتشر كتاب طيطيانوس في بلاد الاشوريين وكان المسيحيون السريانيون يقرأونه في الكنائس وقت الصلاة ويستعملونه للقراءة في بيوتهم كما يشهد بذلك المؤرخ الشهير اوسابيوس وانجيل طيطيانوس الرابعي هذا هو عظيم الاهمية من الوجهة التاريخية والكتانية لانه مأخوذ عن الاصل اليوناني وهكذا يثبت الترجمات اليونانية اللاحقة التي بين ايدينا وأقدمها يعود الى الحيل الرابع فقط. فماذا عمل حضره الاب مرمجي الدومنيكاني ياترى

ان حضره الاب مرمجي هو «احد اساتذة المدرسة الكتانية والاثارية الفرنسية في القدس»، وهو من تلك الرهبنة الدومنيكانية الجليلة الشهيرة بمباحثها العلمية ولا سيما بكل ما يخص بالكتاب المقدس ومتفرعاته، من المباحث التاريخية والجغرافية والاثارية والتفسيرية. ويظهر من كتابه الضخم الذي يقع في ٧٥٠ صفحة من القطع الكبير بما فيه المقدمة والذيل، انه رجل ضليع في العلوم الكتانية. فانه اخذ انجيل طيطيانوس الرابعي السرياني، وقابله مع الترجمة العربية، وصحح النص العربي من الاعلاط النحوية الكثيرة التي تشوهه، وعاد فترجمه الى اللغة

الفرنسية ، وهي الترجمة الفرنسية الاولى للديپاسرون الجليل الاثر ، وعارض تلك الترجمة بالترجمات السريانية القديمة ، وذيله في حواشيه بانجيلية رباعية سريانية ، وأضاف الى ذلك كله اربعة روايات خارج النص . فجاء سفرأ نقيساً وحلقة كريمة في سلسلة المؤلفات الكتابية العلمية ونجح حضرة الاب مرمرجي في مقدمته نجاحاً كبيراً اذ شرح لنا من هو طيطيانوس وما هو انجيله الرباعي . ثم اكب على درس النص العربي وأخذ يبحث فيه وينقده ويصححه ويظهر معاني الترجمة العربية بمقابلتها مع النص الاصلي السرياني ويعطي لذلك امثلة عديدة جداً . وكل هذا بترتيب محكم ورجوع الى الآيات وارقامها واصل الانجيل الذي اخذت عنه فجاء كتابه تحفة ثمينة خدم بها العلوم الكتابية واللغتين العربية والفرنسية معاً خدمة جليلة الارشندريت مشيل عساف

هتلر وستالين

أسس الأستاذان محمد صبيح عبد القادر ومحمد عبد الرحيم عنبرداراً للثقافة العامة ، والغرض من هذا المشروع هو رفع المستوى الثقافي العام المتعلمين المصريين وغيرهم من قراء العربية في اقطارها ، فتقرب لهم ما ابتعد عنهم من صور التفكير العقلي العام في شتى شؤون المعرفة ، وتقدم لهم مبسطات العلوم والآداب في اسلوب مقبول

وكانت باكورة هذه الدار ان اخرج أحد مؤسسيها الاستاذ محمد صبيح عبد القادر كتابين أحدهما عن هتلر والآخر عن ستالين فشرح في الأول الحركة النازية وكيف بدأت وتكلم عن حياة مؤسسها وما لاقاه اعضاؤها من اضطهاد وسجن ومحاربة اعداء الفكرة لهم بشتى الطرق والوسائل واخيراً تغلب على كل الصعوبات واصبح زعيم الامة ورئيس الحكومة وقضى على الماركسية في بلاده وانقذ المانيا وعمل على احيائها وانهاضها

وشرح في الكتاب الثاني الشيوعية والاشتراكية وذكر فصلاً مطولاً عن حياة نبي الشيوعيين وهو كارل ماركس واقتبس بعض فقرات من خطبة خطبها صديقه انجلوس على قبره « وهو ان ماركس اكتشف قانون التطور في تاريخ البشرية ويعني بهذا القانون ان الدوافع المادية للانسان هي التي تكيف عقائده ونوع حكومته واسلوب تفكيره واما النظرة المادية من جانب ماركس فهي انفس ما يصدمك في فلسفته لانه يحارب الشر بالشر ويحارب المادية بالمادية . ثم لخص حياة ستالين ومولده وثقافته وتعلمه لمبادئ كارل ماركس وجهاده الكبير واصدار جريدته «برافدا» وسجنه ونفيه اكثر من مرة الى اصقاع سيبيريا وتكلم عن لينين وخوفه في آخر ايامه من ستالين وبغضه له حتى كان يعمل على اخراجه من سلطته وكره ستالين لتروتسكي ونفيه من البلاد وختم كتابه بفصل ممتع عن الحياة في روسيا

فهرس الجزء الثالث من المجلد التسعين

٢٦١	تحديد النسل وآثاره الصحية والاجتماعية والدولية
٢٦٨	في جبال بافاريا (قصيدة) : لبشر فارس
٢٦٩	كلية الطب : للدكتور علي ابراهيم باشا
٢٨٠	مصلحة الآثار : للدكتور سليم بك حسن
٢٨٣	الضوء والاحياء الدنيا : تجارب جديدة طريقة
٢٨٥	اقفل تلك النافذة : من كتاب القاضي بير كرايتس
٢٩٣	مفردات النبات : لمحمود مصطفى الديماطي
٢٩٧	مدارس الصحافة : للدكتور ليل سينسر
٣٠٠	الغدد والحياة
٣٠٧	السفاح : للدكتور حسن ابراهيم حسن
٣١٥	قطرات ندى : لراجي الراعي
٣١٧	حديث اليمن : رحلة جغرافية عمرانية : لوصفي ذكريا
٣٢٣	الى الثلاثين (قصيدة) : للسيد قطب
٣٢٤	الحضارة الحثية نواحيها الصناعية والتجارية : بقلم قيصر صادر
٣٢٩	نفسية الجماهير : لنظمي خليل
٣٣٣	الرتب العسكرية في مصر والعراق : للفريق الدكتور امين المعلوف
٣٣٥	سير الزمان * ملخص رأيين في المستعمرات من الناحية الاقتصادية : للدكتور شاخت وللمستر كيلنغ . لواء الاسكندرونة : للدكتور عبدالرحمن شهنندر
٣٤٩	حديقة المقتطف * پوشكين أمير شعراء روسيا : حلليم ميري . فصل معترض من مسرحيات «اوجين اونيل» : لفؤاد عيتنابي
٣٦٠	مكتبة المقتطف
٣٦٩	— ملحق خاص بمؤتمر الطفل
٣٧٠	مكانة الطفل في المجتمع : لأحمد نجيب الهلالي بك
٣٧٣	لحة تاريخية في نشأة الطفل : لآحمد فهمي العمروسي بك
٣٧٧	اجرام الاحداث في مصر : للدكتور محمد عبد المنعم رياض
٣٨٢	الاطفال الشواذ : لأمين ساهي حسونه بك
٣٨٦	الاطفال ذوو العاهات : للسيدة زاهية مرزوق
٣٨٩	الطفل وأوقات الفراغ : ليعقوب قام

رَاطِطُ الْبَصْدِ (لِلْجَمْعِ)



مكانة الطفل في المجتمع
لسعادة احمد نجيب الهلالي بك
لمحة تاريخية في تنشئة الطفل
لاحمد فهمي العمروسي بك
اجرام الاحداث في مصر
للدكتور محمد عبد المنعم رياض

الاطفال الشواذ
لامين سامي حسونه بك
الاطفال ذوو العاهات
للسيدة زاهية مرزوق
الطفل وأوقات الفراغ
ليعقوب فام





سعادة الاستاذ الكبير احمد نجيب الزهرلى بك
الوزير الأسبق لوزاري المعارف ، والتجارة والصناعة
ورئيس رابطة الاصلاح الاجتماعي ، ومؤتمر الطفل



تقديم

هذه مجموعة المحاضرات التي ألقيت في الجلسات الثلاث لمؤتمر الطفل
الذي عقده « رابطة الاصلاح الاجتماعي » وقد استمع اليها من وسعهم
دار « الاتحاد النسائي » من صفوف الجمهور ، بين طلبة ناهضين ، وشباب
متقن ، وسيدات فضليات ، وشيوخ يؤمنون بفكرة الاصلاح - فرغب اليها
الكثيرون منهم أنه نعمل على نشرها ، نيسر انقراءها ونعجمها لفاثرها
ولها نحن أولاء نلبى تلك الرغبة الكريمة ، في نشر المحاضرات ،
تأكسين « للمختطف » الاغتر ترميه بها ، وافساح صدره لها
وأكبر ما نأمل انه تلقى من عناية القارىء بالاستفادة منها ، قرر
ما لقيت من عناية اصحابها باعدادها

السكرتير العام

سبهر مصطفى

مطلة الطفل في المجتمع

كلمة سمارة الاستاذ الكبير احمد نجيب الزهري بك

الوزير الأسبق لوزارتي المعارف ، والتجارة والصناعة ،
ورئيس رابطة الإصلاح الاجتماعي ، ومؤتمر الطفل



سيداتي - سادتي: أحبيكم أذكى وأطيب تحية وأشكر لكم ما أوليتموني من شرف كبير بافتتاح هذا المؤتمر . فكل مؤتمر للإصلاح الاجتماعي عيد أشهده بفرح مجدد. لقد نهضت البلاد لمصالح شتى ومضت قدماً في السياسة والاقتصاد والعمران . ولكن حالتنا الاجتماعية بقيت ضعيفة متقلبة ، كما بقيت جميع المشروعات والتدابير الاجتماعية مجرد آمال وأحلام كسراب الضياء فوق رمال الصحراء

والمأمل في أحوال الأمم الأخرى يرى أن البرامج الاجتماعية هي التي خلقت البرامج السياسية وأن الأحزاب السياسية إنما قامت على أساس الإصلاحات الاجتماعية . ولكن الوضع السياسي في مصر عكس ترتيب الوجود . فانصرفنا الى القضية السياسية وتفرغنا لها حتى كدنا بتخلي عن كل قضية سواها. نعم جرينا في السياسة شوطاً بعيداً ، أما في الميدان الاجتماعي فقد بقيت أقدامنا حيث كانت . ولئن كان لنا في الماضي عذر نحتج به فلا عذر لنا بعد اليوم

أيها السادة :

أساس الإصلاح الاجتماعي التعاون والتكافل . فالجهود الفردية في هذا الميدان قليلة البركة بطيئة الحركة ، تكاد لا تجدي نفعاً ولا ترد على البلاد خيراً

والمشاهد أن العصر الحاضر هو عصر الجماعات في الماديآت وفي الروحانيآت . فالأعمال الماديّة العظيمة في حاجة إلى الشركات . ومصالح المهن والأيدي العاملة في حاجة إلى النقابات . وأعمال الخير والأصلاح في حاجة إلى الجماعات . وإذا كنآ نرتاح لنأليف الشركات والنقابات ونجد فيها دليلاً على حياة البلاد فما لا شك فيه أن جماعات الإصلاح أأدعى للنبطة والارتياح لتجردها عن كل زعة فردية أو غاية شخصية . وهذه المؤتمرات التي تعقدونها ان كانت اليوم . ومؤتمرات صغيرة تؤمها فئة قليلة فستكون غداً بأذن الله . مؤتمرات كبيرة تمثل طوائف البلاد كلها . وسيكتب الله لكم في سجل الحسنات أنكم كنتم طلائع الإصلاح وحواريه . وأنتم إذ تعقدون . مؤتمر الطفل تعالجون موضوعاً خطيراً ذا أثر كبير في حياة البلاد الصحية والاقتصادية والسياسية والحربية ، فضلاً عن نواحيه الانسانية والاجتماعية . ومن المسلم به عند رجال الحرب والسياسة والاجتماع أن قوة كل أمة تتوقف على زيادة عدد السكان وزيادة موارد المعيشة ، أو كما يقول العرب كثرة العيال وسعة الحال . ونمو السكان لا يكون إلا من طريق العناية بالطفل

وإذا كان كثير من علماء النبات والحيوان يؤكدون أن بعض النباتات تنحصب وتزدهر بالهواء والنور والشمس ، فإذا زادت العناية بها رقيت في الحياة درجة درجة حتى تدب فيها الروح الحيوانية فما أولى نابتة الوطن بمثل هذه العناية ، وما أعظم الفرق بين جيل ضعيف مهمل جامد الحال على أول درج الحياة ، وجيل شديد قوي نام بلغ أعلى الدرج وورد ماء الشباب والحياة فخطي منه بكأس روية

وها أنتم أولاء ترون حالة الأطفال في بلادنا ، فسواد الأمة يجهلون تمام الجهل كيفية تدبير الطفل وطرق تمريره وتغذيته وتنميته وتقويته ووقايته عوامل العلل والضعف . والأطفال الذين يسلمون من الموت يحيون حياة ناقصة من حيث الجسم والحيوية ومن حيث العقل والروح . وكل أمة تهمل شأن الأطفال إلى هذا الحد تنتحر انتحاراً قومياً وتكون عرضة للضعف والإقواء

وأما الأغنياء فيعتقدون أنهم يحلون قضية الأطفال بمجرد إلحاقهم بالمدارس وأنهم إذ يكون أبناءهم إلى المربين الرسميين يتحللون من كل تبعة . وهم في ذلك مخطئون . فصحة الأطفال

وتربية الاطفال لا تكون إلا في البيت وصفاء الطبع وجمال الأدب وطيب الخلق لا تكتسب إلا في البيت ذلك لأن الابوين أقدر على الالتفات للجزئيات وعلى معرفة أحوال الطفل وطبعه ومزاجه . ولأن البيت وإن كان مجتمعاً خاصاً هو أصل المجتمعات كلها . والعادات والأخلاق التي تكتسب فيه أصل العادات والأخلاق كلها . وأثر المنزل في الطفل أشد وأبقى من جميع المؤثرات الأخرى . أما التربية المدرسية فهي تربية تابعة أو تربية تكميلية تكمل ما يستمدّه الطفل من حياته المنزلية وإن كان لها أثر في تشكيل الاخلاق وتكوين العقول والطباع وتربية الاطفال في حاجة الى تعاون العلم والطب والاخلاق والقانون ، وهيات أن يتيسر للسواد الاعظم تدبير الأطفال من غير معونة الحكومة وجماعات الاصلاح من طريق التشريع والبذل والدعاية

فالدعاية والإرشاد فريضة على كل مصري قادر . ذلك لان الطفل ليس ملكاً خالصاً لآبيه حتى يصح أن يقع كل العبء عليه . هو يغذيه ويريه حتى إذا كبر انفصل عن آبيه . وأصبح ملكاً للوطن بحكم الواقع وبحكم القانون . فمن حق الوالد على الوطن أن يعينه بالرأي والتدبير . ومن المسلم به في أصول الشرائع أن الآباء كلما كانوا غير قادرين على تربية أبنائهم اشتد واجب الحكومة في أن تقوم مقامهم

فإذا أراد الوطن أن يخرج من اطفاله رجالاً ونساء صالحين للكفاح الفردي وللکفاح القومي وجب على الحكومة وعلى الطبقات المستنيرة أن توفر للآباء والامهات جميع العوامل والمؤثرات التي تجعل من الاطفال رجالاً كاملين صالحين للنهوض بالتكاليف الخاصة والعامة . وما من أمة عظيمة إلا سلكت هذا السبيل ، وتمكنت من التغلب على الفقر والجهل من طريق العناية بالأطفال وتربيتهم التربية الحقة التي تضمن لهم أجساماً سليمة وأخلاقاً متينة وأنفساً قوية

ومن دواعي القبظة أن يتطوع فريق من كبار العلماء والإخصائيين والمفكرين ليدسطوا لنا آراءهم في قضية الطفل، ويؤدوا بذلك ديناً وطنياً وحقاً إنسانياً . فإله أسأل أن يمنحهم من حسن الجزاء على قدر ما يبذلون لبلائهم من غيرة وإخلاص ووفاء

لمحة تاريخية في تنشئة الطفل

د محمد فراهي العمروسي بك

ناظر مدرسة المعلمين العليا ومهده التربية سابقاً

سيداتي سادتي :

خلق الله الكائنات الحية وأودعها غرائز تكفل لها الحياة والبقاء وهذه الغرائز على تعدد مظاهرها لا تخرج عن ثلاثة أنواع. الأول غرائز غايتها حفظ الشخص. والثاني غرائز غايتها حفظ النوع. والثالث غرائز اجتماعية مثل التعاون على العمل في فصائل النمل وتجميع الطيور الرحالة وطيرانها أسراباً في اشكال مثلثة

والذي يعنينا منها اليلة غريزة حفظ النوع في الانسان وهي التي تبعته على حب ولده وتحفزه الى العمل على حفظ حياته ولمساعدته جهد الطاقة ولا يكون ذلك الا بتعهده وتنشئته ارقى تنشئة وأخذه من الحداثة بأهدى أساليب التربية والتهذيب

يحدثنا التاريخ أن الفرس والمصريين واليهود كانوا يعنون بتربية الاطفال مسترشدين في ذلك بتعاليم مذاهبهم الدينية . اما في أثينا وروما فكان الأمر على الضد من ذلك اذ كانت حياة الطفل محقرة وحرية ممتنه فان الطفل المهمل كان لقاطه من اللقاقات يملكه من يأخذه من المارة . وكانت الكنائس تأخذ منهم عدداً وافراً لاستخدامهم في شئونهم المختلفة . وظل استعباد الاطفال المهملين جائزاً الى أواخر عهد الدولة الرومانية

على انه منذ القرن الرابع الميلادي أنشأ الغريون ملاجئ للأطفال ولسكنهم للأسف خلطوا عملاً صالحاً بآخر سيء فحشدوا الاطفال والمرضى والفقراء في صعيد واحد . وقد نشأ بلاشك عن اختلاط هذه العناصر المتباينة من الاضرار بالطفل مالا يتصوره العقل لذلك فصلوا بعضها عن بعض واختص كل منها بعنايته عنصراً من تلك العناصر وها نحن أولاء نرى بين ظهرائنا ملاجئ « فان سان دي پول » مثلاً قد وقفت جهودها على تربية اللقطاء

اما حماية الاطفال حماية قانونية فلم تظهر في اوربا الا في النصف الثاني من القرن التاسع

عشر ، واول قانون فرنسي نص على وجوب حماية الاطفال وتقسيمهم الى مهملين وذوي عاهات وأيتام ولقطاع ومجرمين احداث وعمال قصر يعملون في المصانع والمعامل لم يصدر الا حوالي سنة ١٨٧٤

ينبتنا تاريخ الادب انه لم يخل عصر من تلك العصور الغابرة مع ذلك من كتاب وشعراء دفعهم الحنان الأبوي الى الاهتمام بالاطفال ومراقبة أطوارهم وأحوالهم عن كذب فدرسوا طباعهم وترجموا عن عواطفهم. نذكر من أقدمهم الكاتب اليوناني « فلوطرخس » الذي عاش في منتصف القرن الأول الميلادي ، فانه بعث الى صديق له بكتاب ذائع الصيت في عالم الأدب — عقب موت ابنته الوحيدة — يصف فيه رقة شعورها وصفاً مؤثراً اذ يقول :

« انها كانت تتوسل الى مرضعتها ان تمنح ثديها لا للأطفال الذين كانوا يلعبون معها فحسب ، بل للدمى التي كانت تلهو بها وتهش لرؤيتها وتجلسها على مائدتها وتعقد عليها أرق عبارات الملاطفة وأعذبها ، كأن فطرتها السليمة تحس وجوب مقابلة الاحسان بالاحسان »
اما في الشرق فنكتفي بذكر أبيات شهيرة لحطان بن المعلى يصف فيها عطفه على بناته وهي :

« لولا بنيات كزغب القطا يقربن من بعض الى بعض
لكان لي مضطرب واسع في الارض ذات الطول والعرض
وانما اولادنا يبتنا اكبادنا تمشي على الارض
لو هبت الريح على بعضهم لامتعت عيني من الغمض »
ولا بد أن يكون عدد هؤلاء الكتاب والشعراء قد ازداد شيئاً فشيئاً حتى بلغ حداً لا يستهان به في القرن الثامن عشر عندما ذاعت تعاليم « روسو » وفلسفته في تربية الطفل ولم يكد ينبلج القرن التاسع عشر حتى توجهت افكار الناس جميعاً الى الطفل وأصبحت كل أسرة في السهر على أبنائها كالزراع اليقظ النشط الذي يتعهد غرسه بالحرث والسقي ليأتي في الغد بأوفر نتاج وأجود حصاد

وقد صدر الكاتب الفرنسي « فيليكس توما » كتابه « التربية في الأسرة وجنبايات الآباء على الابناء » بدياجة استهها بقوله « بينا ممالك كثيرة تحيط وتدول اذ بالقرن التاسع

عشر يرى دولة جديدة نشأت بين أحضانها وأخذت قدمها ترسخ فيه يوماً فيوماً تلك هي دولة الطفل

من هذا نرى أن القرن التاسع عشر امتاز على ما تقدمه من القرون بأنه عصر الطفل فالشعراء في فرنسا من عهد « فيكتور هيجو » الى اليوم اهتموا جد الاهتمام وعنوا أيما عناية بدراسة نفسية الطفل الغامضة وميوله المتغيرة وراقبوا نشأته تدريجياً من عالم الظلمة والخفاء الى عالم النور والجلال، وقد حذا حذوهم في ذلك الكتاب والفلاسفة والعلماء والاطباء فالتفوا جميعاً حول مهد الطفل يراقبون حركاته وإشاراتِهِ وابتساماته ويدونون تجاربهم حتى أخرجوا للناس صورة حقيقية للطفل تختلف كل الاختلاف عن الصورة التي صورها له علماء القرون السابقة والتي كان للخيال والمبالغة فيها أثر كبير

ولكننا مع ذلك ما زلنا مقصرين في واجب الطفل غامطين حقوقه الطبيعية. أليس من حق الطفل ان يولد صحيح البدن سليم العقل. نعم ولكن أيان له ذلك ومعظم الناس لا يقدمون على الزواج إلا بعد أن يسرفوا في الملاهي والملاذات حتى تحتل بناهم وتفسد عقولهم فينسلوا ذرية ضعافاً تشكو مدى الحياة الآلام والامراض التي ورثوها عن آبائهم دون أن يكون لهم أي ذنب فيها « وذنوب جره سفهاء قوم وحل بغير جازمه العقاب »

لذلك اهتمت بعض الأمم الراقية بالامراهم عظيمًا وحرمت عقد قران رجل بامرأة إلا إذا أثبت كلاهما طبيعياً أنه معافي من الامراض الفتاكة المزمنة حرصاً على سلامة النسل وحفظه من الامراض العقلية والعاهات الخلقية

يقول أفلاطون : « إنك اذا محضت الناس النصيح في هذا الصدد فكأنك تخاطب صبيًا لا يسمعون لانهم ينقادون الى الميول والاهواء دون الاصفاء الى نداء العقل وهدى التفكير »
أليس من حق الطفل على أمه أن تتجنب — في أثناء الحمل — كل ما من شأنه أن يضر بصحته حساً ومعنى ؟ إذ ما من عمل تأتية او فكر يمر بخاطرهما الا وله اثره في حياة الجنين

لقد كان توماس جوبز أحد زعماء الحركة الفكرية في انجلترا في القرن السابع عشر يشكو إليه الى العزلة عن الناس والخوف منهم ويعزوها الى ازعاج امه عند اقتراب الاسطول الاسباني من شواطئ انجلترا وكان ذاك جنيناً في بطنها

ألا يجب على الام في هذا الظرف العجيب الذي تغرس فيه بذور الغرائز والاستعدادات والميول في نفس الطفل أن تعتزل الحياة الاجتماعية العامة شيئاً ، فلا تتقيد بتلك الزيارات الطويلة المملة للاقارب والأباعد ولا تسرف في غشيان دور السينما والتمثيل ولا تبالغ في التأنق والتجمل إذا كان فيهما ما يضيق على الجنين في مضجعه ؟

أليس من حقوق الطفل ان يعنى الوالدان بتربيته في المنزل تربية بدنية خلقية ؟
وانما قلت تربية بدنية خلقية لأن التربية العقلية تبيء بعدها فالعقل لا يظهر الا في

سن متقدمة

لذلك كان توماس ارنولد مربى انجلترا الحديثة يقول ان التعجيل بالاطفال الى طلب العلم وحشد قرائحهم بمسائل علمية لا يفهمونها قد يودي بفضاضتهم ونضارتهم ويخمد فيهم غريزة البديهة وملكة الابتكار . ولن يلاقي الاطفال في حياتهم الاولى وبالأشراً عليهم من سبق عقولهم لا بدانهم

وفي هذا قال عروة بن الزبير منذ ثلاثة عشر قرناً لولده : « يا بني العبوا فان المروءة لا تكون الا بعد اللعب »

والمروءة هي القيام بما فوق الواجب كنصرة العدل ونجدة المستغيث وحماية الضعيف ولا يقصد الانجليز من الرياضة البدنية ، التي بلغت عندهم شأواً بعيداً وجعلت منهم أمة عظيمة ، الى تقوية الاجسام فحسب ، بل تقوية الأخلاق وتقويم الطباع كما قصد اليه عروة بن الزبير ولقد خطت فرنسا خطوة جديدة في سبيل العناية بالأطفال وتوسيع نطاق حقوقهم فأصدرت في سنة ١٩١٢ قانوناً يقضي تشكيل محاكم خاصة لمحاكمة الاطفال على قواعد جديدة ومنظ حديثة أرشدتهم اليها العلم بعقليات الاطفال والالمام بنفسياتهم

ولا بد أن نسمع قريباً أنهم أنشأوا وزارة للطفل منفصلة عن وزارة المعارف دون ان تعارض معها وتفرغ لشئون الاطفال خاصة وتتعاون الاسرة والمدارس والمصانع والمعامل والسجون على القيام بهذه المهمة الشاقة وتمدهم بما قد يستجد من افكار . ويستنبط من آراء وأساليب من علم النفس الحديث . ولا عجب فالاطفال هم رأس مال الدولة والدعامة التي يقوم عليها مستقبلها

إبرام الاحداث في مصر

للككتور محمد عبد المنعم برياصه

مسائل الاحداث من أهم ما يجب ان يشغل به الباحثون في اصلاح المجتمع المصري ، بل قد تكون أهم هذه المسائل ، لارتباطها ارتباطاً وثيقاً بكيان الأسرة ، وهي الدعامه الاولى في بناء الوطن ، لذلك يجب ان لا يقصر اهتمامنا على رجال الجيل الحاضر بل يجب ان نضع نصب عيننا رعاية الجيل المستقبل ، واني لا أكون مغالياً اذا قلت ان البلاد التي تنشد التقدم يجب ان تهتم رجال الغد أكثر من اهتمامها برجال اليوم ، وما رجال الغد الا الاحداث الصغار ، فكل حياة تقذف من الردى انما هي حياة فرد تحتاج الامة الى سواعده وعقله فيما تبذله من جهد لتنبوء مركزها اللائق بين الأمم . وما التزام بين الدول الا التزام بين الأفراد ، فكلما كانت أفراد الامة أقوى صحة وأقوم خلقاً وأعزراً علماً ، كلما استطاعت ان تخوض غمار التزام وتخرج فائزة مهووبة الجانب . والأمم الكبيرة التي وصلت الى ذروة المجد ما أقامت مجدداً الا على اكتاف بنينا ، ولم يصل بنوها الى الدرجة التي نؤهلهم ليساهموا في تشييد البناء الا لأن طفولتهم قد حفظت ، فخرجوا منها رجالاً يقدسون وطنهم ويقومون بواجبهم نحوها ، ولا أقصد ببني الوطن الذكور فحسب بل ان اللات نصيباً كبيراً في خدمة البلاد قد يفوق نصيب الذكور أحياناً ، فالمرأة تستطيع ان تساهم في اقامة صرح الوطن كما يساهم الرجل حتى لو بقيت في دائرتها الطبيعية دائرة الزوجية المخلصة والأمانة الحقة ، بل قد يكون بقاؤها في هذه الدائرة أدعى لتفرغها لمهمة من أخطر المهمات هي ان تبث في ولدها وزوجها وأهل بيتها روح الوطنية والاقدام وتكيفهم بما يتفق وحاجات البلاد ، وعلى الأقل تخفف عنهم الكثير من متاعب الحياة فيستطيعون التفرغ لاداء ما عليهم على أكمل وجه — لم يكذب بسمارك وجلادستون عند ما قالوا ان كل ما وصلنا اليه من مجد كان يرجع لزوجتيهما ، ولم يبالغ لامارتين عند ما قال ان كل عمل مجيد أساسه المرأة ، بل ان روزفلت رئيس الولايات المتحدة السابق اعتبرها حلقة عظيمة في سلسلة الحياة الوطنية وقال انها أعظم شأنًا وأهم عملاً من الرجل

فالغاية بالاحداث بينين وبنات هي اذن اول ما يجب ان يبدأ به كل اصلاح اجتماعي، وبلادنا احوج ما تكون لهذه الغاية، اذ يكفي ان نلقي نظرة على شوارع المدن الكبرى لنجد حالة مخزنة تدل على اتنا نهم بارض الطرق وحجارتها اكثر مما نهم بتلك الارواح البريئة التي تجول في ارجائها وتفتش اديمها، فصغار المتسولين والمشردين وباعة الاشياء التافهة وجامعو اعقاب السجائر يملأون الشوارع والطرق بملايس قدرة مهلهلة لا تكاد تقيمهم قر الشتاء او لفج الشمس، وهناك عصابات تستغل هؤلاء الاطفال اسوأ استغلال فتعرضهم على التسول بل على الاجرام. واني لا ذكر انه قد اكتشف من مدة قريبة امر عصابة منظمة تقذف بهؤلاء الصغار في الشوارع لجمع اعقاب السجائر ثم تتولى بيع تبغها، وقد وجد البوليس ان لهذه العصابة سجلات تبين ما يجمعه كل طفل ورصد حساب العصابة من ايراد ونفقة كأنها شركة منظمة من شركات الاستغلال ولكنه للأسف استغلال للطفولة ولنفس بريئة كان يمكن ان تدرب على العمل الشريف المجدي - هذه حالة يجب ان لا نغمض العين عنها بل يجب ان نتادي باصلاحها اسوة بالبلاد الاخرى التي سارت شوطاً بعيداً في سبيل هذا الاصلاح

قد يكون من المدهش ان نعلم ان مصر كانت في طليعة البلدان التي اهتمت بانفاذ الاحداث من وهدة الاجرام والتشرد - فقد بدأ الاهتمام بهم في سنة ١٨٨٣ عند وضع اول قانون للعقوبات فنص على معاملة الاحداث المجرمين معاملة خاصة، وفي سنة ١٩٠٤ عند تعديل قانون العقوبات افرد باب للاحداث المجرمين تقرر فيه امكان ارسالهم الى مدرسة اصلاحية بدلاً من السجن العادية، وهذا الباب وان كان صغيراً لا يزيد عن بضعة مواد الا أنه يظهر بدء الغاية باصلاح الاحداث وباصلاحهم. ثم انشئت في سنة ١٩٠٥ محكمة خاصة لمحاكمة الاحداث في القاهرة والاسكندرية حتى لا يختلطوا بالكبار من المجرمين، وكان اول قاض لمحكمة الاحداث بالقاهرة عبد الخالق ثروت باشا رحمة الله عليه، فكان يبحث قضاياهم بعناية خاصة ويضع تقارير وافية بما يراه. وقد ذكر ضمن ما لاحظته ان قانون سنة ١٩٠٤ قد اقتصر على معالجة الاحداث المجرمين ولكنه لم يتناول نوعاً آخر شديد الخطر وهو تشرد الاحداث، واقترح انشاء مدارس صناعية لايواء المشردين من الاحداث ووضع قانون بشأنهم. وفعلاً صدر قانون في سنة ١٩٠٨ لمعالجة الاحداث المشردين وامكان ارسالهم الى مدرسة اصلاحية لتقويمهم وابعادهم عن وسط التشرد الذين يعيشون فيه - كل هذا تم في اوائل القرن الحالي وهو بدء طيب كان يجب ان يتبع باهتمام مطرد، ولكن على الضد لم تلبث تلك الغاية ان فترت بعد ذلك، فالتشريع القديم الذي سبقت به مصر طائفة من البلدان منها فرنسا

— لان هذه لم تنظم محاكم خاصة بالاحداث الا في سنة ١٩١٢ — هو التشريع الذي لا يزال قائماً الى الآن . والمحكمتان اللتان انشئتتا في سنة ١٩٠٥ لمحكمة الاحداث بالقاهرة والاسكندرية هما المحكمتان الوحيدتان في القطر المصري . بل قد يلوح لي ان نظامهما بدأ يعود الى نظام المحاكم العادي مع انه قصد بانشاء محكمة خاصة للاحداث ان تكون هيئة شبه عائلية بعيدة عن نظم المحاكم فلا رجال بوليس ولا منصة عالية ولا جمهور نظارة ، حتى لا يتعود الطفل مثل هذه المناظر . وقد يجد فيها لذة تجب له التردد على دور القضاء ويخيل له عقله الناشئ انه اتى عملاً عظيماً أقام له رجال الحكومة واجتمع له بسببه جمهور كبير . فمحكمة الاحداث في البلاد الاجنبية تتم امام قاض واحد يجلس في حجرة بسيطة ومعه مساعد او مساعدة ويبحث مع الطفل كأنه والده . بل ان بعض ولايات اميركا عينت للقضاء في مسائل الاحداث سيدات لانهن اعلم بطرق معالجة الطفل وادعى لطفاً يفتته وتعرف مواضع الضعف او النقص التي تحتاج الى العلاج من الرجال ، بل اكثر من هذا تشترط بعض الدول في قضاء الاحداث التخصص في دراسة طباع الاطفال وتضم اليهم اخصائين في هذا النوع من الدراسة ، ففي ايطاليا صدر تشريع في سنة ١٩٣٣ يقضي بأن يباون قاضي الاحداث عدد من الرجال والسيدات يجمعون له معلومات وافية عن نشأة الطفل ويثبتون حتى يستطيع ان يقرر جميع الظروف المحيطة به وتجري المحكمة في جلسة خاصة لا يدخلها الجمهور ولا اثر فيها لمظاهر السلطة . بل ذهب التشريع الايطالي الى أبعد من ذلك فاشترط تخصيص هيئة من المحامين للدفاع عن الاحداث فلا يتولى الدفاع عنهم الا من كان اخصائياً في امور معالجتهم وهناك في دائرة كل محكمة قائمة باسماء هؤلاء الاخصائين يختارون من بين الاشخاص الذين اعدتهم دراساتهم او مجهوداتهم الاجتماعية لاداء هذه الرسالة الخطيرة الخاصة باصلاح الاحداث

هذا في الخارج اما في مصر فلم نخط حتى الآن خطوة جديدة في هذا السبيل فنظام الاحداث عندنا لا يزال في حاجة الى عناية كبيرة سواء من الوجهة القضائية او الاجتماعية . فمن الوجهة القضائية يحاكم الاحداث في مصر والاسكندرية امام المحاكم العادية . بل ان في مصر والاسكندرية اللتين فيهما محكمتان خاصتان تستألف قضايها الاحداث امام محاكم الجنج المستأنفة فيقف الحدث في قفص واحد مع المجرمين العتاة او المزورين او المتجرين بالخدرات . ثم ليس في بلادنا اصلاحات كافية ، اذ ليس عندنا الا اصلاحية الحيزة وقد اصبحت خاصة بالمتشردين واصلاحية اخرى زراعية في المرج للمجرمين واصلاحية صغيرة للبنات مجرمات ومتشردات بجوار اصلاحية الحيزة وهذه الاصلاحات قليلة جداً لا تفي بحاجة البلاد . وكثيراً ما يوقف ارسال الاحداث

اليها لازدحامها بمن فيها. وليس هناك محل للمقابلة بيننا وبين البلاد الاخرى في هذا الشأن فاكثرت هذه البلاد ملائ بالاصلاحيات وهي في الواقع مدارس صناعية او زراعية مهمتها اصلاح المجرمين او المتشردين الاحداث وابعادهم عن طريق الاجرام وترغيبهم في الدروس وسلوك سبيل قويم بوسائل حديثة مشوقة تجعلهم يقبلون على هذه المدارس بمحض ارادتهم

كذلك من الوجهة الاجتماعية امامنا مجال واسع للاصلاح فالعدد الاكبر من الاحداث يدفعون الى الاجرام او التشرّد بتحريض اشخاص لا يلحقهم اي عقاب مع انهم هم المجرمون الحقيقيون. واكثر التشريعات الحديثة تقضي بعقابهم بشد العقوبات. ومن المدهش ان اكثر هؤلاء المخرّضين هم من اقرب الناس للاحداث كما بلّهم او اولياء امورهم. وكثيرون منهم لا يستحقون تلك النعمة الجليلة لعمّة الابوة فيستيقنون استعمال سلطتهم على الاطفال ويشجعونهم على الاجرام او التشرّد او على الاقل يكونون اسوأ قدوة لهم او يهملونهم ويتركونهم بلا ملجأ يتجولون في الشوارع ويتضورون جوعاً. واني لا ذكر عند ما كنت في وقت ما وكيلاً لنيابة الاحداث ان جاءني ام حكم عليها بالحبس مراراً لسرقات وطلبت مني ان اترع ابنها وهي طفلة في السابعة، من حضانتها لانها تخشى ان تشب البنت على سلوك امها، ولم اجد في التشريع ما يساعد على ترع هذه البنت فاجأت الى الطريق الاداري حيث استطعت الحاق البنت بأحد الملاجيء

لهذا يجب ان نتلافى نقص التشريع المصري في هذه الناحية بوضع نظام يكفل انقاذ الطفل من أسرته اذا كانت الاسرة هي سبب فسادده، ومثل هذا النظام متبع في كثير من البلاد الاخرى بل قد وصلت العناية بالاحداث في تلك البلاد ان اصبح القوم هناك يهتمون بتقصي اسباب الشذوذ في الاطفال الذين يتضح انهم غير عاديين في سلوكهم او تفكيرهم باعتبار ان هذا الشذوذ قد يؤدي الى الاجرام او يجمعهم غير صالحين لخدمة المجتمع. وهناك دور خاصة تقوم بفحص هذه الحالات طبيياً ونفسياً وتتابع كل حالة بما تستحق من عناية. وقد قرأت لاحد اطباء القائمين بادارة مستشفى من هذا النوع في نيويورك اسمه الدكتور وليام لانجفورد انه وجد حالات كثيرة ظهر فيها من الضروري معالجة حالة والدي الطفل قبل الطفل ذاته او معالجة ما تحفل به حياة الاسرة ذاتها من اشكالات هي السبب الاصلي لشذوذ الطفل او انحرافه عن الطريق السوي

بقيت مسألة تدل على انه حق في وسيلة اصلاح الوحيدة التي التجيء اليها في مصر وهي وجود اصلاحية للاحداث لا تزال بعيدة عن الغاية المنشودة. فالأحداث الذين يتخرجون من الاصلاحية يتركون وشأنهم في هذا البحر الخضم من دون أية عناية، بل قد لا يجدون عملاً يرتقون

منه من نوع العمل الذي درّبوا عليه في الإصلاحية ، فلا تبقى أمامهم إلا العودة الى الاجرام او التشرّد مرة أخرى، كأن الأمر ساقية تدور في مكان واحد . حتى انه لو روجعت سوابق كثير من المجرمين المعتادي الاجرام الذين في اصلاحية الرجال ثبت أنهم دخلوا في حدائهم إصلاحية الاحداث . ولا علاج لهذه الحالة إلا بإنشاء نظام لرعاية الاطفال بعد خروجهم من الإصلاحية ، واعتقد انه قد بدى في وضع مثل هذا النظام بإنشاء مؤسسة صناعية يشتغل فيها الاحداث المتخرجون من الإصلاحية ويا حبذا لو قرن ذلك بإنشاء جمعية تتولى رعايتهم في هذه المؤسسة او خارجها

هذه بعض المسائل التي يجدها الباحث في مشكلات الاحداث — وغيرها كثير لا يمكن الامام به في مثل هذا المقام . على انه يكفي ان نشير الى ما لمسائل الاطفال من شأن كبير فأثرها في المجتمع في ادق نواحيه . ولهذا نجد ان مشكلات الاحداث لاقت ولا تزال تلاقي عناية تامة في أكثر البلاد المتقدمة بل ان كثيراً من المؤتمرات الدولية تعقد دورياً لبحثها وتقرر أوفى وسائل الاصلاح والمعالجة التي يجب اتباعها وأقرب مؤتمر دولي عقد في هذا الشأن هو الذي عقد في بروكسل سنة ١٩٣٥ وكان أهم ما تعرض له المسائل الآتية

١ — تحويل السلطة لقاضى الاحداث او لهيئة خاصة لتشرف على استعمال الوالدين لسلطتهم بحيث تستطيع الحد منها عند اللزوم

٢ — العناية بالاطفال في القرى (وهذا موضوع يهم مصر جداً للحالة السائدة في القرى المصرية والعمل على تعضيد حركة عودة الاطفال الى الاقامة في قراهم مع العمل على جعلها واقية بما يحتاج اليه الطفل من عناية)

٣ — معاملة المجرمين الاحداث معاملة خاصة أساسها وضع الحدث تحت ملاحظة طبية ونفسية وبيولوجية ، وتعاون المدرس والمربي النفساني والطبيب على معالجة الحدث المجرم ، على ان يكون العلاج فردياً اي يعامل كل طفل بما يتفق وحالته . وقد يكون من الطريف ان نعلم ان هذا المؤتمر قرر ان يستعان في تدبير المال اللازم لتنفيذ مقترحاته بضرائب تفرض على غير المتزوجين او على الذين لم تتجب زواجهم اطفالاً ، أي ان يشترك العزاب والمحرومون من الاطفال في تربية اطفال الامة الذين تعوزهم العناية الابوية الاصلية

فاذا كان من فوائد هذا المؤتمر الحالي ان يوجه النظر الى مشكلات الطفولة ويرشد الى حلها او ينبه الى بعض وجوه الاصلاح في هذه الناحية الهامة لأدى بذلك اكبر رسالة اجتماعية لبلادنا في الوقت الحاضر

الاطفال الشواذ

للمصنف سامي مسونر بك

ناظر معهد التربية

١ — التربية الحديثة تعتبر الطفل من المادة الدراسية وهي في ذلك تخالف ما درجنا عليه من العناية بالدروس المدرسية وحشو أدمغة التلاميذ بشتى المعارف دون نظر الى الطفل نفسه . فقد كان ههما ولا يزال مناهج الدراسة وشغل اليوم المدرسي بالدرس والتحصيل . اما المدرسة الحديثة فتجعل الطفل نفسه مادة الدراسة فتتناول وظيفتها نمو الطفل جسمياً وعقلياً وروحياً ولذلك اشترك في اعداد وسائل التربية للطفل اخصائيون في هذه النواحي منهم الطبيب والسيكولوجي والمعلم وخير الشؤون الاجتماعية وهؤلاء جميعاً يتعاونون في هذه الوظيفة السامية ومن ذلك نشأت العيادات الطبية السيكولوجية واتسع عملها واصبحت جزءاً ممتماً لعمل المدرسة للعلاج والارشاد

٢ — ولما كان التعليم قد صار الزامياً في جميع الدول المتقدمة ومجانياً في مرحلة التعليم الاولى او الابتدائي وفي المرحلة التالية ايضاً في كثير منها بحكم ان الاتفاق على التعليم قد صار من خير الوسائل لاستثمار مال الدولة . ولما كان الاطفال لم يولدوا جميعاً كاملين ذوي استعداد واحد فقد تعاون هؤلاء الاخصائيون في ايجاد التعليم الملائم لكل فئة وبرز السيكولوجي في الميدان واخذ يعمل مع الطبيب والمعلم والخبير الاجتماعي وقسموا الاطفال الى فئات ثلاث الموهوبين والعاديين والشواذ . فالموهوبون هم الاذكياء وهؤلاء تعلم بلائتم ذكاءهم ويكون منهم القادة والزعماء والبارزون في جميع الاعمال . والعاديون هم الاغلبية ولهم تعليمهم الخاص ايضاً . واما الشواذ فهم المرضى والباطسون . وشذوذ هؤلاء اما جسمي واما حسي او عقلي ويتفرع منه الشذوذ الخلقي . وذوو الشذوذ الجسمي يجب ان تكون لهم مدارس خاصة وتعليم خاص يعدهم للحياة العملية ويجب ان تهأ لهم اسباب السعادة في مرحلة التعليم وان يعالجوا علاجاً يحسّن حالتهم بقدر الامكان . والسبب في عزلهم في مدارس خاصة ان لا يشعروا بالنقص والعزلة اذا وجدوا في مدارس العاديين ولان اساليب تعليمهم وعلاجهم تختلف عن اساليب وتعليم العاديين وعلاجهم . ومن هؤلاء الصم والبكم والعميان والمصابون بقصر البصر والابترون والمقعدون والبرص والمرهفون وذوو العلل الصدرية والقلبية وهؤلاء الاخيرين مدارس تسمى مدارس الهواء الطلق

وهنا اقف قليلاً لازيل سوء الفهم الشائع بمصر عن مدارس الهواء الطلق فنحن حين طلبت الوزارة للمدارس ان تعنى بالتعليم في الهواء الطلق واخذ كل مدرس ينتقل بتلاميذه الى حوش المدرسة يعلمهم

في الهواء الطلق سواء أكان الجو صافياً نظيفاً أم شديد الحرارة أم ذا رياح محملة بالأتربة . ومرت الايام ونام المشروع وخبت الحماسة له . وفي الايام الاخيرة قرأنا في احدى جرائد الصباح اليومية ان بعضهم تقدم لوزير المعارف بمشروع يقضي بانشاء مائة مدرسة من مدارس الهواء الطلق في الارياف تقوم كل مدرسة على قطعة ارض مساحتها فدان ويحيط بسور من الاسلاك الشائكة ويبني الاساس بالحجر ويكمل البناء باستعمال الطوب النيء للاقتصاد طبعاً — وكل هذا للاسف خلط في خلط ولا يقوم على دراسة او معرفة الحاجة الى هذه المدارس . فمدارس الهواء الطلق لا يقصد منها مجرد التعليم في الهواء الطلق ولا يقصد منها ان تكون لجميع التلاميذ وان كان من المسلم انها تكون خيراً من المنازل المستأجرة لمدارسنا . وانما المقصود ان تكون للمرهفين وهؤلاء يحتاجون لتعليم خاص ليس فيه ارهاق وعلاج جسمي خاص والعب رياضية خاصة وغذاء خاص وراحة في اسرة اثناء النهار وخصوصاً بعد الغداء ويقوم بالاشراف عليهم مدرسات وممرضات يكونون تحت اشراف الطبيب باستمرار ويحسن ان تكون مدارسهم داخلية لضمان العلاج والاشراف على التريض ومن ينقله من الاطفال ينقل الى المدارس الاخرى العادية على ان يلاحظ في ذلك ان الاطفال المسولين فعلاً يجب فصلهم في مدارس خاصة بهم حذر العدوى وتسمى المصححات . والعجيب في الاقتراح انه سيجعل المائة المدرسة في الريف مع ان المدن هي المحتاجة الى هذه المدارس حيث يكثر المرهفون واطفالنا في الريف والحمد لله يمرحون في الشمس والهواء الطلق طول النهار

٣ — تأتي الآن للشذوذ العقلي . وقبل ان نتكلم عنه يحسن ان نقول ان علم النفس التجريبي قد تقدم تقدماً كبيراً في العشرين السنة الاخيرة فاصبح من الميسور قياس الذكاء والقدرات العقلية ومعرفة الموهوبين والعاديين وناقصي الذكاء بواسطة مقاييس مقننة يعتمد عليها كل الاعتماد . وقد صار لهذه المقاييس شأن هام لا في تدبير اساليب التعليم فحسب بل في حل كثير من المسائل التعليمية . ومن بينها مشكلة الامتحانات فعلى اساس هذه المقاييس يوزع التلاميذ في الفصول المختلفة بالمدرسة وتبهاً الدراسة المناسبة لكل فئة . ومن نقص ذكاؤهم عن مستوى خاص (٧٥٪ من الذكاء العادي) عادةً تنشأ لهم مدارس خاصة تسمى مدارس الشواذ عقلياً وتكون الدراسة فيها عملياً وفردية لكل طفل بحسب استعداداه وقدراته وتوكل للعيش الهنيء والرضا بالحياة

٤ — والنقص في الذكاء والتأخر في الدراسة قد يكون ناشئاً عن امراض جسمية كالزوائد الانفية واضطراب افرازات بعض الغدد الصم او الامراض المتوطنة او الامراض الوراثية او اصابة نخية او مرض قديم من امراض الطفولة كدسوتاريا حادة او حمى النيفود وكل هذه يعالجها الطبيب . وهنا تبرز فائدة تعاون الطبيب مع المدرسة وفائدة العناية بصحة الطفل . وقد يكون السبب ناشئاً من اضطراب البيئة او فقر الاسرة وسوء المسكن او التغذية او ادمان احد

الابوين او سوء معاملة المدرس . وهنا تبرز فائدة الخبر بالشئون الاجتماعية واتصال المدرسة بالمنزل . وقد تدهشون لو علمتم ان كثيراً من الاطفال الأذكاء يذهبون ضحية الاضطراب العائلي او ضحية نظامنا المدرسي ويتصل بالشذوذ العقلي شذوذ آخر يمكن ان نسميه بالشذوذ الخلقي وأقول يتصل به لأن الشذوذ الخلقي يؤثر في العقل وفي قدرة التحصيل . وأسوأ أنواع هذا الشذوذ ما يصل الى درجة الاجرام عند الاحداث ولذلك أنشئت لهم اصلاحات الاحداث لا ليسجنوا فيها بل لاصلاحهم وعلاجهم وعلى هذا يجب ان تكون الاصلاحات في يد مربين مصلحين وتحت اشراف عبادة سيكولوجية . وقد صار من الميسور علاج الشذوذ البسيط عند الاطفال كالكذب والسرقة والشراسة والخوف وما شا كل ذلك بارشاد القيادات السيكولوجية وباتصال المدرسة بالبيت وازالة أسباب هذا الشذوذ

والآن يجب ان اقول كلمة عن الشواذ بمصر وأين هم وواجب وزارة المعارف نحوهم . لا جدال ان الشذوذ بأنواعه موجود بمصر ويجب ان تنشأ للشذوذ الجسمي مدارس على ميزانية التعليم العام وان يعد المدرسون بهذه المدارس اعداداً خاصاً أما الشذوذ العقلي فيمكن فيه ان نوزع التلاميذ في جميع المدارس على حسب مقاييس الذكاء ثم نسير في تعليم كل فئة على قدر استعدادها وان نفصل من يقل ذكاؤهم عن ٧٥٪ في مدارس خاصة تقوم فيها الدراسة على أساس الحس والمشاهدة والتوجيه المهني

ان نظام توزيع التلاميذ في الفصول بمدارسنا نظام عتيق قائم على اعتبار جميع التلاميذ سواء في قدرتهم العقلية وذكائهم . ومن أجل ذلك لا تدهشكم كثرة الرسوب والافراق في الامتحانات وكثرة المطرودين من المدارس الاميرية وقلّة نسبة النجاح في المدارس الحرة . فالتلميذ الذي يتكرر رسوبه يطرد وينتظم بمدرسة اهلية ويحقق فيها ايضاً لاننا لم نعطه التعليم الملائم لذكائه . بل استعجلناه فزل وفقدناه . لا تهملوا المدارس الحرة بهمة انحطاط التعليم فيها بل لوموا النظام والاساليب

٦ — لقد خرج المعهد عدداً لا بأس به من الشبان ذوي الاستعداد الحسن لمجاراة نزعات التربية الحديثة وكل واحد منهم قادر على اجراء مقاييس الذكاء وتوزيع التلاميذ على مقضاها ويجب الانتفاع بهم في هذا الامر وفي توجيه التعليم توجيهاً يلائم كل فئة ويجب ان يمنحوا شيئاً من حرية التصرف وان يقوم العمل بالمدرسة على المرونة وحل المشكلات كلاً منها على حدة لا التقيد باللوائح والمنشورات والعمل من اجل النتائج والامتحانات

٧ — اذا أمنا وصدقنا ان الطفل هو مادة الدراسة الحقيقية وان المواد الدراسية يجب ان

نصاغ على قدر استعداد الاطفال. واذا آمنا بأن التعليم هو اعداد للحياة السعيدة وان مرحلة التعليم هي جزء من الحياة ولذلك يجب ان نعمل على جعلها سعيدة ايضاً لامرقة منفرة، اذا آمنا بكل ذلك فقد آن الاوان ونحن في مسهل عهد يتطلب التجديد والنهوض ان نحاسب انفسنا بانفسنا وان نسأل مثل هذه الاسئلة

١ — هل المدرسة المصرية بيئة صالحة لنمو الطفل جسدياً وعقلياً وروحياً
٢ — هل التلميذ في نظر المدرسة المصرية اهم من المواد الدراسية ام همنا الاول هو الدرس والتحصيل والتجاح في الامتحانات

٣ — هل هناك تعاون بين المدرسة والبيت
٤ — هل نحن مدركون ان اتفاق المال على التعليم من احسن وسائل الاستثمار في الدولة
٥ — اذا كانت الميزانية لا تسمح بالتوسع وانشاء مدارس خاصة للشواذ فهل فكرنا في التجديد والتنوع في المدارس الحالية بدلاً من انشاء مدارس جديدة على غرار المدارس الحالية وهلا فكرنا في انشاء بعض المدارس الحديثة في حدود الميزانية بالغاء بعض المدارس الحالية
٦ — هل تعليم البنات بحالتها الراهنة تعليم مستقيم يعد المرأة حقاً لرسالتها المقدسة وهي الامومة
٧ — هل التعليم عامة بحالته الراهنة يهيء جواً من السعادة في المدرسة ويعد للحياة السعيدة المستقبل بتوجيه كل طفل توجيهاً يلائم استعداده وقدرته

٨ — هل المباني المدرسية الحالية صالحة لنمو اطفالنا وهل اجورها الباهظة تدفع لصالح الاطفال ام لصالح الملاك. وهل هذه الاجور تعادل الارباح المعقولة لجانب من المال اذا وظف في بناء مدارس على الطراز الصحي الحديث واقول الطراز الصحي الحديث ولا اقول الطراز ذي الابهة والفخامة لان المدرسة الحديثة هي المدرسة الصحية البسيطة التنسيق الواسعة الساحات والملاعب

٩ — ثم هلا ترون معي بعد هذا البيان ان المدرسة المصرية بحالتها الراهنة لا تعالج الشذوذ فحسب بل تخلقه خلقاً من غير قصد

لقد اضطلعت وزارة المعارف وحدها بأمر التعليم والتربية وقيدتنا بأغلال من القوانين واللوائح والمنشورات ومن الكتب والادوات المدرسية ايضاً ولم تترك لنا نحن المعلمين شيئاً من الحرية والتصرف والابتكار فمن حقنا ان نسأل هذه الاسئلة وامثالها لانتا أدري بحاجات الطفل في مراحل نموه المختلفة

ان مصر استقلت وهذا أوان النهوض والتجديد !!

الاطفال ذوي العاهات

للمميرة زاهية مرزوق

المفتشة بوزارة المعارف العمومية

إن موضوعي اليوم لمن أهم الموضوعات الاجتماعية وأخطرها ولا سيما في مصر ، حيث تقع العين في كل مكان وزمان على عشرات من الاطفال ذوي العاهات ، منتشرين في الشوارع والطرق يستدرون عطف الجمهور على ما اصابهم من ظلم الحياة

سادتي : إن ما شجعتني على الوقوف امامكم اليوم هو شعوري بإمكان استئثاره شعوركم ، نحو تلك الطفولة البريئة المعذبة التي نبذها المجتمع واشتأز منها وهضم حقها وانقلب حرباً عليها ، لا لذنوب جنت ولا لجريمة ارتكبت ، إلا لإذعانها لحكم الطبيعة القاسية ، ووجودها في تلك الحياة لتذوق صنوف الذل والبؤس والشقاء

ان مشكلة العاهات في مصر تخطو خطوات واسعة في سبيل الخطورة والتعقيد ، فقد أثبت التعداد الاخير ان في مصر ما يقرب من نصف مليون شخص ذي عاهة . منهم ١٠٩ آلاف أعمى ، و ٢٦٦ ألف أعور ومحدود البصر ، و ٢١ ألف أصم وأبكم . والباقيون ذوو عاهات اخرى لم أتمكن من حصرها ، تشمل ضعيف العقل ، والمقعذ ، والابتر ، والأعرج ، والأشل وغير اولئك . وعلى العموم فان إحصاء العاهات جميعها يسفر عما يقرب من ٣ ٪ من سكان القطر المصري

ولقد أحسنت الحكومة المصرية صنعا عندما سنت قانون منع التسول ، ولكن هيات لها أن تمنع ذلك التيار الجارف ، اذ ليست العبرة بالقوانين وإنما العبرة بالعمل وفي رأيي ان ما يقوم به الافراد واجتماعات من تقهمل أسباب التشرذم والعمل على تلافيه هو أجدى من الف قانون

ومجرب ألا تأخذ على هؤلاء الشواذ تسولهم ، فطبيعة حب البقاء تدفعهم الى طلب الرزق والعيش ، وإنما يجب أن نأخذ على أنفسنا تركهم يتسولون لاعتقادهم أنهم اجسام بشرية مهمة عديمة النفع لاسيلا لها في الحياة إلا أن تعيش متطفلة على الغير ، ويجب ان نعتني بتعليمهم وتثقيفهم حتى تثير لهم طرق الحياة ، فيخفف عن المجتمع هذا الحمل الثقيل ، ومن يدري فربما ظهر منهم النوابغ والقادة والمفكرون

ولا يمكن أن تعد الأمة عادلة إلا إذا أعطت كل فرد من أفرادها من دون استثناء حقه كاملاً في التمتع بالثقافة والتعليم. فكما أن للطفل الشاذ الحق في أن يأكل ويشرب وينام فكذلك له الحق في أن يتعلم ويتفقف ويساهم في بناء حضارة أمته ومستقبلها

والطفل الحق في أن يخرج الى تلك الحياة صحيح الجسم قوي البنية متمتعاً بحقوق الطفولة. فيجب أن نعطيها العناية الصحية والتعليمية والخلقية من يوم ولادته الى يوم ولوجه حياة الكفاح. وإن تعذر ذلك أو كانت الوراثة حائلة دون تنفيذه فيجب أن نرحم الطفل ونرحم أنفسنا ونمنع تكوينه. وإن ما سنته المانيا من منع هذا النسل المشوه لخطوة جريئة تستحق الشكر والثناء

وربما يدهشكم أيها السادة إذا علمتم أن ٩٥ ٪ من العمى في مصر كان يمكن تلافيه والوقاية منه. فكم من أطفال أصابهم العمى دون ذنب، وكم منهم على وشك اللحاق بأخوانهم، وما ذلك إلا لأهمال الأم وجهلها أو لعدم ملاءمة البيئة أو عدم الاعتناء بطرق التعليم الخاصة وغير ذلك. وفي مصر نجد أن في كل ألف شخص ٨ عميان و١٨ من ضعاف البصر أو على وشك العمى، وبعبارة أخرى فإن عدد إصابات العين ٢٦ إصابة لكل ألف شخص، وهذه نسبة لا يستهان بها وأما من جهة الصمم والبكم فهما أخف وطأة وأقل خطراً. ومن الغريب أننا لا نجد بين المتسولين ومحتري الشحاذة من هو مصاب بالصمم أو البكم إلا نادراً جداً. وربما كان ذلك ناجماً من عدم ظهور تلك العاهة أمام عين الجمهور فلا يتمكن المصاب بها من استئثاره العطف عليه

وأما ضعف العقل فهذا على ما أظن لا يمكن إحصاؤه حتى الآن لعدم استعمال اختبارات الذكاء على الاطفال عامة. فما نجده في الإحصاء العام إنما هو تعداد الاطفال البلهاء فقط، وأنتم تعلمون أن ضعف العقل درجات. ولا ننظر من ضعف العقول أن يدركوا جميع القوانين والأصول الاجتماعية فتركهم كذلك في المجتمع إنما يزيد مشكلة الاجرام وهدم القوانين الاجتماعية خطورة وتقيداً. وكثيراً ما تستعمل هذه الفئة كآلة في أيدي المجرمين الأذكياء لقضاء ما ربههم الدينونة

وهناك طائفة أخرى من ذوي العاهات هي نتيجة المدنية والحضارة، فلا يمر يوم إلا ونسمع بحوادث الترام والسيارات فيذهب الأطفال والرجال ضحاياها، إما الى الموت وإما الى عالم العاهات. وكم من أطفال حرموا لذة الجري واللعب فأصبحوا مقعدين، وكم منهم أصبحوا بترأ وكم منهم فقدوا حاسة أو عضواً من أعضائهم

ولو أمكن عمل تعداد صحيح لهذه الفئة لها لكان أيها السادة تضخم النسبة. إن هذه الحال يجب ألا تستمر. فكم منكم لديه أولاد يخاف عليهم ويخشى غائلة تلك الحوادث. فيجب علينا إزاء

ذلك ان نهب للحفاظ على نشء المستقبل الذي نحن أحوج ما نكون الى صحة بدنه وخلوه من العاهات . ويجب ان نحافظ على الغني والفقير منه ونصد عنه مكاره المدنية وآلاتها وليس من بلد الا وفيه الآن حركة واسعة النطاق لحفظ النشء ضد الحوادث والأهوال وفي سبيل ذلك يتضامن الشعب مع الحكومة لسلامة الاطفال . ولقد سمعت بانجلترا في الصيف الماضي وزير المواصلات يتحدث بنفسه الى الاطفال خاصة في هذا الموضوع ويذيع عليهم راجياً ان يسعوا نصيحته الأبوية ويتبعوا التعليمات والارشادات المعطاة لهم في المدرسة عن كيفية عبور الشوارع وإرشادات البوليس وغير ذلك مما يضمن لهم السلامة العامة

وكثيراً ما نجد الاطفال في مصر يتخذون الترام وسياتهم الوحيدة للهو والتسلية ، أو يلعبون في الشوارع العامة معرضين انفسهم للاخطار . وما ذلك الا لمجرد حبهم الطبيعي للعب والتسلية . وهم في الحقيقة يجب ألا يلاموا على ذلك وإنما يجب ان نلوم انفسنا على عدم انشاء المحلات اللائقة والكافية لأشباع ميلهم الطبيعي للعب . اذاً فيجب على الحكومة ان تضع نصب عينها انشاء ملاعب الاطفال وتزويدها بما يجب من الألعاب المسلية البريئة التي تلذ للاطفال وتجدد نشاطهم . وكثيراً ما نجد في البلاد الاوربية والاميركية هذه الملاعب مزودة بجميع اللعب ، منظمة أحسن تنظيم وبها اخصائون لادارة الألعاب وارشاد الاطفال يجب علينا ان نفكر جدياً في مشكلة الاطفال ذوي العاهات ، ويجب علينا ألا نتركهم في الشوارع يهيمون . بل يجب أن ننشئ لهم المعاهد العلمية الصحيحة التي فيها يجد الطفل ما يحتاج اليه من التربية والتعليم والتوجيه الخلقي والعمل الصحيح الذي يعده ويمكنه من تذوق لذة الكفاح في الحياة . ولو اتسع الوقت لذكرت لكم المدهشات التي يراها الانسان عند زيارة هذه المعاهد في اوربا واميركا ، فنجد الشخص الذي يقرأ بلسانه ، او يكتب ويرسم برجليه ، وغير ذلك مما يدلنا على قوة استقلال كل ما يمكن استغلاله من أعضاء المرء ليعوض نفسه جانباً مما فقدته بفقدان الأعضاء الاصلية

ولا أطيل الحديث ايها السادة ، ولكي متأكدة أن في وسع كل فرد منا رفع مستوى أمته في ناحية من النواحي ، وهذا ليس بالمساعدة في إعطاء الشحاذين والمتسولين القروش والماليم ، ولكن بنشر الدعاية او بمطالبة الحكومة بإنشاء ملاعب للاطفال في كل قسم او بجمع التبرعات للجمعيات الخيرية ، او تفهم الاطفال تفهماً صحيحاً يخفف عبء المشاكل الاجتماعية التي مجدها في المنازل المصرية

الطفل وأوقات الفراغ

لبيد فام

يقصد بأوقات الفراغ تلك الفترة الزمنية التي تعقب النشاط المدرسي ، فالطفل يذهب الى المدرسة في الساعة الثامنة مثلاً ويخرج منها في الساعة الرابعة بعد الظهر ، ثم يستذكر دروسه ساعتين او ثلاثاً ، وينام بعض الوقت وينفق البعض الآخر في الاكل ولوازم الحياة الضرورية وما تبقى بعد هذا يعتبر وقت فراغ في حياة الطفل

واول شيء نلاحظه في مصر انه ليس للطفل فراغ بالمعنى الذي نفهمه لان معظم ساعات النهار تنفق في الدروس والمدرسة وما يتصل بهما عن قرب او بعد ، ومجموع ما يصرفه في هذا يقرب من ستين ساعة في الاسبوع وهذا بالطبع كثير على صبي ما بين العاشرة والسادسة عشرة ، وقد حرم على المصانع في الغرب ان تشغل العمال البالغين اكثر من ٤٨ ساعة في الاسبوع وبعض الامم جعلها اربعين ساعة فما بالك وهؤلاء اطفال يفعلة يحتاجون الى الحرية لينموا نمواً يتعذر من دونها

لقد غالينا في مسألة التعلم مغالاة جعلته عبئاً ثقيلاً على الناشئة ، ولا سيما والتعلم في مصر من الاعمال الشاقة المرهقة التي تنوء بها قوى الاطفال البدنية والعقلية ، وعوضاً عن ان تكون المدرسة امتيازاً للاطفال اصبحت تكليفاً لهم ، وحرام ان ينوء اطفالنا بتكاليف الحياة وهم في مستهل حياتهم الواقع ان التعليم عملية تتم في نطاق النشاط العادي ومن غير حاجة الى هذا الارهاق . يستطيع الطفل ان يتعلم ما يشاء وما يراه عن طريق اللعب والنشاط الحر الذي ينبعث عن دوافعه النفسية ، ولست اعرف طفلاً واحداً خرج من اسرة حديثة راقية من دون ان يكون قد تعلم مبادئ القراءة واللغة او بعض اللغات ، والحساب والجغرافيا وما اشبه . وذلك عن طريق اللعب والنشاط الحر دون ارهاق او تكليف ثقيل ، فاذا كان هذا مستطاعاً في بعض الحالات فلماذا لا يكون مستطاعاً في جميع الحالات ؟ لا بل لماذا لا يتعلم الاطفال عن هذا الطريق — طريق اللعب والنشاط الحر — كل ما يزمعون ان يتعلموه ؟ ولماذا لا تستنبط المدرسة طرقاً متعددة متباينة تجعل التعليم في حكم اللعب عوضاً عن ان يكون في حكم الاشغال الشاقة ؟

بخطيء من يظن ان الحياة مؤسسة على المعارف والمعلومات او الحقائق المستقلة التي تعلمها في المدرسة او في غير المدرسة . اتنا بالطبع لا نكر ان الحقائق نافعة للحياة ، بل خير لي ان اعرف

الجهات الأربع الأصلية ، وينبغي ان اعرف الشرق والغرب والشمال والجنوب ، حتى لا اضل الطريق الى هذا المكان او ذاك ، وحتى أستطيع التفاهم مع الناس فيدلوني على مكان حديقة الحيوانات دون ان يكلفوا انفسهم الذهاب معي ، وخير لي ولك ان يكون في استطاعتنا تمييز الالوان حتى نستطيع ان تفاهم مع الناس ، هذا حق ، ولكنه حق من الجهة الاخرى ان هذه المعارف والحقائق ليست اساسية للحياة ، فالفردي يستطيع ان يعيش وينشط دون ان تكون له هذه الحقائق . والدليل على ذلك ان الجالسين في هذا البهو قد يختلفون فيما بينهم على تحديد هذه الجهات . وهذا يحدث عادة عند ما ينتقل المرء الى بلد غريب ، أما الالوان فأمرها مشهور معروف لأن اختلاط الالوان مرض منتشر الى حد ما وهو ما يسمونه Colour Blindness وهو مرض يصعب اكتشافه في الفرد المصاب به ، وعلى كل حال ماذا يفيد الأعمى من الالوان !

الغاية من هذا الكلام ان الحياة لا تتوقف على معلومات مفردة متباينة يجمعها الفرد في المدرسة او في غير المدرسة عن طريق التلقين ، وإنما ما ينفع الحياة هو الاختبار ، الحياة والعيش من يوم الى يوم ، الأخذ والعطاء بين أفراد الناس ، الاحساس المباشر بمؤثرات الحياة حولنا ، وهذه جميعاً لا يحصل عليها الطفل من الجلوس في حجرة الدرس ، وإنما ينالها من معاركة الكون الطبيعي حوله ، ومن اتصاله اتصالاً مباشراً بالاحياء وبالنظم الاجتماعية

في المدرسة يحصل الطفل على معلومات وحقائق قد تنفعه في حياته العادية وقد لا تنفعه ، وإنما يجمعها على كل حال ، وفي خارج جدران حجرة الدرس يخضع لمؤثرات الحياة ، ويستجيب لهذه المؤثرات بنشاط ينبعث عن دوافعه النفسية ، ونشاطه هذا هو في الواقع الأساس الذي تقوم عليه حياته في مجموعها . في المدرسة نعرف ، وفي خارج المدرسة نعيش ، ونحن هنا نطلب العيش للطفل لأن غرامنا في هذا البلد يجمع المعلومات المبعثرة المتناثرة قد طغى على تقديرنا للحياة والعيش . لقد اصبحنا نرغم أطفالنا على اهمال الحياة والعيش من أجل فئات الحياة ، من أجل بعض المعلومات والمعارف التي لا تسمن ولا تفي من جوع

اذا كان الأمر كذلك فحياة الطفل تتوقف الى حد كبير على نشاطه خارج حجرة التدريس ، او على أوقات فراغه ، ونوع النشاط الذي يقوم به من تلقاء نفسه من دون ارغام او ضرورة خارجية ، هذه الفترة هي التي تكوّن الطفل وتكيف حياته من جميع جهاتها ، وتلمي ملكاته النفسية والبدنية ! وماذا نطلب نحن الا هذا ؟ ماذا نريد غير تكيف حياة الطفل وتسمية ملكاته ؟

لا نقصد من كلمة « الفراغ » الوقت الضائع لغير غاية أو قصد ، الذي نراه يتناثر من بين أصابع الناس بالدقائق والساعات ، فهذا وقت لا ينفع الحياة بحال من الاحول ، وإنما يقطع منها

لغير سبب إلا الكسل والاهمال ، وهذا هو الحال مع كثير من الشبان والرجال الذين ينفقون ما يقرب من خمس أعمارهم في شرب عدد من فناجين القهوة على قوارع الطرقات . أما نقصد بأوقات الفراغ تلك التي يقضيها الصبي في نشاط حر من تلقاء نفسه ينبعث عن الدوافع الطبيعية للحياة كاللعب مثلاً . اللعب ميدان فسيح من ميادين الحياة تنشط فيه لأغراض تتوخاها الحياة بنفسها ، أنه ضرورة من ضرورات الحياة كالغذاء والتنفس سواء بسواء مع فارق بسيط بينهما ، وهو ان الضرر الناشئ عن حرمان الطفل من اللعب ضرر مؤجل تظهر آثاره بعد سنين كثيرة ، بينما الضرر الذي ينتج عن حرمانه من الغذاء حرماناً باتّسا ضرر عاجل تظهر آثاره في أيام معدودات

نريد ان نثبت هذه الحقيقة في ذهن الجمهور المصري وهي ان الحياة تتوقف على نوع النشاط الذي تقوم به ، فلا ينفع الحياة شيء سوى ما تقوم به هذه الحياة في مجموعها وفي تفاصيلها ، الحياة كوحدة كاملة والحياة في أعضائها المتعددة ، وبعبارة أخرى لا ينفع الرثة مثلاً إلا ما تقوم به هي نفسها ، اذا ما انتفخت وتقلصت في هواء تقي ، فالرثة لا تصبح قوية بحال إلا اذا نشطت ، وإلا اذا كان نشاطها منظماً مستمراً ، وعندما يضعف نشاطها تضعف هي ، ثم اذا انقطع نشاطها انقطعت بها سبل الحياة

هذا هو شأن الحياة في مجموعها وفي تفاصيلها ، تريد ان يكون طفلك عداء ، مهد السبل لتقديمه لتنشط ، دعه يجري ويعدو ، ولا نستطيع ان نرى سبيلاً غير هذه لمثل هذه الغاية ، فأرجو ان تسمعوا لي ان اكرر هذه الحقيقة مرة أخرى وهي ان الحياة لا تقوم بحال من الاحوال إلا على ضروب النشاط الذي تضطلع به الحياة

١- اذا كان الامر كذلك دعونا نعود الى موضوع اللعب ، لنرى مقدار صلاحية ميدان لنشاط الفرد ، ولا اظن احداً هنا يازعنا في ان اللعب بانواعه ميدان صالح لتنمية الجسم في مجموعه ، ولتقوية أعضائه كل على حدة . هذه حقيقة مفروغ منها ، اذا كننا نريد اطفالنا على ان يكونوا اصحاء البدن اقوياء البنية معتدلي القامة على جانب وافر من النشاط ، فما علينا إلا ان نمكّنهم من أخذ حاجتهم من اللعب

٢- ولكن الناحية المادية من اللعب ليست هي كل ما يناله الفرد من هذا الضرب من النشاط ، فقد استقرّ في ذهن البعض من قديم الزمان انه نشاط مادي بدني صرف ، والحقيقة على خلاف ذلك ، لان علماء التريّة يجمعون على انه نشاط عقلي اجتماعي ايضاً ، فالارتباط بين البدن والعقل امر مفروغ منه ، هذه المادة التي تنطوي عليها جمجمة الرأس والتي يتم فيها النشاط العقلي هي مادة بلاشك ، شأنها كشأن جميع المواد تتغذى وتتكيف وتنمو وتنشط كباقي الاعضاء ، سواء بسواء وحظ هذه المادة من النشاط الذي ينبعث من اللعب حفظاً وافر غزير ، فهي بحكم مركزها

تهيمن على كل انواع النشاط ، ولا يمكن ان يتم نشاط ما في أي جزء من اجزاء الجسم دون ان يمر هذا النشاط اولاً بتلايف المنح او ما يتصل به كالحبل الشوكي ذهاباً واياباً فشكل حركة يأتيا الانسان طوعاً لا بدوان تمر به

٣ — قلنا ان اللعب ليس نشاطاً مادياً صرفاً ، والا ن تقول انه نشاط يشمل جميع مناحي الحياة من عقلية واجتماعية وبدنية والفرق بين اللعب والعمل في رأينا هو ان الاول منها ينبعث من دوافع نفسية ، بينما العمل منشأه الدوافع الخارجية ، فالنجار الذي يفضل شيئاً آخر على التجارة ومع ذلك يشتغل بها لا إقامة اود حياته وحياته عياله انما هو يشتغل ، ولكن الطالب الذي يمارس التجارة للتسلية فهو يلعب ، وهذا الضرب من النشاط له اثره في اخلاقه وتكوينه ، وهكذا الحال في جميع مرافق الحياة ، فقد يكون الامر الواحد لعباً وعملاً شاقاً في نفس الوقت والناس قد اصطلحت على ان تترك اللعب لاوقات الفراغ ، او بمعنى آخر يلعب الانسان اذا لم يكن مكلفاً من جهة ما القيام بعمل معين ، وفي آخر الامر يصبح اللعب نوعاً من العمل يهواه الفرد ويضطلع به اجابة لميوله الخاصة ومشاعره النفسية

ونحن ندعو في الترية الى الاكثار من هذا الضرب من النشاط فان عليه يتوقف مصير الفرد ، نريد من الامة المصرية ان تراعي ميول الاطفال عندما تستن لهم مناهج التعليم حتى لا يصبح العلم اشغلاً شاقاً يدفع عنها الاطفال قسراً وهم صاغرون

تحاول وزارة المعارف ان تدخل هذه الروح — روح اللعب — الى حجرات الدرس ، فان نجحت في هذا خدمت اطفال هذا البلد ، وان عجزت دونه ، ستبقى مشكلة التعليم قائمة في مصر

